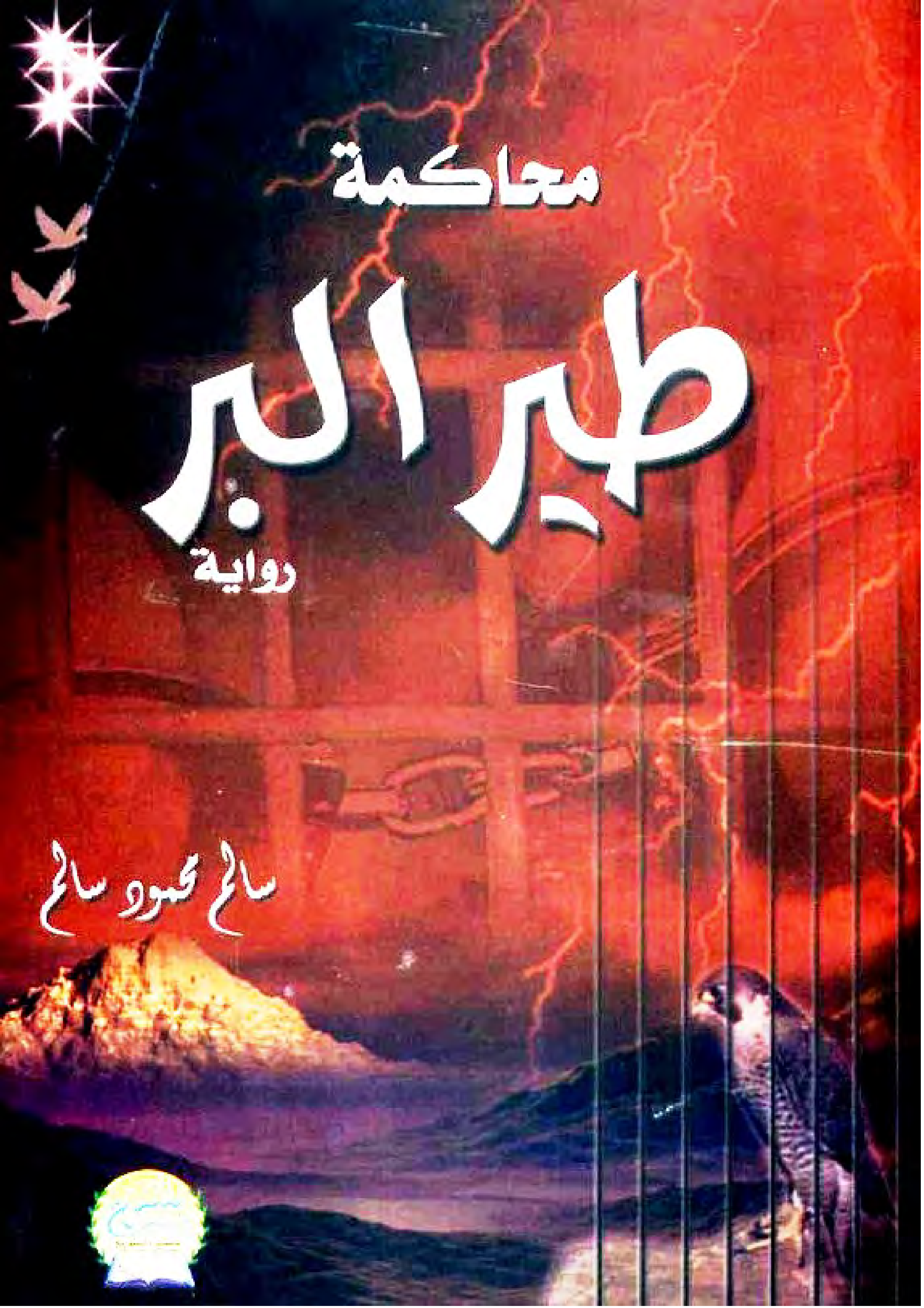

محاكمة
طير البر
رواية
سالم محمود سالم

محاكمة طير البر

سالم محمود سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

بلنسية للنشر والتوزيع

٨ ش جمال حمدان - خلف عمارات المقاولون العرب - آخر شارع مصطفى النحاس - الحى الثامن - مدينة نصر

ت : ٠٠٢٠٢٩٢٨٨١٢٩
فاكس : ٠٠٢٠٢٩٢٨٨١٢٩
محمول : ٠١٢٤٣٩١٧٤٢

ص . ب : ١١٧٤٦٠
برقيا : الحى الثامن - م.نصر
القاهرة - مصر

BALANCIA
BUPLISHERS
Cairo - Egypt

Tel : 002029288129
Fax : 002029288129
Mob : 0124391742
P.O.Box : 117460
E-Mail :
anagmyy@yahoo.com
Web Location :
http://www. balancia.com

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية :

ISBN :
14.8X 21 cm . 265 P

إهداء

الى فرحة قلبي ونور عيني

هدير

محمد

محمود

أولادي

سأغلق مخزن أسراري ...
حتى لا يتدفق ألمي كلمات تفضحني ...
وهالات الذكرى النورانية ...
تطوف أفق الزمان الصامت ...
تدغدغ عمق الإحساس ...
وتشرب من بئر التمني ...
ذكريات ..

سالم محمود سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يصعب على المرء أن يقدم للناس رؤية فنية لعمل ثائر ، ليست له شطآن مألوفة ، أو معالم واضحة ، وهذه هي الرواية في تصورها الصحيح ، فحق أن يقال عنها اليوم : ديوان العرب ! فالرواية – أية رواية – هي حياة كاملة ، موّارة ، فوّارة ، لها عنوان الحياة نفسها ، وتحمل – أو هكذا يجب أن يكون الأمر – في طياتها تناقضات الحياة وغرائبها .

وكما تختلف تحليلات الناس للحياة نفسها ، تختلف تحليلات النقاد للرواية ، فلكل وجهة هو موليها .

غير أنه من الصعب أن نلملم أطراف الزمن الروائي، وأحداث الحياة الفنية التي يتشبه فيها الكاتب بالخالق العظيم ، فله أن يفعل ما يشاء ، لكن الفرق أن الخالق العظيم لا يُسأل عما يفعل، والروائيون يُسألون ، فهم يحتاجون دائما إلى استحضار خيط منتظم بسياق الحياة الإنسانية ، يسلم الحِدث فيه للحدث ، وتترتب النتائج فيه على المقدمات .

ولا شك أن الروائي الكبير مثقف كبير ، يحيط بكثير من الخبرات والتجارب الإنسانية السطحية والعميقة في آن ، ويطلع بانتظام على الإبداع الإنساني على المستوى الكوني .

وفي هذه الرواية (**محاكمة طير البر**) ستكتشف – بلا وساطة مني ومن أمثالي – ثقافة موسوعية للكاتب ، مكنته من إقناع القراء بما لا يقتنع به هو أحيانًا ، وجعلته قادرًا بتمكن نادر على جذب انتباه القارئ للتفصيلات الصغيرة ، ولما يدور في أحداث الرواية ، حتى بين حيواناتها وطيورها وعوالمهم العجيبة ، والتي استقى منها المؤلف – ربما – فكرة المحاكمة أو فكرة الرواية .

إن الرواية ليست بوليسية قطعًا ، فليست هناك تحقيقات دقيقة، ومطاردات عنيفة ، ومغامرات مثيرة ، بل هي رواية تجسد الحياة بكل ما فيها من خير وشر ، ويحسب لها أن الشخصيات ليست مسطحة غالبًا ، فهم كالبشر الحقيقيين سواء بسواء ، فالشرير قد يصحو ضميره ، ويقدم دليل براءةٍ لمتهم مظلوم ، والإنسان الخيّر المثالي في الظاهر أو (الوليّ) له أهواؤه وانحرافاته ، لكنه يتغلب بحكم غلبة جوانب الخير فيه على تلك النتوءات والالتواءات في شخصيته .

إنها إذن شخصيات طبيعية في الغالب ، صَوَّر المؤلف تصرفاتها المتناقضة أحيانًا ببراعة فائقة ، وأحيانًا بطريقة مقبولة ، لأنه هو نفسه ليس شخصية مسطحة أيضًا ، فله أن يتذبذب بين الدرجتين ، بل له أن يهبط عنهما ، لكنه لم يفعل إلا قليلا!

إن أبرز ما في هذه الرواية – فيما نرى – القدرة المذهلة على الحبكة ، وسبك الأحداث ، وترابطها بطريقة مقنعة ، هذه القدرة على الحكي بإتقان هي التي جعلت الرواية تشد قارئها شدًّا ، على الرغم من أنها ليست بوليسية ، لكنها لا تكاد تتميز عنها في الإثارة بشيء تقريبًا ، ولذا أعترف أني لم أنج من شرك هذا التشويق فقرأتها مرتين بشغف غريب على مثلي .

ولعل ما يلفت الانتباه ... من وجهة نظري – هو توحد الكاتب (الراوية) مع شخصياته ، فهو لا يتدخل ، كما في بعض الأعمال الفنية الأخرى ، في الأحداث ، ولا يشعرنا بأن شخصًا غريبًا يطلّ برأسه من أعلى إلى داخل النص إلا في حالات نادرة ، علت فيها الخطابية والمباشرة التي دفعته لها تلك الروح الإنسانية العالية ، والحنين للحياة النبيلة التي يحملها الكاتب بين حناياه – كما يبدو من الرواية - والتي لم يجد في سبيل تنبيهنا لضرورة إعادتها إلا التدخل السلطوي الفج أحيانًا ، وهو ما أشرت إليه آنفًا ، ولا داعي لذكر الأمثلة من الرواية عليه ، فلا مجال للنزاع أصلاً في ذلك ، وهو من الندرة بحيث لا يلام عليه الكاتب ، فالنادر لا حكم له .

أما اللغة فطيّعة منقادة ، تقتحم بالقارئ عوالم الرواية بانسيابية وجرأة ، كأنها دليل متمرس يخوض بك في الجبال والقفار، دون أن

تشعر بالوحشة أو المشقة ، لأُنسك به ، ولاستمتاعك بطريقته في القيادة السلسة ، غير أن الأمر لا يخلو من هنات لغوية قليلة لا تخفى على القارئ المتفطن .

ولا نكاد نختلف مع **سالم محمود** مؤلف هذه الرواية إلا في الرسالة التي يريد لها أن تصل إلى المتلقين في نهاية الرواية ، فهو يريد منا العودة إلى المقابر لنعيش مع الدراويش ، يريد منا الانسحاب غير المنظم من الحياة ، والانزواء في ركن قصي بعيدًا عن زيفها وفتنتها ، وله أن يرى ذلك ، ولنا أن نرى الحل في (كمال الاتصال مع كمال الانفصال) ، لنا أن نرى مكابدة الزيف ، ومعاناة الظلم ، ومجاهدة الباطل ، جزء من دورنا بل من استمتاعنا بالحياة ، ، لا تكون الحياة من دونه حياة أصلاً .

فمن الطبيعي أن يوجد المجرمون والمزيفون والظالمون ؛ لأننا لازلنا في الدنيا بكل ما فيها من تدافع وتصارع ، ولم نبرحها بعد إلى العدل المطلق ، والوجه الأحادي المشرق للقيم النبيلة .

غير أن هذا كله خارج سياق العمل الفني - كما هو معلوم - فالرسالة التي يحملها الكاتب هي جزء من تكوينه وثقافته ومخلوطه ونسيجه الفريد الذي لا ينبغي أن يحاكم عليه ، وإلا لصار الناس جميعًا نسخة كربونية واحدة .

ولذا اختلفتُ مع رسالة **يحيى حقي** في (**قنديل أم هاشم**) ولم ينقطع استمتاعي بروايته إلى هذه اللحظة .

لنا إذن أن نقرر أن **سالم محمود** في هذه الرواية قد أصبح واحدًا من القلائل الذين يستحقون أن نضيع أوقاتنا – التي نصفها عادة بالثمينة – في قراءتهم .

إنني أكتب هذا التقويم الآن ، وبين يدي رواية نابضة بالإبداع، في الوقت الذي ترامى فيه إلى سمعي منذ لحظات نبأ وفاة الروائي الملهم **نجيب محفوظ** .

فهل تكون هذه إرهاصة بميلاد ملهم جديد ؟!

د. منير جمعة أحمد
كلية الآداب - جامعة المنوفية

محاكمة طير البر

- ١-

لم يتوقع الحاج " حسن عبد البر " أن أمله سوف يتلاشى بهذه السهولة .. بعد الانتظار المرير على دروب اليأس ، وغفل أن الحياة ما هي إلا لحظات قليلة يريد امتلاكها جميعاً .. ولا يعلم أنها ستضحي سرابًا .. بعدما فاجأه القدر بالحكم على ولده " **سعيد** " كالصاعقة .. أطاحت به وبعثرت هذا الأمل.

شعر أنه يهوي في بئر مظلمة عميقة ليس لها قرار ، أو كمطرقة قد هوى بها القاضي على رأسه دون رحمة .. افقدته الوعي ، وروحه التي ساخت منه وكادت تنفلت إلى عالم برزخي .. تجوب جنبات قاعة المحكمة ، تحوم محتضنة الجدران العالية الباهتة وترفرف على رءوس القابعين فوق المقاعد الخشبية المتراصة بترقب وذهول ، ومن شدة الموقف .. حضر خصومه الجلسة وأضحوا مبهوتين عندما أخذتهم الصاعقة أيضاً في طريقها .. ثم انطلقت صوب ولده " **سعيد** " القابع في القفص الحديدي وحامت حوله .. ثم انطلقت بعد ذلك صوب الأفق الأبدي وتركته يواجه مصيره وحده .

أفلتت العصا العاجية من يد " الحاج " المرتعشة وهي تمثل جزءًا من تكوينه .. كاد يخر على الأرض .. انزلقت عباءته السوداء عن كتفيه ، ويداه تتشبثان بالمقعد المواجه له .. أحدثت العصا دويا كسر حدة الصمت المطبق عند ارتطامها بأرض القاعة الخشبية المتآكلة .. على عجل توجه " فرج " زوج " فاطمة " ابنته وتأبطه من الجهة اليمنى

وهرول " خروع " الذي يعمل عنده خوليا للزراعة وتأبطه من الجهة اليسرى ، ساعداه على صلب طوله .

توجها به نحو العربة المنتظرة بجوار الرصيف المواجه لباب المحكمة العتيقة بعد أن هبطوا به درجات السلم المهشمة .

أجلساه في المقعد الخلفي .. جلس " خروع " بجانبه ثم جذب رأسه وأراحه على صدره البارز والدموع تنهمر من عينيه كالشلال .. ثم قاد " فرج " العربة منطلقاً صوب قريتهم " **البجامون** " .

كان الوقت عصرًا .. العربة تطوي الطريق ، وفي إثرها بعض من العربات التي تقل بعضاً من أهل " **البجامون** " ، كاد النهار أن ينفلت عندما وصلت العربة وتوقفت أمام الدوار واستقرت كالنعش، " فاطمة " ابنته تقف أمام الدوار تنتظرهم وهي حائرة متوشحة بالسواد والدموع تنهمر من عينيها الذابلتين ممزوجة بالكحل الأسود الذي يسيل على خديها الأحمرين ، اعتقدت للحظة أن حيرتها انتهت عندما رمقت العربة ، لكنها ما لبثت أن صرخت عندما وجدت أباها محمولاً بين أيادي جمهرة من الأهالي .

هرعت أمها " إجلال " كالمأخوذة عندما رأت زوجها ، رفعت يدها وهوت بها على صدرها المنخفض صارخة :

- يا لهوي .. إيه اللى جرى يا فرج ؟ فيه إيه يا واد يا خروع " ؟

حدجها " فرج " بنظرة عميقة وانتابته حالة من بقايا جرأة مصطنعة وقال :

- **سعيد** خد إعدام يا خالة .

افترستها الحسرة .. نهشت قلبها الضعيف .. سقطت على الأرض ككومة من عظم يغطيها السواد .

تنبه الجد " سليمان " المتكئ على الكنبة العتيقة التي تتصدر الصالة الواسعة .. بجرمه النحيل .. رفع رأسه وهو يعدل الشال الأبيض المدلى على صفحتي وجهه المعروق ويواري لحيته الطويلة البيضاء المشربة بالصفرة القاتمة .. حدق فيهم ببصيص النور المتبقي في عينيه وأرهف السمع واضعًا أنامله على أذنه الكبيرة المهدولة . قال بفمه المتقلص :

- هو **سعيد** راح فين يا ولاد ؟ .. عند عمه همام ؟ .. همام هايرجع و **سعيد** كمان راجع .

لم يصغ إليه أحد .

وعلى الفور توجه " ميلص " الذي يعتبره أهل " **البجامون** " مخلوقاً غريب الأطوار وظريفاً ، وبصحبته " ميشيل افندي" مدير الجمعية الزراعية **بالبجامون** من تلقاء نفسيهما وأحضرا الدكتور " عزت " من الوحدة الصحية **بالبجامون** .

عمت الفوضى أرجاء البلد وثارت ثائرتهم ، الكل بكى كما لو كانوا قد واروا " **سعيداً** " الثَّرَى .

امتلأ الدوار بالناس عن آخره .. يتوسطهم العمدة " السباعي صالح " الذي يحملق بين الفينة والفينة في وجوه الناس من أهل " **البجامون** " محدثاً نفسه حسداً على كل هذا الحب والاهتمام البالغ الذي تتلقاه عائلة " عبد البر " من أهل البلد ، خصوصاً الشيخ " معتمد " إمام الجامع الكبير الذي جلس حزيناً .. مُقطب الجبين ..

رأسه ملفوف بالعمامة البيضاء .. لحيته الحائلة غارقة بالدموع ، وقد أخذته الحمية .. انتفضً عن مقعده واقفاً ليهدئ من روع الأهالي المنفطرين على" **سعيد** " قائلاً بحماس :

- يا إخواننا لا تيأسوا من روح الله "عز وجل" .. ربنا فرجه قريب .

وعندما سمعه " ميلص " اغرورقت عيناه بالدموع وفقد السيطرة على نفسه وصرخ بلا وعى :

- " ارحم عبيدك يا رب.. عبيدك بيكلوا في عبيدك يا رب ".

حدقه العمدة ازدراء وكظم غيظه .. هز رأسه الضخم ولم يتكلم .. أخذ يعبث بشاربه الكثيف مطبقاً على ذقنه والغل يسري في عروقه ثم أشاح برأسه عن وجوه الجالسين الشاحبة .

التحفت القرية بالظلام الحالك .. لم يلبث الناس أن تسللوا واحداً تلو الآخر .. متوجهين صوب ديارهم الصامتة مطأطئين الرءوس كالمخزولين ، وعندما بدأ الدوّار يخلو أدرك العمدة أنه ليس له متسع .. نهض بجسمه الثقيل متسللاً يجرجر ذيل عباءته السوداء .. يتلفت حوله بعيون زائغة ونظرات يشوبها الشك والريبة .

وما إن خرج " فرج " من غرفة حماه حتى أخذ يتلفت كالمجنون عله يرى العمدة أو " شحاتة " - ذَنَبَه - والشرر يتطاير من عينيه ، لكن الشيخ " معتمد " أدرك ببصيرته الفذه الخطر الداهم الذي سيحدث لو وجده " فرج " .

تسلل خلفه .. أطبق على ذراعه وجذبه فجفل " فرج " مستديراً نحوه .. ثم حدجه الشيخ " معتمد " بنظراته المريحة الهادئة وعلى

وجهه ابتسامة عذبة.. ربت على كتفه مهدئاً من روعه بحكمة العقلاء ، قال:

- ربنا وحده هو إللى عليه خلاص الحقوق .

وأرغمه على الجلوس بجواره في هدوء على الدكة الخشبية .

أما " ميلص " فقد انفلت من الدوار وأخذ يجوب الشوارع والحارات الضيقة تحت جنح الظلام كمن يبحث عن شيء فقده .. منكوش الشعر ، حافي القدمين .. يصرخ قائلاً :

- " ارحم عبيدك يا رب .. عبيدك بيكلوا في عبيدك يارب " .

وكانت هذه الكلمات تدوي .. تخترق قطع الظلام والجدران السوداء إلى مسامع أهل" **البجامون** "الذين يهزون رءوسهم مستنكرين أن يحدث هذا مع شاب دمث الخلق مثل " **سعيد عبد البر** " .. فقد روَّعَتهم الفجيعة وانكمشوا في ديارهم مبهوتين .

انصرف الشيخ " معتمد " أيضاً مرغماً .. لحيته غارقة بدموعه المنهمرة ، متهالكاً .. وقد ألم به الخور وهو يتوكأ على عصاه ، ونظرات " فرج " الحزينة تتابعه حتى توارى وابتلعه الظلام .. ثم وقف " فرج " أمام الدوار تحت " التكعيبة " الداكنة المبللة بحبات الندى المتلألئ في ضوء النيون الأبيض واضعاً يديه في جيوبه حائراً .. لحظات .. ثم اتجه صوب الدكة الخشبية التي تتوسطها وتَحفها أشجار الكافور العارية والتوتة الضخمة التي تظلل جزءاً كبيراً من الأرض ثم ألقى بجسده المنهك الثقيل عليها .

كان الفجر قد دخل ، والجو مضبب عندما أفاق من غفوته المؤلمة .. أزاح جسده الثقيل إلى جانب الدكة حيث المسند الذي مال

براسه عليه .. يشعر بالانكسار أمام تلك الأزمة التي وقع فيها رفيق حياته وعمره كله ، وعبثاً رفع راسه مرة أخرى ورفرفت عيناه بتثاقل ثم وقع بصره على نافذة غرفة **سعيد** " المطلة على " غيط الكرنب " فوجدها مفتوحة مثل أجنحة الطائر جوها كئيب وعتمة .. لمح الصقر الذي كان يلازم " **سعيد** " قابعاً على إحدى ضرفتيها ، رأسه يغوص بين جناحيه .. ويبدو عليه الانكسار والحزن .

مازال " فرج " في حالة من عدم الاتزان بعد كل ما حدث ، وبالرغم من أن ملامح النوم تغطى وجهه الذابل ؛ فإن عقله متقد ، تفتق على الحلم الذي رآه " **سعيد** " منذ زمن طويل وحكى له عنه أمام " ميلص " عندما توجه إلى غرفته صباحاً ، وأيقظه بالماء الذي صبه من الإناء على وجهه مداعباً ، بعدها أخذهم إلى المقهى وأحضر لهم الفطور والشاى ، كان على أثر هذا الحلم أن اتخذ " **سعيد** " هذا الصقر رفيقاً له بعد أن طببه وروضه ، وإن الرجل الملثم الذي رآه في الحلم أيضاً ، وأنقذ حياة هذا الصقر كان هو " فرج " .

أخذ " فرج " يربط بين الحلم والحقيقة وبداخله يقين بأن القدر قد اتخذه وسيلة لخلاص " **سعيد** " من " حبل المشنقة " .. مثلما أنقذ صقره سابقا في الحلم الذى رآه " **سعيد** " وشعر بقشعريرة تسري في جسمه عندما خيلت إليه صورة " **سعيد** " وهم يجرونه صوب " طبلية الإعدام "، والحبل يتأرجح عليها ، وهو يصرخ :

- " أنا بريء "

وحُبْ " **سعيد** " يسرى في دمه من راسه إلى أخمص قدميه، و" **سعيد**" أيضاً يبادله الحب نفسه، و" شحاتة " ثالثهم ، ولكنه أناني ..

يسعى لنفسه فقط بعدما امتلأ قلبه بالحقد الأسود .. لذلك أصبح ذَنَباً للعمدة .. بعد طلاقه من " حلاوتهم " التى بهرت البلد كلها بجمالها وأنوثتها الطاغية مما حول هذا الشعور الجميل إلى حقد دفين احتواه " شحاتة " بين ضلوعه .

بعد أن أشرقت شمس اليوم التالي .. عاد " خروع " ومعه لفافة فيها الدواء .. دلف بها إلى غرفة الحاج " حسن " ومعه " فاطمة " التي شعرت بالامتنان تجاه الدكتور " عزت " الذي ظل ماكثاً بجوار أبويها طوال الليل ، وذلك للخطر الذي داهمهم .. وخصوصاً أمها .. ثم ترك الدواء مع " فاطمة " وخرج باحثاً عن " ميلص " الذي يهيم على وجهه في البراري في حالة خطرة من الهستريا والذهول .. حافي القدمين .. قميصه ممزق وعندما رآه وقف يرقبه عن كثب لحظات ثم أجهش بالبكاء .. جفف دموعه ، مسح السائل الأبيض الذى ينسال من أنفه بكُم جلبابه الواسع ثم اتجه صوبه وأخذه من يده وتوجها معاً إلى ركن قصي من الدوار حتى يكونا في خدمة أهل الدار وقتما يحتاجونهما .. جلسا متجهمين .. حدقتاهما مفتوحتان تذرفان الدمع بغزارة .

❖ ❖ ❖

يأكل الانتظار الثقيل حنايا جسم " حلاوتهم " المذهل في الشقة الفارهة التي ابتاعها لها الحاج " حسن " فقد هدأت ثورتهم بعدما حدث ما كان يتلظى شوقاً إلى عمله .. بعد أن اضطر " شحاتة " إلى طلاقها مرغماً وعجزه عن تحقيق طموحها الجارف الذي يهوي بالرجال إلى قاع الجحيم.

تزوجها الحاج " حسن " بعد أن وقع في الشَّرَك الذي نصبته له .. طال انتظارها له و استبد بها القلق والتوتر مما جعلها تفكر في الذهاب إلى " **البجامون** " .. ولكن الهلع الذى أصابها من أهلها منعها من التفكير في ذلك الأمر .. فآثرت أن تظل حائرة في شقتها على أن يحدث ما لا يحمد عقباه إذا شاهدها أحد من أهل البلد خصوصاً " شحاتة " أو العمدة أو زوجة أبيها .. لأنها تركتهم فجأة واختفت في أحضان الحاج " حسن " .

عبثاً تنتقل من غرفة إلى أخرى وهي ترتدي الروب الذي يكشف عما تحته .

جلست أمام المرآة .. تحرك شفتيها الممتلئتين بكلمات غير مفهومة .. وهى تمسك بالفرشاة .. تعبث بها في شعرها المجدول على شكل ضفائر طويلة ثم تقذف بها وتنتصب واقفة ثم تتوجه للسرير وتهوي بجسمها المذهل عليه وتتقلب على جنبيها من الأرق والجزع اللذَيْنِ ألما بها من طول الانتظار، هى ترنو إلى شيء يطمئنها عما يحدث في " **البجامون** ".

وعندما بلغ الإرهاق مداه وتملك من " فرج " نهض متثاقلاً .. دلف إلى الدوار فرمق ابنه " **سعيد** " نائماً كالملاك على الأريكة و" فاطمة " خارجة من غرفة أبويها متوجهة نحوه لتعدل له رأسه وتضع تحته وسادة .. ولازالت ترتدي السواد .. جلست بجوار ابنها بعد أن دثرته بملاءة خفيفة وهى تعبث بشعره وتربت على كتفه النحيل ثم جففت عينيها الواسعتين الذابلتين وطرف أنفها الأحمر بطرحتها " التلي " السوداء ، أحست " بفرج " الذى توجه نحوها حانياً مهدئاً من

روعها ، ومخففاً عنها الفجيعة التي تنوء بحملها .. فأمها وأبوها وأخوها في انتظار حكم القدر .. ثم تركها بعد أن احتواها بنظرة حانية طويلة .

انتحى جانباً وجلس على المقعد المواجه لابنه " سعيد " يعصر ذهنه ويقدح زناد فكره في البحث عن حل .. في الحقيقة لا يعلم بأنه يمتلك العبقرية التي يمكن أن تساعده على إنقاذ " سعيد " .. فقد نهضت " فاطمة " متسللة إلى المطبخ لتحضر شيئاً يأكله أو يشربه بعدما صار في هذه الحالة من الهذيان المحموم .. فقد جال بخاطره أن إثبات براءة " سعيد " بمثابة المستحيل .. لأن كل الأدلة والقرائن ضده .. ولكنه أصر أن يسعى مع المحامى بحماس لمحاولة إثبات براءته من خلال الطعن المقدم .. في هذا الوقت كانت تنمو بداخله ذرات العبقرية التي كادت تعصف به وتذهب بخلايا مخه ، هذا الشيء المسمى بالعبقرية بداخله كان يصبو نحو التغير .

بدأ الحاج " حسن " يفيق ويخرج من البئر التي هوى بداخلها بينما زوجته لازالت عند نقطة الوسط بين الحياة والموت .

وفي اليوم التالي توجه " خروع " كدأبه صوب باب غرفة الحاج " حسن " ليوقظه مع انبلاج النهار .. وما إن رفع يده ليضرب بها على الباب حتى تذكر ما حدث وغير هذه العادة التي مارسها لسنوات طويلة .. وهي أنه يوقظ الحاج " حسن " بنفسه ، تسمرت يده بأعلى لحظات ثم خفضها وعاد أدراجه مثقلاً بالحزن ومهموماً ثم التفت فرمق " فرج " وهو يتابعه ، فقال له بصوت مبحوح :

- أنا رايح الغيط ياسي " فرج " .. أشوف الشغل عامل إيه.

شعر " فرج " بالغبطة وقال :

- أنا عارف إن انت راجل وقد المسئولية يا " خروع " .

وعندما هم " خروع " بالانصراف أدركه " فرج ".وقال :

- خد " ميلص " معاك علشان يشغل الطاحونة ،وانصرف " خروع" مهرولاً .

ثم حدث نفسه بصوت خافت :

- وأنا كمان هاروح أطمئن على الورشة .

❖ ❖ ❖

يشرف على القضية الخاصة " بمجموعة حشاف " العميد " مختار سعد " الذي أدركه الملل واليأس من فرط الإبطاء في القبض على " جابر حشاف " ابن " حشاف " الذي يمتلك مجموعة ضخمة تسمى " مجموعة حشاف " ونشاطها في كل ما هو مشبوه .. وغير مشبوه .. فقد وصلته معلومات تفيد قرب نهاية " حشاف" .

وفي ضوء القمر الخافت المظلل بالغيوم أعد كميناً محكماً .. في عمق الصحراء ، وعلى إثره تم القبض على " جابر " متلبساً بصفقة من السموم البيضاء التي ستسري في دماء الضعفاء الذين يهرعون إليها معتقدين أن علاجهم فيها .. وهم يعلمون بأنها استنزاف لأموالهم ، وصحتهم ، وتدهور لحالتهم ، وبالتالي تدهور للمجتمع الذى يُبنى على أكتاف الشباب أمثالهم .

العميد " مختار سعد " رجل حازم ، ذو مبادئ ورأى صائب .. دائماً ما يفتخر بأنه صمام الأمان لوطنه ، وذلك ضمن جهاز كبير أخذ على عاتقه خدمة وطنه وحماية ابنائه.. وبالرغم من شعره الأشيب فإن

جسمه رياضي ، وطوله فارع وبنيته قوية ، مفتول العضلات ، صوته أجش وعيونه لامعة .

تولى بنفسه مسئولية القبض على " جابر " وكان على رأس المجموعة المعدة لذلك .. بعد إعداد خطة مناسبة .. كانت الظروف لصالحه .. مما أثار حنق " حشاف " عليه .. وتحول الصراع الطويل المرير بينهما إلى عداوة شخصية خصوصاً بعد إلقاء القبض على ابنه " جابر " .

رجع العميد " مختار سعد " بعد العصر متوجهاً إلى بيته في " المعادى" كدأبه بعد انتهاء عمله ، وكانت في استقباله ابنته الجميلة " منى " بقوامها الممشوق وبشرتها البيضاء التى تشبه الشمع، وشعرها الكستنائى المستدير حول وجهها القمري .. وبعد أن أنهت دراستها في كلية الآداب مارست الشّعْر والأدب .. ودائماً ما كانت تسمع اباها الشّعْر .. هو يشجعها على ملء فراغها بهذه الموهبة ، وكان ابنه الأكبر " نشأت " قد سافر إلى خارج البلاد في بعثة دراسية ليحصل بعدها على درجة الدكتوراه في علم الاقتصاد، وذلك بعد تعيينه معيداً " بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية " ظناً منه بأنه هو المنقذ لاقتصاد الأمة الذى يذهب أدراج الرياح .

بعد أن أعدت له زوجته " أم نشأت " العشاء الذى تناوله بشهية مفتوحة كدأبه .. أوى إلى فراشه .. هادئاً .. هانئاً .. رابط الجأش .. راضياً عما أنجزه .

وفي جلسات متتالية أخذت المحكمة في مداولة قضية إحراز واتجار مخدرات " جابر حشاف " فقد تم الحكم عليه في النهاية بالسجن

خمسة عشر عاماً مع الشغل والنفاذ ، وأضحى " حشاف " يتلظى شوقاً للانتقام من العميد " مختار سعد " .

ووسط لفيف من أذنابه داخل مكتبه الفخم في المقر الرئيسي لمجموعته الخمسة نجوم التى يقف على بابها الحراس ومعهم كلابهم .. الردهات التى تعج بالفاتنات والحسناوات اللائى يعملن بالسكرتارية والعلاقات العامة .

جلس " حشاف " على مقعده العالي الدوار أمام مكتبه الفخم .. أشعل سيجاراً .. وأخذ يدور بالمقعد يميناً وشمالاً ببطء .. يفتعل حركات لا معنى لها .. عيناه تتوهجان غضباً .. ينفث الدخان هنا وهناك مختلطاً بشعاع الضوء المنبعث من خلف الستارة .. أصلع الرأس .. جبهته عريضة .. وحواجبه كثيفة بها بعض شعيرات طويلة بيضاء .. متأنق الثياب .. ضغط بانفعال على زر بجانبه فدخلت السكرتيرة الخاصة به تتبختر وتضرب الأرض برجليها الملفوفتين .. طلب منها بعض الأوراق وما إن التفتت مستديرة صوب الباب حتى أدركها بعينيه في مؤخرتها المدورة وطلب منها فنجاناً من القهوة راجيا إياها إغلاق الباب من خلفها .

أسفرت هذه الجلسة المروعة عن ضرورة عمل تحريات مكثفة حول " عائلة مختار سعد " ، وقبل أن يمر أسبوع كانت المعلومات أمامه على المكتب يتفحصها بعناية ، ولفت نظره وذهب بخياله بعيداً - وهو ينفث دخان سيجارة في وجوه أتباعه ومساعديه - أن " مختار سعد " عنده بنت في مثل عمر ابنه " جابر " تقريباً واسمها " منى " .

أصدر القرار بخطفها وعمل مساومة مع أبيها على تهريب ابنه " جابر" مقابل الإفراج عن " منى " .

وبالفعل اتصل بالعميد " مختار سعد " وكانت مكالمة بين عملاقين يتفاوضان معاً على محاولة إنقاذ فلذات أكبادهما .. ولكن الصلف والغطرسة كانتا في جانب " حشاف " الذى كان يتكلم من أعلى .

كانت آخر كلمات " حشاف " هي :

- لو ما هربتش ابنى من السجن .. هاعدم بنتك .

ثم وضع سماعة الهاتف بغتة وترك العميد " مختار سعد " مكبلاً بالصدمة لمدة تجاوزت عشر دقائق وبعدما أفاق .. هرول مذعوراً إلى غرفة ابنته " منى " مناديا عليها بلهفة .

أدركته زوجته وهى ترمقه بحيرة :

- منى لسة ما رجعتشي من بره .

التفت إلى زوجته مذهولاً ولم تقو رجلاه على حمله فألقى بجسمه الثقيل على المقعد مترنحاً كالمارد الجريح ، واضعاً كلتا راحتيه على وجهه المطموس ، وأخذ يفركه مرتجفاً .

تملك الذعر من زوجته ودنت منه بهلع . صرخت :

- فيه إيه .. إيه إللى حصل لبنتي .. ؟

❖ ❖ ❖

اعتقد بعض من حول " سعيد " أن هذا الزمن ليس زمن " سعيد " لأنه دائماً مهموم بغيره .. ولا يتأخر عن فعل الخير وإن كلفه الكثير .. وكانت أمه دائماً تقول كلمتها المأثورة في أوقات البر والإحسان .

- " اعمل الخير وارميه في البحر .. " .

علقت هذه الكلمات بذهن " **سعيد** " منذ صغره ودائما ما يرددها في كثير من مواقف البر والإحسان مثلما كانت تفعل أمه .. وغالباً ما كان يأتي هذا على حساب سعادته وراحة باله مما جعل بعضا ممن حوله يستغلون فيه هذه " الطيبة " لمنافع شخصية دونما مبالاة به أو بسعادته .

الغريب أنه في أوقات كثيرة كان يعلم بهذا الاستغلال ، ومع ذلك لا يتأخر عن خير يفعله ، والأغرب من هذا .. أنهم يتغامزون عليه هامسين في آذان بعضهم البعض بخبث قائلين :

" **سعيد ده طيب أوي** " ..

وهم يعنون: " أنه عبيط قوي " وأضحت الطيبة وحسن الخلق والنخوة عندهم مجرد مرادفات لكلمة " عبط " ، ومع ذلك كان مثالاً للنبل المفقود منهم ، ومن غيرهم .

وكانوا يحدثون أنفسهم حسداً عليه .. " على هذا النبل " .. ودماثة الخلق .. يتمنون من أعماقهم لو أنهم يكونون مثله .. لكن حقدهم الدفين يجعلهم معللين ذلك بأن" **سعيد** " لا يصلح لهذا الزمن .

- (زمن الفهلوة والأونطة .. واللى تغلب به العب به) .

. لا يعبأون بقيم ولا بأخلاق ، ولا حتى دين ، ولأن هذا أضحى زمن المتسمين بالنذالة ، والخسة ، وانحطاط الأخلاق ، والخيانة .. فإن هذه الصفات من وجهة نظره شيء عادى جداً .

فكيف يكون .. عود صالح وسط حزمة فاسدة .. ؟

ولكن " **سعيد** " مؤمن بأن :

" من رأى منكم منكراً فليغيره " ، وإن واجهته المشاكل لا يعبأ بها ، وإن صعبت عليه كان يلجأ في حلها إلى أبيه أحياناً .. وكان ينصحه دائماً بعدم التورط في شيء لا يعنيه .. وأحياناً كثيرة يلجأ إلى " الشيخ معتمد " الذى يؤازره ويدعو له قائلاً :

- ربنا يكثر من أمثالك يا ابنى .. ولأجل أن ينصلح حالنا لابد أن نصلح من أنفسنا كمان .. ولا تندم على خير فعلته أبدا .. لأنه لا يمكن أن يتركك ربك تغرق أبداً ... والخير الذي صنعته وألقيت به في البحر سيعود إليك في يوم من الأيام من أعماق البحر .

كان **سعيد** دائماً ما يفتخر بتاريخ جده " سليمان " .. تربى على حكاياته له وهو صبى .. تشكلت فيه الرجولة بكل معانيها .. إلا أنه لازال عاطلا مثل زملائه الذين يرتادون مقهى "الجروانى" كل ليلة .. يتسامرون ويتحاورن وأحياناً يشتركون في الغناء والرقص مع الراقصة التى يأتى بها أحياناً المعلم " محروس الجروانى " صاحب المقهى .. وكانت هذه بمثابة الأيام الخوالى التى عاشها " **سعيد** " قبل أن يأتيه القدر بالغفلة ، ويذهب به كل مذهب ، وتكون هذه الليلة بالذات هى التى تحمل له المفاجأة .. وكان هذا عندما توجه إلى المقهى .

- ٢ -

يقع هذا المقهى على الطريق الرئيسى لمدخل القرية في حضن البرارى .. محاطا بالأشجار الكثيفة العالية من التوت والكافور .. كراسيه العتيقة مبعثرة حول مناضد متواضعة ، يلفه سياج خشبى مكون من مربعات تتوسطها قطع من الأرابيسك ومدعم بكتل خشبية مربعة تثبته .

ينبعث الضوء المليء بالناموس والفراشات من اللمبات النيون المعلقة على جذوع الشجار ويتلاشى ضوءها في الفضاء ، بداخلها النصبة عليها الأكواب متراصة والشيش النحاسية تعكس ضوء النيون الأبيض على وجوه الجالسين الشاحبة .

في صدرها يجلس المعلم " محروس " أمام مكتب حقير .. يلف رأسه الكبير بشال مزركش برسومات ملونة ، بيده الشيشة ينفث دخانها من خلال شاربه الكثيف الذى يسد فمه ، يرتدى جلباباً واسعاً وأمامه كرشه الكبير ، وخلفه على الحائط رف يعلوه راديو خشبى كبير ملفوف بكسوة من القماش " الكستور " ، التلفاز قابع في ركن مظلم داخل صندوق خشبى متهالك .. كانت هذه هى تسلية أهل " **البجامون** " حيث يتقابلون فيها يرتشفون المشروبات ويتسامرون فيما بينهم .. تراقبهم عيون الصبية البريئة الذين يفترشون الأرض وهم يشاهدون التلفاز خلسة ..

يجلس " **سعيد** " في ركن قصي .. وسط رفقائه كدأبه يتابعون نشرة الأخبار عن كثب ، وعندما شاهدوا الرئيس وهو يرفع العلم

المصري على طابا .. انتفض الجالسون عن مقاعدهم، والجالسون على الأرض مهللين فرحين تغمرهم نشوة النصر، وأخذت الجلالة أحدهم وظل يصيح :

- " الله أكبر .. الله أكبر " .

وبيده (خشبة الشيشة) يلوح بها، وعندما انتهت النشرة جلس مكانه منشرح الصدر .

توجه المعلم محروس نحو " **سعيد** " ورفقائه .. فرحاً .. مهللاً .. وملوحاً بكلتا يديه وقال :

- الحمد لله يا سي " **سعيد** " .. ربنا نصرنا عليهم في الأول وفي الآخر .. وأخذنا حقنا كله بالشبر .

واستدار ملوحاً صوب رءوس الجالسين وقال :

- مشاريب الناس كلها اليوم على حساب القهوة .

ثم رجع إلى مكانه وقبل أن يجلس نظر إلى صورة " الرئيس " باسماً في إطارها المذهب الكبير المعلقة على الحائط وقال بحماس:

- والله براوة عليك يا ريس .

وأخذ يتابع تعليقات الناس في غمرة النشوة والإحساس الممتع.

وقبل أن يتنفس الصبح بوقت قليل .. خرج " **سعيد** " من المقهى الذى اعتاد أن يقضي فيه معظم وقته مع رفقائه، وكان مقراً لهم بعد أن انتهوا من دراستهم .. لا يملكون إلا شباباً غضاً، وحماساً ضائعاً، وطاقة مهدرة .. لا تزيد أعمارهم عن ثلاثين عاماً.

مشى في طريقه .. في حالة من النشوة والانسجام .. رفقاؤه يودعونه صائحين بضحكات عالية مجنونة .. متوجهاً إلى داره .

تثاقلت قدماه بعرض الطريق الحاصب المملوء بنسمات الفجر العليلة ، يدندن لحناً قديماً وكلتا يديه مغروسة في جيوبه .. الجو داخن والأضواء المبعثرة في الفراغ الأبدى تحرك الخوف المدفون في أعماقه .. ركل بقدمه شيئاً ما ملقى أمامه على الأرض السوداء، حينئذ سمع صرخة حادة وقصيرة .. سكن يتتبعها . اتسعت حدقتاه وأرهف أذنيه .. لحظات .

ظن أن الهواء قد لعب برأسه وعندما شرع في مواصلة السير تكررت الصرخة ولكن باستغاثة هذه المرة .. على الفور أدرك مصدرها .

ومن ثقب الباب العتيق " للقصر المهجور " المدفون وسط المزارع أبصر فتاةً مكتوفة الأيدى .. ملقاة على جنبها .. شعرها أصفر .. ناعم ومنكوش يغطى صفحة من وجهها القمرى المشرب بالحمرة .. عيناها واسعتان يخرج منهما بريق ملتهب .. وبعض الأشخاص يحيطون بها .. منظرهم يبعث على الفزع .. وهى تتلوى منهم كالأفعى .

تحركت نخوته وصارت وحشاً أسطورياً .. سعى يحررها .. ثم انطلقا روحاً واحداً عبر الطريق الحاصب الضيق الملتوى .. واختفيا وسط المزارع .. ترعبهم الأصوات الشيطانية الغريبة المنبعثة من البرارى ، وهؤلاء الأشخاص في أثرهم حتى رمقا عشة آمنة .. توجها صوبها ليحتميا بها حتى الصباح .

بدأت القرية تنبض بالحياة مرة أخرى .. بعد أن باتت ملتحفة بالظلام .. ازدحمت الطرقات الضيقة المؤدية إلى المزارع بالحيوانات التى تسعى .

استيقظ " خروع " مبكراً وهَرَع إلى غرفة " الحاج حسن " كى يوقظه .. بينما " الست إجلال " منهمكة في إعداد الفطور وهي تصيح بابنتها " فاطمة " تحثها على إيقاظ أخيها " **سعيد** " .

والجد " سليمان " مكوم على الدكة الخشبية وسط الصالة الكبيرة بعد أن صلى الفجر .. وبيده المسبحة الطويلة .. يحركها بأنامله الرفيعة .. العروق الزرقاء النافرة ظاهرة من أعلى صفحة يده .. رفع رأسه الثقيل وزعق على زوجة ابنه قائلاً بصوت مبحوح :

- يا " إجلال " صحى همام يفطر .. وأحضري إفطاري هنا .

ردت عليه " فاطمة " قائلة :

- يا جدى .. عمى " همام " عند ربنا الآن حي يرزق .

حدجها الجد بالبصيص المتبقى في عينيه ، وهز رأسه ثم عبث في لحيته الحائلة الطويلة وهمس لنفسه قائلاً:

- البنت " بطة " دى هبلة مش عارفة إن عمها " همام " راقد جوه .. زمانه جه من الحرب .. مش إحنا انتصرنا وخلاص ؟ .. هو جه من اليمن راح على سينا .. وحلف ما هو راجع إلا بعد ما ترجع سينا .. وسينا خلاص رجعت .. وهو كمان هيرجع .

سمعه " الحاج حسن " يكلم نفسه فهز رأسه وزفر قائلا :

- صباح الخير يا أبويا .

اشار الجد سليمان بيده لابنه " حسن " .

جلس " الحاج حسن " أمام " الطبلية " يرمق الأطباق المرصوصة عليها ثم تلفت حوله وهو يشمر أكمام الجلباب الأبيض الواسع فلم يجد ابنه " **سعيد** " فقال مقتضباً :

- أين " **سعيد** " .. ؟

أجابت " إجلال " بحذر :

- قام بدري وخرج .. !!

شعر بالقلق على ابنه الوحيد .. سألها :

- فطر ؟ .. ولا خرج على لحم بطنه ؟

حدجته بنظرة .. ولم تعقب عليه .

" والحاج حسن " هو ملجأ أهل " **البَجَامُون** " في حل مشاكلهم .. بما له من عصبية وهيبة بينهم ، عنده مائة وخمسون فداناً ، وبعض العقارات في القرية والبندر ، يدير هذه الأملاك بعد أن بلغ أبوه " الشيخ سليمان عبد البر " من العمر أرذله .. وكان يحفظ نقوده في داخل مرتبة السرير دون أن يعلم أحد بذلك .. ، والخزينة دائماً فارغة، وكان رأيه أن الخزينة معلومة المكان والغاية ويمكن أن تسرق .. لذا فالمرتبة هى التى تحقق له الأمان .

وبعد انقضاء صلاة العصر .. توجه " الشيخ معتمد " إمام الجامع الكبير إلى دوار العمدة " السباعى صالح " وبدا غاضباً وهو يقول :

- هو ده كلام يا حضرة العمدة ..؟

التفت إليه العمدة متعجباً :

- فيه إيه يا شيخ " معتمد " ؟

- كل يوم الواد " شحاتة " بن " سعدية " يضرب مراته

ويطردها في انصاص الليالى .. بهدوم النوم !

تبسم العمدة بمكر وتمنى من داخله .. لو أنه يقابلها مرة بعد أن تُطرد بهدوم النوم .. مصمص شفتيه .. قال بسخرية :

- وأنا بس هعمل إيه يا شيخ " معتمد " .. مش كفاية عليا البلد ومشاكلها اللى ما بتخلصشى .. أنا ناقص كمان "شحاتة" ومراته ؟

ثم تملكه الغضب وأردف :

- كلم " الحاج حسن " .. الناس ياخويا بتسمع كلامه ويتعمل له ألف حساب .. أكتر منى زى ما يكون هو العمدة بتاع " **البجامون** " .

لاحظ " الشيخ معتمد " أن كلام العمدة يشوبه غيرة من الحاج "حسن" فقال له باستخفاف :

- هو انت نسيت يا عمدة ولا إيه ؟

حدقه العمدة باستغراب وهو يرفع رجلاً ويضعها على الأخرى في إشارة منه بأنه هو العمدة .. واضطجع باستعلاء قائلاً :

- نسيت إيه يا مولانا ؟

أراد الشيخ معتمد أن يرد عليه إشارته وتملكه الحماس وقال وهو يحرك رأسه باسماً في سخرية :

- العمودية طول عمرها كانت عندهم أباً عن جد .. ولا نسيت الحاج "سليمان عبد البر" اللى كانت تهتز له شناب.. والمأمور لما كان يسلم عليه.. كان يوطى يبوس إيده .

واشاح بوجهه وعقب :

- بس الكبر عبر .. والحاج حسن هو إللى مكبر دماغه وما بيحبش وشها الكتير .

على الفور اعتدل العمدة في جلسته بعد سماعه هذا الكلام وهز رأسه مستنفراً وسكت .

ثم دخل عليه الغفير " جمعة " مهرولاً :

- يا جناب العمدة .. يا جناب العمدة .

- فيه إيه يا وله ؟ .. مالك مسروع كده ليه ؟

رد عليه الغفير لاهثاً :

- الحاج " حسن " بره وجاى على هنا .

انتفض العمدة واقفاً محاولاً ترتيب هندامه وشاربه وضحك بغل فظهرت أسنانه المتناثرة القذرة ، والشيخ معتمد يرمقه باسماً .. لاحظ ذلك ولم يعقب .. وقال للغفير :

- خليه يتفضل يا وله .. بسرعة .. غور .

وتبعه مستقبلاً " الحاج حسن " الذى قال :

- سلامو عليكو يا عمدة.. والتفت فرمق " الشيخ معتمد" جالساً :

- الله .. ! إنت هنا يا شيخ " معتمد " ؟

تهلل الشيخ باسماً وهز رأسه مرحباً وقال :

- الواد شحاتة زودها قوي يا حاج " حسن " .. ومفيش حد يقدر يوقفه عند حده غيرك إنت .

ثم التفت إلى العمدة قاصدا إياه .. ولكن العمدة قطع الكلام بمكر :

- الشاى يا وله لأبوك الحاج .

حدجه " الحاج حسن " باستخفاف واستطرد في كلامه مع " الشيخ معتمد " وقال :

- أنا كنت رايحلك الدار .. الجماعة قالولى تلاقيه طلع من الصلاة وراح على دوار العمدة .

أدرك العمدة أن " الحاج حسن " لم يحضر قاصداً إياه بل يريد " الشيخ معتمد " ثم قال " الحاج حسن " مردفاً :

- أنا سامع يا شيخ " معتمد " إن ولاد " أبو سلامة " عاوزين يبيعوا الطاحونة بتاعتهم .. ما تعرفش ليه ؟

هز الشيخ رأسه وقال :

- جايز والله أعلم إنها عاوزة شوية مصاريف .. وهما مامعاهومشى ، وبعدين من يوم أبوهم ما مات وكل واحد منهم راح في ناحية ، عاوز ياخد نصيبه ويشق طريقه بمعرفته .

- يلا الله يسهل لهم .

دخل عليهم الخفير " جمعة " حاملاً صينية الشاى تهتز بين يديه ثم قام بوضعها على المنضدة التى تتوسط المندرة ذات النوافذ الكبيرة الخضراء المطلة على السلاحليك وقال :

- حاجة تانية يا جناب العمدة ؟

- لأ .. غور انته !!

ثم ضحك بمكر والتفت نحوهم وقال :

- اتفضلوا الشاى .. اتفضلوا !!

أطبق الخفير " جمعة " على حزام بندقيته البالية فاغراً فاه ، وخرج مهرولاً بالبالطو الميرى مغمغماً بكلمات غير مفهومة .

وعندما مرقت " صفية " بنت خالته من أمام الدوار .. كانت مترددة في الدخول حتى لمحت " فاطمة " فدلفت إلى الصالة وهي تنادي عليها متباهية بالجلباب المزركش بالورد .. على رأسها منديل تتدلى منه حبات الخرز والترتر ويخرج من تحته شعرها المجدول بلون الليل مفروداً على ظهرها ، وعيناها السوداوان تلمعان ببهجة ، وبخيلاء جذبت شعرها الأسود على صدرها النافر .

استقبلتها " فاطمة " مرحبة ومهللة والتفتت ناحية خالتها قائلة بخجل أنثوي جميل :

- إزيك يا خالتى .. ودلفتا معاً إلى غرفة " فاطمة " ، كانت تتلفت كالمجنونة عساها تلمح " **سعيد** " الذى تهيم به عشقاً .

جذبتها " فاطمة " بدلع ثم أغلقت " فاطمة " الباب من خلفهما وقالت :

- عينيكى زايغة على إيه يا بت ؟

احمرت خدود " صفية " الناعمة من الخجل وارتسمت على ثغرها الصغير وشفتيها الورديتين الممتلئتين ابتسامة عذبة وقالت:

- دِه دِه .. يا " بطة " ما تكسفنيش امال !!

خرجت مهرولة متوجهة نحو دارهم .

انتصبت " فاطمة " واجمة عندما تذكرت أن أخاها " **سعيد** " قد تأخر خارج الدوار، وهم في غمرة قلقهم على " **سعيد** " صاحت " حلاوتهم " زوجة " شحاتة " بن " المزين " بـ " إجلال " داخل الدوار وهى تبكى منفطرة وعندما رمقتها إجلال تملكها الذهول وقالت :

- مالك يا بت يا " حلاوتهم " ؟ .. تعالى خشى !!

كفكفت " حلاوتهم " دموع التماسيح المنهمرة من حدقتيها والممزوجة بالكحل الأسود على خديها الأبيضين المدورين المشربين بالحمرة .. ثم مسحت طرف أنفها وتمخضت قائلة :

- اللى ينشك " شحاتة " .. ليه وليه اللى بقوله : إنت قاعد جمبى تعمل لى إيه .. قوم شوفلك شغلانة بدل ما انت قاعدلى زى العمل الردي كدة وصايع !!

- رد عليا وعينيه بتطق شرار وقالى :

- أنا صايع يا بنت الواطى !!

- قلتله :

- أنا بنت واطى يا بن المزين .. قام عليا وفين يوجع .

قالت " إجلال " باهتمام بالغ :

- معلش يا " حلاوتهم " .. استحملى !! . تلفتت "حلاوتهم" بعيون زائغة وقالت بمياعة ويدها في خصرها :

- مش قادرة أستحمل أكتر من كدة يا خالتى .

فكرت " إجلال " قليلاً ثم قالت متحفزة :

- إسمعى يا بت يا " حلاوتهم " .. أنا هقول لعمك " الحاج

حسن " يبهدله .

وعندما سمعتها تقول عمك " الحاج حسن " لمعت عيناها وزاغتا :

- أيوة يا خالة " إجلال " أنا عاوزة أتطلق منه .

سمعتها " فاطمة " فخرجت مهرولة من المطبخ .. تجفف يديها في جلبابها وبدت مستاءة منها وقالت بسخرية وكلتا يديها في خصرها النحيل :

- إنتى يا " حلاوتهم " مش عاوزة تبطلى تعملى مشاكل مع جوزك؟

والتفتت لأمها كالمأخوذة :

- " **سعيد** " اتأخر أوى يا امه .

- والنبى يا بنتى ما أنا عارفة في إيه .. الفار إبتدى يلعب في عبى.

وأردفت :

- بس الواد " فرج " صاحبه هوه اللى يمكن يكون عارف طريقه ..

احمر وجه " فاطمة " خجلاً عندما سمعت اسم " فرج " ولاحظت " حلاوتهم " فابتسمت وهى تتفرسها من فوق لتحت ثم نظرت "إجلال" ناحية " حلاوتهم " وقالت :

- روحى يا " حلاوتهم " وابعتيلى جوزك علشان يروح يسأل " فرج " عن " **سعيد** " .

أجابتها بخيلاء :

- حاضر يا خالة .

وانصرفت تتبختر وتهز ردفيها مثل الغانيات .

وعندما خرج " الحاج حسن " ـ ونسيم العصارى العليل القادم من المزارع المحيطة بالقرية يلفح الوجوه بانتعاشة رائعة ، وهو مطبق براحته على عصاه العاجية السوداء وعلى كتفيه العباءة الصوف ويكبس في رأسه الطاقية الوبر البني المنحدرة إلى الخلف قليلاً .. متوجهاً نحو أرضه في الناحية البحرية ، ماشياً على قدميه يتفقد العمال الذين قام " خروع " باستئجارهم للحصاد .. ماراً على مقهى " الجروانى" ـ التفت نحو الجالسين زاعقاً :

- سلامو عليكو .

ردوا عليه السلام باحترام بالغ .

وبعد أن تجاوزهم .. على الناحية الأخرى بعد عبوره الجسر الذى يربط شطرى البلد التى تشقها الترعة الكبيرة .. رمق الصبايا وهن يغسلن أغراضهن في بطن الجسر المحجور ، وبينهن " حلاوتهم " واقفة في الماء الضحل .. كعروس البحر .. ثوبها مشمور لأعلى بعيداً عن البلل .. يكشف عن ساقين ملفوفتين بيضاوين كجمار النخيل وعندما دنا منهن .. استدارت " حلاوتهم " كالمهرة الجامحة في مواجهته جعلته كالمراهق .

تبسم وعبث بشاربه الكثيف وعندما تأكدت أن عينيه عليها .. قامت بنثر شعرها الأسود الكثيف المجدول على ظهرها ليبرز صدرها الفائر وأنوثتها المتفجرة الطاغية .. ثم ابتسمت في خيلاء وواصلت عبثها بالماء .

فهمت " صابحة " أمينة سرها هذه اللمحة السريعة مما جعلها تخجل وترشها بالماء وهن يضحكن ضحكات تهز القلوب الجامدة المتحجرة وتفتح القلوب المغلقة .

بعد أن وصل أرضه المتسعة .. وقف على رأسها مباهياً . وزعق صوب العمال :

- أزيكوا يا رجالة .

ردوا عليه في غوغاء :

- أهلا يا با الحاج .

- فاضل معاكو كتير يا رجالة ؟

رمقه " خروع " واتجه نحوه مهرولاً والدهون تتراقص على جسمه ووقف لاهثاً :

- لأ مش كتير .. قبل الدنيا ما تليل هنكون خلصنا إن شاء الله .

- محصول البطاطس عامل إيه السنة دى ؟

أجابه كما لو كان أحد المسئولين .. يلقى بيانه الوردى .. فقط .. ليثبت كفاءته :

- الخير بزيادة يا با الحاج وأحسن من كل سنة .

ثم أردف قائلاً :

- أيوه يا با الحاج المحصول بتاع البطاطس زاد السنة دى عن السنة اللى فاتت .. بعد بتوع الزراعة ما بقوا بيجوا الغيط يتابعوا المحصول ، ولما كانوا يقولوا الزرع عاوز رش .. كنا نرش على طول .

- رش .. رش .. ماهو ده اللى جاب المرض للناس .

هز " خروع " راسه وتظاهر بأنه فاهم وشعر بالثقة وعدل طاقيته المخرومة وقال :

- الرش بتاع عمنول كان مغشوش .. ضر الناس وما ضرش الدودة .

- إنت عرفت منين إنه كان مغشوش ؟

- ميشيل أفندى " بتاع الجمعية الزراعية .. كان معاه الجورنال وفيه صورة الحرامى والسكرتيرة الحلوة بتاعته .. وحتى قالى :

- إنهم قاعدين في سجن خمس نجوم .

ثم حدج في الحاج فاغراً فاه وقال :

- يعني إيه سجن خمس نجوم يا با الحاج ؟ .. دانا سمعت إنهم طلعوا براءة .. ثم نظر للأفق فرمق العمدة قادماً نحوهما .. يمشي باستعلاء .

همس خروع في أذن الحاج وهو يشير نحوه باقتضاب :

- العمدة جاي هناك أهوه يابا الحاج .. ماله ماشي نافش ريشه كده ؟

- روح إنت دلوقتي يا " خروع " ، ولما أعوزك هانديلك.

انصرف وكرشه السمين ووجه الممتلئ يهتزان .. متوجهاً صوب العمال بوجه متجهم .

عندما وصل العمدة انتحى جانباً وتملكه الفضول وقال :

- سلامو عليكو يا حاج " حسن " .

- أهلاً يا عمدة .. اتفضل خد الشاي .

- مش عاوز أعطلكوا .

وهو يتوجه مباشرة صوب الدكة الخشبية القديمة داخل "الخُصْ" المصنوع من " الحطب والقش " ، ومرفوع على قوائم خشبية .

تلقاه " الحاج حسن " مصافحاً وجلسا .

زعق على " خروع " ثانية فأقبل وأمره بعمل الشاي . أجابه " خروع" وهو يحدق في العمدة بغيظ .

اتكأ العمدة بظهره العريض على مسند الدكة ووضع يده اليمنى مفرودة عليه وهو يرمق الأنفار من بعيد .. ثم التفت ثانية صوب "الحاج " الجالس أمامه على مقعد مصنوع من " سعف النخيل " وعصاه العاجية بين رجليه يعبث بها في التراب ويبدو عليه التردد وهو يقول :

- أنا سمعت إن أنت عاوز تشتري الطاحونة بتاع ولاد " أبو سلامة ".

كان الرجل يعرف خبايا نفسه لذلك قال بحذر :

- طب وماله .. ودي فيها إيه ؟

- لأ أنا بسأل بس يا حاج .. إهيه !!

أتى " خروع " حاملاً صينية الشاي بين يديه ، عليها براد صغير وبجانبه كوبان من الزجاج وضعهما أمامهما وحواجبه العريضة ملتصقة ببعضها ، وشفته السفلى مدلاة :

- اتفضلوا !!

- صب يا " خروع " الشاى لحضرة العمدة .

أطبق " خروع " بيده على البراد بغيظ ورفعه والشاى ينساب منه صانعاً رغاوى على سطح الكوب وقال :

- اتفضل يا حضرة العمدة .

تطاير الشرر من عينيى العمدة وهو يراقب " خروع " الذى يصب الشاى في الكوب الآخر ويقدمه إلى " الحاج حسن " .. ثم انصرف من أمامهم زاعقاً بالعمال .

ولم يستطع " الحاج " إمساك نفسه فانفجر بالضحك ثم سكت فجأة وتملكه القلق على ابنه" **سعيد** " عندما وجد أن الظلام قد دنا من الهبوط .

كان " **سعيد** " قد توارى ومعه " منى " في العشة المهجورة .. بعد أن خارت قواهما قام بإسنادها على كومة قش وهى في غيبوبة .. ثوبها ممزق ، يكشف عن ساقين كأنهما قدّتا من جبل من رخام أبيض ، شعرها الأصفر القصير منكوش على وجهها القمرى الهادئ .

قام بخلع قميصه المهلهل وسترها .

جلس سانداً ظهره إلى عمود من الخشب يتوسط العشة ويقيم سقفها الواهى .. شرد بذهنه قليلاً ، وعندما برد جسمه شعر بألم شديد في كتفه.. وضع يده وتحسس موضع الألم ورفعها أمام عينيه فإذا بها مخضبة بالدم .

تلفت حوله كى يعثر على شىء يضمد به الجرح فلم يجد .. عندئذ قطع كم القميص فأحست به " منى " .

رفرفت عيناها .. شاهدت الدم يسيل من كتفه .. نهضت مفزوعة متهالكة حاولت مساعدته في ربط الجرح .. بعدئذ جلسا في صمت مطبق يتبادلان النظرات التى تسأل وتجيب بعضها البعض إلى أن غلبهما النعاس وغرقا في نوم عميق .

- ٣ -

كانت الشمس مائلة للغروب عندما أفاقا من نومهما متهالكين بعد أن استولى عليهما الخوف ومزج روحيهما ببعضهما .. وضوء الشمس الأصفر الباهت ينبعث من فتحة في سقف العشة الواهى على شعرها الأصفر يتخلله ويلمع كحبات الخرز الذهبية المتناثرة على صفحة وجهها القمرى ورقبتها الشمعية .

ارتسمت على شفتيها الورديتين ابتسامة عذبة وتملكها إعجاب بهذه الشهامة الأسطورية وسألته :

- من أنت ؟

بثت فيه روح الفارس المغوار .. الذى أنقذها من براثن الأشرار وعبث بشعره الكثيف . لمعت عيناه وخرج منهما بريق حاد وقال :

- " **سعيد** " .

هو في الحقيقة خائر متهالك .

احتوته بنظرة حانية ولهفة :

- استريح .. ل

ازال كتفه يؤلمه .

أردفت :

- الجرح لا زال يؤلمك ؟

تحسسه بيده اليسرى.. متألماً لكنه ارتدى ثوب العزة والإباء وقال:

- قليلا .

تسللت أناملها الباردة وتحسست كتفه ثم انحنت على الجرح وقبلته وهى تقول :

- لا أعرف كيف أشكرك.. أنت أنقذتنى .. ومهما قلت لن اقدرعلى ان أوفيك حقك .

سمع خفقان قلبه المرتعش وقال :

- اى حد كان معدى وسمع صرختك كان هيعمل اللى أنا عملته وأكتر .

شردت بذهنها قليلاً وقالت :

- لأ .. يا " **سعيد** " مش اى حد يعمل كده خصوصاً الأيام دى .. الخوف علم الناس الجُبْن واللى بيعمل خير بيُعاقب عليه ويخلوه يندم إن هو عمله .

مصمص شفتيه الجافتين :

- أنا عطشان قوى .

هبت واقفة .. أخذت تتطلع للأفق تستكشف المكان ثم عثرت على إناء من الصفيح ، على مسافة ليست بعيدة رأت طلمبة مياه .. توجهت نحوها والشمس ترسل أشعتها الصفراء التى تتخلل ثوبها الخفيف فتبرز ما تحته ملأت الإناء بالماء ، عادت إليه ، رفعت رأسه أسندته على صدرها الدافئ .. أحس حرارة صدرها على صفحة وجهه وهى تعطيه جرعة الماء .. ثم شربت بعده ووضعت الإناء على القش بجوارها .

أحس بأناملها الباردة تتحسس أذنه ورقبته وهى تحرك راسه لأسفل صدرها ثم تريحها فى حجرها فيشعر برطوبة جسمها .

نظر نظرة طويلة في الأفق الأبدى ، اخذ نفساً عميقاً عندما شعر بولعها به .. أشار عليه الشيطان وجال بخاطره بأنه من الممكن أن ينعم بها بعد ما تواريا وسط البرارى ، لكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة بعدما شعر أنها أطمأنت للفارس المغوار الذى يحمل أخلاق الشجعان .

تملكه القلق عندما هبط الليل وتكاثف على الزروع والأشجار وقال :

- الدنيا ضلمت .. يلا علشان أروحك ، تذكر أنه لا يعرف اسمها وعندما سألها أجابته باسمة :

- أنا اسمى " منى " .. من المعادى .

رفع رأسه من حجرها ونهض عندما كانت تعبث بخصلاته وجلس مواجهاً لها ثم احتواها بنظرة من عينيه اللامعتين :

- كانوا خطفينك ليه ؟

- علشان يساوموا بابا !!

- بيشتغل إيه ؟

- في البوليس .

- يساوموه إزاى يعنى ؟

- مش عارفة التفاصيل !!

نهض واقفا ومد يده مستنداً على العمود الخشبى الذى يتوسط العشة وقال :

- يظهر الموضوع كبير قوى .

ومد يده الأخرى نحوها يحثها على النهوض وهو شارد الذهن قائلاً :

- يلا بينا أما أوصلك .

تسللا من خلال الزروع المتشابكة وسط الضباب المتكاثف فوق الأشجار والأشعة المتسربة من الأضواء في القرى البعيدة المحيطة بهم في الأفق المترامى ومن النجوم المتوارية خلف الغمام الثقيل .. نقيق الضفادع ونباح الكلاب وعواء الذئاب المنبعث من البرارى يبث فيهم الرعب مما جعلهم يسرعون الخطى في قطع الظلام السوداء حتى وصلا مترجلين إلى رأس الطريق الحاصب المؤدى إلى " **البجامون** " ... لاحت أضواؤها الخافتة أمامهم .

عندئذ جال بخاطره أن يأخذها لتقضى معهم هذه الليلة في الدوار وفي الصباح يأخذها إلى أهلها في المعادى وما لبث أن تردد .. عندما فكر :

- ماذا يفعل أهله عندما يرونها ؟

وقف حائراً وهى متشبثة بذراعه على قارعة الطريق .. لحظات .. فكر في أن يعرج على " فرج " صديقه ليستعين بسيارته المتهالكة وهكذا يقوم بتوصيلها تحت جنح الظلام .. هذا هو أفضل حل .

يمتلك فرج الصديق الصدوق لـ " **سعيد** " ورشة للصناعات المعدنية ورثها عن أبيه وقام بتحديثها بعد أن حصل على " دبلوم الصنايع " .. تقع هذه الورشة على الطريق الرئيسى لمدخل البلد الذى يتفرع عند أوله إلى اتجاهين .. أحدهما إلى القاهرة والآخر إلى الإسكندرية وهذا الطريق يمر على مقهى " الجروانى " الذي دأب "**سعيد** " ورفقاؤه على الجلوس فيه ليلاً .

يتمتع " فرج " صاحب الظل الخفيف بصوت شجى في الغناء فكان يغنى لأصحابه وأحيانا أخرى يغنى لنفسه .

جلسا دقائق يلملمان أشلاءهما ثم توجها نحو غرفة " فرج " المنعزلة عن العمران بجوار الورشة .

نقر " **سعيد** " على الشباك المكسور هامساً :

- " فرج " .. " فرج " .

رد عليه بعد دقائق مرعوباً :

- مين .. مين ؟

- افتح يا " فرج " انا " **سعيد** " .

- " **سعيد** " مين أنا ما اعرفش حد بالاسم ده .

بدأ يضيق ذرعاً وهو ينفث زفيره في البراح الذى تطل عليه النافذة وبجواره " منى " تجهل مصيرها مع الفارس المغوار .

زعق مرة أخرى :

- افتح بقى يا أخى .. أنا " **سعيد عبد البر**" . افتح الله يخرب بيتك .

وارب " فرج " الشيش بحذر وهو يرتعد وعندما رأى " **سعيد** " ممزق القميص و منهكاً .. على عجل توجه صوب الباب وفتحه وأدخله بلهفة شديدة عليه، وعندما وجد " منى " وهى متهالكة جفل للخلف قائلاً:

- " بسم الله الرحمن الرحيم " .. عفريتة .. جنية ؟

ثم دخل مذعوراً وخلفه " **سعيد** " و " منى " يضحكان منه إلى أن شعر بالاطمئنان وقال مستفسراً :

- في إيه يا "**سعيد**" ؟ .. إيه إلى عمل فيك كدة؟ .. ومين دى؟

- دى ضيفة .. هبقى أحكيلك بعدين .. شوفلى بس قميص

من عندك على ما اغسل وشى واعملنا شاى .

وجلست " منى " مرعوبة تحدث نفسها :

غرفة نائية مع اثنين من الشباب " يا للهول " .. ماذا يمكن أن يحدث ؟

فقد اغتصبت فتاة في ميدان عام تحت تهديد السلاح أمام جموع غفيرة من البشر ولم تتحرك نخوة أحدهم لإنقاذها ، وعلى صفحات الجرائد " تم خطف فتاة في سيارة وتوجهوا بها إلى الصحراء .. اغتصبوها ثم قتلوها"... يقوم الشباب الحمق المأفونون بمعاكسة البنات وهن يمشين في الشارع مع آبائهن .. بل يقذفونهن وهن مع أزواجهن ،جالت ببصرها في أرجاء الغرفة واستقرت على السرير الوحيد بها .. هل ينوى " **سعيد** " أن نبيت ثلاثتنا هنا ؟

ألح " فرج " كى يستفسر من " **سعيد** " عما حدث وعيناه على " منى".

لم يلق له بالاً وطلب من " منى " أن تغتسل ثم ارتشفا الشاى بعد أن ارتدى القميص ، رمق مفتاح السيارة على المنضدة فالتقطه وجذب " منى " من يدها وخرجا مسرعين .

تملك القلق الشديد من " فرج " وصاح :

- الجماعة عندكم قلقين وبعتولى " شحاتة " يسأل عليك .. هى إيه الحكاية ؟

صعدا السيارة وانطلقا وسط الضباب الكثيف ، ألقت برأسها إلى الوراء .. تثاءبت والنعاس يداعب عينيها الزرقاوين الذابلتين ،

" **سعيد** " يراقب الشعر الأصفر بطرف عينه وهو مهدول على رقبتها الناعمة والهواء يداعبه وهى شاردة الذهن .. تنظر إلى ضوء السيارة الذى ينساب أمامها مختلطاً بالضباب حتى وصلا بعد حوالى الساعة واستقرت السيارة أمام أحد المنازل المتشابهة في المعادى وتوجها معاً حيث باب المنزل ووقفا يتفرسان بعضهما البعض .. أمسكت يده وأبحرت في عينيه .. خامرها شعور بأن تصيب شيئاً من سحر الرجولة في هذا الشاب الذى طوقها بهذا الجميل .. رفعت وجهها ودنت منه .. شفتاها الممتلئتان منفرجتان .. تحركت حواسه الملتهبة ومال عليها بشفتيه ، أطبق بهما على شفتيها الحارتين في قبلة من السعير .. أذابت الثلوج المدمرة من أعلى قمم الجبال لكى تطفئ لهيب جسديهما .

شعر " **سعيد** " بفرحة ممزوجة بالفخر وهو يراقبها وهى تدلف إلى منزلها .

ركب السيارة وانطلق عائداً ، وبعد أن وصل إلى الطريق السريع لاحظ أنه نسى الطريق إليها ثانياً .. شعر بانقباض والسيارة تطوى الطريق ولم يَعلَق بذهنه أي معالم لبيتها .. سوى نظرة عابرة في شارع أشبه بكل الشوارع حوله ، وبعض المصابيح المتناثرة التى تبعث ضوءها الأصفر من خلال الأشجار الكثيفة في المعادى .

دقت " منى " الجرس .. أمها الهزيلة واقفة أمام الدولاب .. تعبث في بعض الملابس ، تعيد ترتيبها وهى في حالة قاتلة من الأرق هى وزوجها وعندما سمعت الجرس يدق في هذا الوقت المتأخر جفلت خائفة ، هرولت إلى زوجها .. الذى كان يجلس بدوره على الأريكة واضعاً رجلاً على رجل شارد الذهن .. مقطب الجبين .. جفاهما النوم .. نظر

لزوجته صاحبة الجرم النحيل والوجه الشاحب ثم وقف منتصباً وربط " حزام الروب " .

توجه صوب الباب وفتحه .. عندما وجدها " منى " انفرجت أساريره الغليظة .. احتواها في حضنه بلهفة .. غاصت في صدره العريض مندفعة .. أخذ يتحسس شعرها ويربت على ظهرها وعيناه تترقرقان بالدموع .

دلفت إلى الصالة المضاءة باللون الأبيض الزاهى ، ارتمت على صدر أمها الضئيل باكية وهما يذرفان الدموع والأب الملهوف يهدئ من روعهما قائلاً :

- إحكيلى يا بنتى على اللى حصل ؟

وقبل أن تداهم شمس النهار القرية .. كان " **سعيد** " قد تسلل إلى فراشه خلسة وغط في النوم العميق .

وفي الصباح الباكر استيقظت أمه ملهوفة عليه .. بحثت عن طرحتها الحريرية السمراء والشبشب .. لم تعثر عليهما .

قامت بإيقاظ " فاطمة " من النوم وهمست :

- بت يا " بطة " بت يا " بطة " فين الطرحة السمرة بتعتى ؟

- ليه يا أمه بدرى كده ؟

- عاوزه أروح للواد " فرج " قبل أبوكى وجدك ما يصحوا وهاخد معايا " خروع " .

- يا أمه ما إحنا طول عمرنا متعودين على كده من "**سعيد**"!!

تملك الخوف من الأم وقالت :

- أنا قلبى واكلنى المرة دى مش عارفة ليه ؟

- طيب استنى يا أمه كده أما أشوفه في أوضته .. يمكن رجع وإحنا نايمين !!

- روحي يا بنتي بسرعة .

وعندما دلفت " فاطمة " إلى غرفته .. وجدته نائماً في سريره .. تقدمت نحوه وكشفت عن وجهه الغطاء لتتأكد أنه هو .. صاحت فرحة .. هتفت بأمها التي دلفت مسرعة إلى الغرفة، حاولت إيقاظه.

رد عليها بكسل :

- يووه .. سيبوني أنام شوية .

سمعت صوت الجد " سليمان " وهو يهمهم في الصالة .. عصاه تضرب الأرض بانتظام و صوتها يعلو رويداً رويداً .

دخل عليهم غرفة " سعيد " قائلاً :

- سيبيه نايم يا " إجلال " .. الواد تعبان .. طول الليل يدور على عمه " همام " ، و " همام " مش عاوز حد يدور عليه .. سيبيه .. سيبيه .. سيبيه .. وخرج .

عاد الجد إلى الصالة ورأى ابنه " حسن " الذي قال :

- صباح الخير يا ابه .

هز الجد رأسه ولم يرد عليه .. واتجه نحو الكنبة التي يجلس عليها دوماً .

عندما سمعت " إجلال " صوت زوجها الجهوري :

- الفطار فين يا ولاد ؟

حمدت ربنا على سلامة ابنها .. خرجت إلى الصالة منشرحة الصدر.. قريرة العين .. تلقاها زوجها :

- فين الفطار يا وليه ؟

ردت عليه واثقة :

- مش كنت بصحى " سعيد " .

هز رأسه وتبسم بسخرية :

- هوه شرف إمتى ؟

شملته بنظرة خاطفة وهو يكبس الطاقية في رأسه .

توجهت إلى المطبخ وصاحت :

- " بطة " .. بت يا " بطة " .. ونظراته تتابعها باسماً بعدما شعر بالاطمئنان على ابنه الذى عاد .

- ٤ -

ألهبت " حلاوتهم " خيال الرجال في القرية وفاقت تطلعاتها إمكانات زوجها " شحاتة " ، وزواجها منه كان مجرد هروب من عذابات زوجة أبيها الطاعن في السن .. الضعيف الشخصية ، دائماً ما كانت تبحث عن ملاذٍ لها وكان شحاتة الموظف بإحدى الشركات ..

تزوجها .. وبعد أن تمت تصفية الشركة .. بعدما بيعت بات عاطلاً .. يشتغل يوماً وينام عشرة .. مما جعلها تضيق به ذرعاً .

تذهب دائما بشكواها إلى " إجلال " .. التى تغدق عليها وبالرغم من هذا كانت " حلاوتهم " تضمر لها الحقد .

دائماً ما كانت تشعر" فاطمة " باستياء تجاهها وتقول :

- يا أمى البنت دى بتستغل طيبتك .

- دى برده ولية يا " بطة " .. وما لهاش حد يا بنتى .. " مرات أبوها" ورتها العذاب وسقتها المر ألوان .. " أعملى الخير وأرميه في البحر يا بطه .. " .

وذكرتها بطة :

- مش فاكرة لما " الشيخ معتمد " راح يصلحها على جوزها اللى كلته لحم وعاوزه ترميه عضم ، طلعت في الراجل بهدلته .. عشان كان بيعقلها .. دى كل ما تشوف أبويا عينيها الجامدة بتطلع عليه .

- أسكتى يا " فاطمة " .. أستغفر الله العظيم يارب .

و" فاطمة " تشعل نار الغيرة في أمها وتؤكد :

- أيوه .. " صابحة " فتنت عليها .
- طيب استهدى بالله يا " بطة " واسكتى .. ويلا علشان نحضر الغده لأبوكى .. زمانه جاى و" **سعيد** " هيصحى دلوقتى واقع من الجوع .. قومى امسكى جوز فراخ عتاقى وهاتيهم على ما أحط المية على النار .. يلا يا بنتى .. يا ساتر يارب .. يا ساتر .. ودلفت إلى المطبخ.

نهض " **سعيد** " من فراشه باسماً منتشياً .. بعد ما لاقاه من عناء .. توجه إلى الحمام .. أخذ دشاً ثم خرج والماء يتقطر من شعره كحبات المطر .. ممسكاً بطرف المنشفة على رقبته يجفف بها شعره الأسود الكثيف ، وبينما لا يزال واقفاً في الردهة أمام الحمام رأى أمه وهى تمرق أمامه في الصالة همس لها باسماً :

- صباح الخير يا أم " **سعيد** " .
- كنت فين يا واد يا " **سعيد** " قلقتنا عليك يا بنى .

أجابها والابتسامة لازالت عالقة على وجهه .

- هوه أنا صغير .. هتقلقوا عليا !!
- أبوك عمال يسأل عليك ، وأنا بدارى عليه .. اسمع : المرة دى ربنا ستر .. أوعى تكررها تانى .

تملكته الحيرة والتفت صوب المنضدة الكبيرة التى تتوسط الصالة الواسعة ووضع عليها المنشفة ثم جلس على المقعد وقال :

- ماهو من يوم ما خلصت كلية الزراعة ، وأنا قاعد بقالى سنين ما بعملش حاجة .

شعرت في كلامه بنبرة اليأس وعقبت عليه بذكاء فطرى :

- ليه يا بنى ؟ أنت بتساعد ابوك ومش ناقصك حاجة ولو عاوز تتجوز من بكرة عروستك جاهزة ومستنية إشارة منك .

تلاشت الابتسامة من على وجه " **سعيد** " وبدت ملامحه بلا تعبير يُقرأ عليها وقال :

- ما تشغليش بالك بالموضوع ده دلوقتى لما " بطة " أختى تتجوز الأول أبقى أفكر في الحكاية دى .

ترامى صوته إلى مسامع " بطة " .. هرولت نحوه ملهوفة :

- إزيك يا " **سعيد** " كنت فين ؟

انفرجت أساريره ثانية وعادت الابتسامة إلى وجهه :

- إزيك يا " بطة " .. كنت عند واحد صاحبى .

وأراد أن ينهى الحديث وقال مداعباً :

- إيه يا جماعة أنا واقع من الجوع .

دلفت أمه إلى المطبخ ثم خرجت منه وبين يديها طبق عليه (فرخة محمرة) مكتوفة وسمينة سال لها لعابه .. أحضرت " فاطمة" بعض الأطباق الأخرى ووضعتها أمامه .. انقض عليها كالمفجوع .

دخلت " صفية " وهو يلتهم الطعام التهاما .. يكتنفها الخجل الأنثوى الجميل .. كانت الشمس في الأفق مائلة للغروب وتغمر القرية بضوئها الأصفر .. عندما رأته كسا الاحمرار خديها .. كان على شفتيها حمرة خفيفة وشعرها ناعم وطويل أسود بلون الليل .. رمقها وفي يده جزلة من الفرخة في طريقها إلى فمه .. ابتسم مداعباً :

- ازيك يا "صفية" .. تعالى كلى .. تعالى يا شيخة وبلاش أنا.

فترنمت ضاحكة :

- كدة يا " سعيد " طيب .. أما تخلص أكل هعرف شغلى معاك !!

دلفت إلى غرفة " فاطمة " مهرولة وهو يتابعها ضاحكاً .

عندما تكاثف الظلام .. توجه " سعيد " إلى " المقهى " .. كان الجو داخناً مليئاً بالضوضاء والصخب ، والأضواء تضفى صفرة باهتة على وجوه الجالسين ا .

كدأبه رفع يده وأشار إلى النادل مبتسماً :

- شوف يابنى المقاطيع دول يشربوا إيه ؟

التفت نحو شعبان البقال مستفسراً عن أحواله .. تبسم " شعبان " بشفتيه الرقيقتين وأنفه المدبب البارز من وجهه النحيل وقد أتم تعليمه بفضل مجهود أمه التى باعت من أجله " العشرة قراريط " التى خلفها لهما أبوه .. ثم تاجرت بعد ذلك في " الطيور" تارة وعملت " فول وطعمية " تارة أخرى إلى أن حصل على شهادته وتخرج في كلية الهندسة .. مكث فترة طويلة عاطلاً حتى أتيحت له فرصة بيع الجرائد على مزلقان المحطة الذى يبعد عن البلد حوالى كيلو متر ، تمكن من ادخار بعض المال القليل الذى استثمره في أنواع بسيطة من البقالة متخذاً من داره غرفة ضيقة فتح لها باباً على الشارع .

وتوالت نكات " فرج " الذى قام بتأليف اغنية عن أحوال "شعبان " وكانوا جميعاً يقومون بغنائها في جو يملؤه المرح والسعادة وكانت

الصداقة الحميمة التى تجمع بين " **سعيد** " و " فرج " و " شحاتة " تلفت الأنظار بشدة وأطلق عليهم " شعبان " مثلث الصداقة وقاعدته " **سعيد** " وضلعاه هما " فرج " و" شحاتة " .

لا يعلم " **سعيد** " ولا أبوه أن العمدة لازال يعس عن أخبار الطاحونة وقد أرسل شيخ الخفراء يتقصى له الأخبار من " خروع" وذلك خوفاً من أن يأخذها " الحاج حسن " لأن لعائلته عصبية كبيرة في البلد .. فقد أقاموا مدرسة ابتدائية أطلقوا عليها اسم "مدرسة همام عبد البر " ومجمعاً خيرياً كبيراً به مستشفى ومسجد ودار لتحفيظ " الذكر الحكيم " وفصلين لمحو الأمية .. فصلاً للنساء وآخر للرجال ، وأسروا أهل البلد بفضلهم مما جعل العمدة حانقاً عليهم أشد الحنق ، ولم تبق إلا الطاحونة وصدق خبر شراء " الحاج حسن " لها ، وأن العمال سيقومون بأعمال الإصلاح والصيانة ابتداء من أول الشهر وسيبدأ العمل بعد ذلك مباشرة .

توجه العمدة إلى دار أولاد " أبو سلامة " ليتأكد من صحة الخبر بنفسه .. فطالما سعى لامتلاكها ظناً منه بأنه سيتحكم في أقوات أهل البلد .. لأنها الطاحونة الوحيدة فيها .. بيد أنه قد حدد له سعرها قبل أن يعلم أحد بخبرها ، وكان يحاول إخفاء هذا عن "الحاج حسن".

قدموا له واجب الضيافة اللائق به كعمدة لهم وكان أخوهم الأكبر " سلامة " هو المفوض من قبل إخوته في مسألة بيع الطاحونة .. لذا فقد أخبره بأنه :

- " بين البايع والشارى يفتح الله ".

استشاط غضباً عندما علم من " سلامة " بأن " الحاج حسن " زود السعر وخلاص كتب عقدها لذا فقد أضمر الحقد الأسود " للحاج حسن ".. ترك الشاى على المنضدة .. انصرف من دوار أولاد " أبو سلامة " متوعداً إياهم بالثبور وعظائم الأمور قائلاً :

- إنتوا ناسيين إن أنا العمدة ؟ .. الأيام بيننا يا " سلامة"!!

وسلامه لم يبال . ثم قال دونما اكتراث :

- شرفت يا جناب العمدة .

خرج العمدة من دارهم يزمجر في غضب .. يلعن " سلامة " و"حسن" وأهل البلد كلهم .. وهو في طريقه عرج على دار " الشيخ معتمد " .. كانت الشمس تغمر القرية بأشعتها الصفراء، وهو يحدث نفسه :

- كيف أكون العمدة وأنا لا أملك هذه الطاحونة ؟ .. إذا أردت أن أسيطر عليهم فلابد من أن اتحكم في أقواتهم .. في أثناء سيره ماراً بجوار الشونة .. كان ظل سورها يغمر الشارع وتطل على دار " شحاتة " .

وقف يتطلع إليها ثم رفع طرف عباءته ووضعه بعصبية على كتفه وعرج عليها .. تملكه التوتر وهو يلقى السلام على شحاتة .. انتصب " شحاتة" واقفاً عن الدكة التى تتوسط الدار وقال باحترام بالغ :

- أهلاً يا جناب العمدة .. اتفضل !!

فكر لحظة أن " شحاتة " ممكن أن يفيده في خبر الطاحونة .

ثم سأله بمكر :

- اشتغلت يا " شحاتة " ؟

- الحمد لله يا جناب العمدة .. اتفقت مع " الحاج حسن " أشغل له الطاحونة بعد تصليحها .

صدمه الكلام وانتابه الذعر وواصل سيره صوب دار " الشيخ معتمد " ليشتكى له من فعلة " الحاج حسن " الذى تعدى عليه وخطف منه الطاحونة و" شحاتة " يهتف :

- الشاى يا جناب العمدة .

مازالت درنات البطاطس معبأة في الأجولة داخل مخزن " الحاج حسن" في انتظار المشترى الذى اتفق معه ، وعلم العمدة بهذا الاتفاق.. ترك مسئوليته تجاه أهل البلد وتفرغ للمؤامرات والمكائد والبحث عن مصالحه الشخصية بشغف .. ذهب خلسة إلى البندر حيث وكالة الخضر والفاكهة .. قابل المشترى حاول أن يزرع الشك في نفسه تجاه بطاطس " الحاج حسن " .

كان التاجر رجلا ذا فراسة .. توجس ريبة من أمر العمدة .. فقد سبق وتعامل مع " الحاج حسن " ويعلم أنه لا يغش .. تفرس العمدة وغاص في أعماقه ثم استند بظهره على الكرسى والتفت إلى صبى الوكالة وأمره بإحضار الشاى .. انتصب واقفا بعد أن تأكد من أن العمدة عنده رغبة ملحة في إيذاء " الحاج حسن " .. رفع طرف شاله المزركش على كتفه وبقدرة عالية على ضبط النفس سأله :

- إنت مصلحتك إيه ؟.

- بصراحة .. " الحاج حسن " ناوى يضرب السعر وإحنا هنروح في الرجلين .. المحصول كلفنا كتير ومش هيغطى تكاليفه ، و" الحاج حسن " مايهموش !!

أراد التاجر ان يحتوى الموقف وكلمه بخبرة العقلاء :

- على العموم يا جناب العمدة .. أنا اللى بينى وبينكم سعر السوق .

في أثناء استعداد العمدة للانصراف قال بخبث :

- بس انا لا جيت ولا انت شفتنى !!

انصرف والرجل يتعجب من تصرفات العمدة الذي يريد أن تهلك درنات البطاطس في أجولتها بعد أن اتفق مع " الحاج حسن " في شرائها .

رمق العمدة الشيخ معتمد بعد أن أتى من عند التاجر وهو في طريقه نحو دوار " الحاج حسن " .. كان ذلك بعد صلاة العشاء .. وقف متوارياً يراقبه ثم انصرف صوب دواره والحقد الأسود يملأ صدره الضيق .. والشيخ معتمد يلتف في عباءته السوداء وعلى رأسه العمامة البيضاء المحبوكة بعناية .. ممسكاً بعصا يتوكأ عليها وبيده الأخرى مسبحة مدلاة.

رمق النافذة المطلة على الجرن الواسع والضوء ينبعث منها مما شجعه على أن يتقدم .. نقر على الباب بعصاه وتنحنح قائلاً :

- يا ساتر ..

تنبه إليه " خروع " .. هرول إليه مهللاً ومرحباً .

ترامى صوتهما إلى مسامع " الحاج حسن " بالداخل فالتقط عباءته .. وضعها على كتفيه وكبس في رأسه الطاقية الوبر البني وتقدم نحو الباب مستقبلاً " الشيخ معتمد " وعلى وجهه ابتسامة .

دلفا سوياً إلى " المندرة " الواسعة .. أومأ برأسه إلى " خروع " هامساً:

- خليهم يجيبوا العشا في المندرة .

انطلق " خروع " قاصداً المطبخ فقاطعته " إجلال " التي لاحظت همسة زوجها وقالت :

- سمعت .. تعالى خد الصينية ودخلها المندرة .

حملها بين يديه .. رمقه " سعيد " يتأرجح بها .. تحك في كرشه الضخم .. ضحك بصوت عالٍ .. أسرع وامسكها معه .. واضعين إياها على السجادة الحمراء المقابلة للكراسى العتيقة .

كان الضوء الأبيض ينبعث من النيون ويغمر جدران " المندرة " العالية وينعكس على صورة " همام " المعلقة على الحائط في إطارها الكبير العتيق ثم قام " خروع " بتنظيم المساند القطنية بجوار الحائط والشيخ معتمد يتابعه مغتبطاً وعلى وجهه ابتسامة بشوشة وهو يتبادل بعض الكلمات مع " الحاج حسن " عن أحوال البلد والناس فيها .. بعد أن استقرت الصينية وعليها العشاء في مكانها .. بدأت العيون تتجه نحوها محفزة للمعدة .. قال " الحاج حسن " :

- اتفضل يا " شيخ معتمد .. باسم الله .. وهو يمسك بالفرخة ويفسخها واضعاً جزءاً منها أمام " الشيخ معتمد" وآخر أمام " سعيد " .

ترامى إلى مسامعهم صوت نقر على الباب وأحدهم يهتف فأومأ الحاج برأسه لـ " خروع " .. فتح خروع الباب ثم اعتلى وجهه الوجوم وقال متهكماً :

- " شحاتة " ؟

- عاوز إيه يا سى " شحاتة " ؟

- أبوك الحاج فين يا بغل ؟

يفتخر " شحاتة " بأنه زوج " حلاوتهم " أجمل واحدة في البلد .. حدقه خروع فاغراً فاه ولم يعقب .. دلف إلى "الحاج " قائلاً بتراخ :

- ده " شحاتة " جوز البت " حلاوتهم " !!

- دخله يا وله .. إهيه .

وعندما رمق الطعام أمامه هز رأسه متعففاً وقال :

- " لا سلام على طعام " .

انتحى جانباً وجلس على أقرب مقعد لهم .. لكن " **سعيد** " ألح عليه بتناول العشاء معه وهو يتمنع تمنع الراغبين وبعد إصرار منهم هبط عن مقعده وانقض على الصينية و" خروع " يتابعه مغتاظاً .. لأنه دائماً يقول له :

- يا " بغل " .

قال " الشيخ معتمد " وهو يلوك الطعام :

- مبروك " يا حاج " الطاحونة .. ولم يبلغه بزيارة العمدة له كى لا يغضب الرجل وتكون فتنة من إمام الجامع .

- الله يبارك فيك يا مولانا .

أدركهم " شحاتة " قائلاً :

- على فكرة يا حاج إحنا قرينا نخلص تصليحها .. بس العمدة باين عليه زعلان .

نظر إليه الحاج باهتمام بالغ وقال :

- هوه حر .

ثم شرد ذهنه لحظات .. بعدها عاد أدراجه .

كان " الشيخ معتمد " يمد يديه تحت الماء المنهمر من الإبريق الأصفر الذى يمسك به " خروع " يصب منه الماء .. جذب المنشفة عن كتفه العريض . جفف يديه قائلاً :

- دايماً عامر يا حاج " حسن " .

اعتدل الشيخ على الكنبة في صدر المندرة ، رتب هندامه والتفت نحو " شحاتة " وقال :

- عامل إيه مع مراتك دلوقتى يا أستاذ " شحاتة " ؟

بدا شحاتة مستاءً . أجاب :

- والله يا مولانا شكلها كدة هتوصل للطلاق !!

انفعل الشيخ . قال :

- استغفر ربنا يابنى .. إن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

- بس أهو حل برضه يا مولانا .

- إذا استحالت العشرة .

" الحاج " يتابع الحديث عن كثب ويرهف أذنيه لهما في صمت حذر وقلبه يرجف بين ضلوعه .

بينما " شحاتة " يتحاور مع " الشيخ " باهتمام .. " سعيد " ممسك ببراد الشاى وأمامه الأكواب الزجاجية اللامعة مرصوصة على الصينية يصب فيها الشاى الأسود .

أردف " شحاتة " :

- ما هى عشرتها مستحيلة يا مولانا !!

- ما احنا يا بنى صالحناكم !!

- مفيش فايدة " يا مولانا " . وحدق في " الحاج حسن" .. وقال :

- أصلها .. بصه لفوق أوى ومتنمردة على العيشة .

خامر " الحاج حسن " شعور بأن الكلام موجه إليه .

قال الشيخ :

- ربنا يهدى الحال .. استأذن وأوصله " خروع " إلى الباب ورجع .

نظر الحاج إلى " شحاتة " وقال :

- شوف يا " شحاتة " الطاحونة دى بقت مسئوليتك ، و" **سعيد** " هيبقى يساعدك .. عاوزك بقى تورينى همتك .

أراد الحاج أن يبث الهمة في نفس " شحاتة " الذى هم بالانصراف ، نهض " خروع " معهم صوب الباب وقال ساخرا :

- مع السلامة يا " ششحاتة " (مع تكرار الشين)

- الله يسلمك يا .... وسكت .

ظن " خروع " أنه سيقول له :

- يا بغل ولكنه مازحه قائلاً : يا " خروع " .

❖ ❖ ❖

هدأ بال العميد " مختار سعد " بعدما تحررت ابنته ، و" جابر" لازال في السجن ، أراد القدر أن تكون الغلبة في صفه .. لذلك شعر بالثقة .. وقرت عيون زوجته .

شغل " **سعيد** " كل تفكير " منى " .. كم تمنت أن تراه ثانية .. ولكن ما السبيل ؟ .. وهى لا تعلم إلا القليل عنه .

نقرت أمها على الباب :

- تعالى يا ماما .. فيه حاجة ؟

قالت وعيونها تجوب الغرفة باسمة :

- لأ بس إنتى مش عجبانى من ساعة ما رجعتى .. بتفكرى في إيه ؟

- مفيش حاجة يا ماما .

دنت منها لتحتويها :

- أنا أمك هتخبى عليا برضه ؟

أحست أن أمها تعلم بحبها لـ " **سعيد** " .. احمر وجهها القمرى، أردفت الأم :

- إنتى بتفكرى في الشاب إياه .. صح ؟

- بصراحة .. أيوه يا ماما .

قالت " الأم " وغرض ما في نفسها :

- يا بنتى ده راجل عمل خير وخلاص .. أجره عند ربنا ولما نشوفه نبقى نشكره .

ثم أردفت :

- " وحيد " ابن عمتك بعت جواب انهاردة .

لم تُلق لها بالاً .. التفتت صوب " التسريحة " .. التقطت " المشط " وأخذت تداعب شعرها الأصفر الناعم .. تبسمت الأم وتسللت من الغرفة بهدوء ولازالت ابنتها تنظر إلى نفسها في المرآة وهى شاردة ، ولم تنتبه إلا عندما سمعت صفق الباب عندما دلف أبوها وجلس على مقعد في ركن الصالة مسترخياً وتوجهت زوجته إلى المطبخ لتجهيز طعام الغداء .

أشعل سيجارة ورفع رأسه بشموخ ينفث الدخان عالياً واضعاً رِجْلاً على رِجْل .يداه مفرودتان على المسند وصدره المليء بالشعر بارز وقال:

- الشاب ده خدمنى خدمة عمرى .. رجعلى بنتى سليمة وخلا ملف خدمتى نضيف .. فعلاً الدنيا بخير طول ما في شباب زى " **سعيد** " ده .. الحمد لله .

وزوجته ترهف أذنيها وهى في المطبخ وعيناها مملوءتان بالرضا .

خرجت " منى " من غرفتها متوجهة نحو أبيها كان الضوء الأبيض يغمرها ويضفى على وجهها القمرى بياضاً ناصعاً .. تلقاها أبوها حانياً ثم قبلها من جبهتها وحث زوجته على الإسراع بتجهيز الأكل .

وبينما يمد يده ممسكاً بالملعقة وكاد ان يلتهم أول لقمة حتى دق جرس الهاتف .

(٥)

كدأبــه ذهــب "فــرج" إلى الــدوار للســؤال عــن " ســعيد " صــديقه .. يطمـح في نظـرة يأخـذها مـن " بطـة " كـى يخمـد بهـا نـار الاشـتياق التـى تضـطرم في قلبه .. كان على علم بأن " سعيد " قد توجه إلى القاهرة ليحـاول مقابلـة " منـى " التـى أخـذت بشـغاف قلبـه وأطاحـت بلُبـه .. دنـا " فـرج " مـن الـدوار متسـللاً .. تـردد قليلاً .. أَبَىَ إلا أن يراها .. ولو من بعيد .

وقـف متواريـاً بـين الأشـجار علـى " الجـرف " الجـانبي المرتفـع بـين المزارع والـدوار .. ظلـه بـين رجليـه .. يشـعر بلـذع الشـمس علـى ظهـره .. طال انتظاره .. أخذ يجفف العرق الـذى يقطـر مـن جسـمه .. وفي أثنـاء مرور " ميشيل أفندى " مدير الجمعية الزراعية على زراعـات الناحيـة .. رمـق " فـرج " واقفـاً علـى غـير عادتـه ، و" ميشـيل أفنـدى " هـذا رجـل " حويط" يلبس " نظارة " زجاجها سميك وعلـى رأسه قبعـة لهـا " حبـل " مدلى أسفل ذقنه ومنحدرة إلى الوارء ، وعلى رقبته " منـديل محلاوى " ، قـد أتـى مـن الصـعيد وتم تعيينـه في " **البجـامون** " منـذ عشـر سـنوات مضت ولم يغادرها إلا نادراً .. غير متزوج ولم يفكر في الزواج فقد أحـب أهل هذه القرية وأحبوه أيضاً .. يعيش في دار متواضعة استأجرها مـن العمـدة .. يخـدم نفسـه بنفسـه .. كـانوا يغـدقون عليـه كـثيراً .. لم يشعر أبداً بالوحدة وأضحى جزءاً من هذه البلدة .

تسلل بمكر .. حتى صار واقفاً خلف ظهر فرج مباشرةً وعلى وجهه ابتسامة تكشف عن مدى دهائه وشكه في " فرج " ، وهو على هذه الحالة المزرية .

رفع يده اليمنى ببطء وهوى بها على كتف فرج الأيمن صارخاً في أذنه :

- إزيك يا سى " فرج " !!

جفل " فرج " للخلف مستديراً كالمأخوذ .. اصطدم به نتج عن ذلك سقوط الدفتر من يد " ميشيل أفندى " وتبعثرت أوراقه ووقعت النظارة على الأرض .. أضحى لا يرى شيئاً أمامه سوى شبح فرج .. وقفا في صمت متجهمين لحظات .. كسر " فرج " هذا الصمت حين صاح :

- الله يخرب بيتك يا " ميشيل أفندى " !! .. انفجرا في الضحك .

قال " ميشيل أفندى " بمكر :

- إنت بتعمل إيه هنا يا " فرج " ؟

كان فرج قد التقط النظارة وأعطاها له وقال :

- بتمشى شوية .. إيه عندك مانع ؟

وضع النظارة ثانية على وجهه وقال :

- إطلع من دول يا " فرج " !!

- لا بطلع ولا بنزل يا " ميشيل أفندى " .. عن إذنك !!

انصرف من أمامه تتابعه نظرات " ميشيل أفندى " مصحوبة بابتسامة ماكرة .

كان " **سعيد** " في طريقه إلى مصر منذ الصباح الباكر كي يبحث عن " منى " لم يتذكر إلا " المعادى" ، في محاولة يائسة منه .. أخذ ينقب عنها في أرجاء " المعادى " وكان عند توصيله لها قواه منهكة ولم يتأكد من عنوانها .. وبعد أن قضى بالتاكسى الذى أقله مدة طويلة .. يصول ويجول .. بدأ سائق التاكسى يضيق ذرعاً به .. مع العلم بأنهم قد مروا على " منزلها " عدة مرات وهو لا يدرى ، وأخذ يطوى شوارع المعادى المشابهة على أمل أن يرمقها تطل من نافذة أو يعثر عليها في أحد الشوارع ولكن اليأس قد تملك منه وقال للسائق :

- إنت شكلك كدة مش مُريح .. يالا وصلنى المحطة .

استقل " **سعيد** " سيارة أجرة من الموقف وجلس في المقعد الأمامى بجانب السائق .. تحركت العربية تترنح وسط موجات من العربات التى لا تترك موطئاً لقدم .. صفيرها وزمجرتها تصيب الرأس بالصداع ، طيات من الدخان الأسود المتصاعد من مؤخرة السيارات يزكم الأنوف ويصيب الصدور في مقتل .

أخرج **سعيد** منديلاً .. وضعه على أنفه ، على وجهه علامات الاستياء والحنق من ثرثرة وهمسات الركاب التى تصل إلى أذنيه من المقاعد الخلفية يسمع الكلمات ولكنه لا يستطيع أن يميزها من بعضها .. حتى تنبه أن أحدهم هو محور الثرثرة في السيارة .. يثرثر مع الرجل الذى يجلس بجانبه عنوة ثم ينقل الثرثرة إلى الخلف والأمام في غوغائية.. بدأ السائق يضيق من الثرثار وقال حانقاً :

- إيه يا أستاذ ؟ كفاية كلام شوية .. دماغنا بيوجعنا !!

نظر إليه الرجل الثرثار شذراً ولم يعقب .. ثم عاد يثرثر ثانيةً .

حدق فيه السائق بغيظ من خلال المرآة العكسية وصاح :

- يا أستاذ .. يا أستاذ .. ارحمنا شوية !!

رمقه الرجل الثرثار وارتسم الغضب على وجهه النحيل وقال منفعلاً:

- حتى الكلام مش هنعرف كمان نتكلمه !!

قال السائق متهكماً :

- ما احنا طول عمرنا بنتكلم .. ولا حد بيسمعنا .. عملنا إيه الكلام يعنى ؟ .. دماغك شوية يا أستاذ !!

كانت الشمس تستعد للغروب وبقايا من ضوئها تنعكس على وجوه الركاب الشاحبة .. تملك الثرثار انفعال شديد وثورة عارمة وهاج :

- دماغى ؟ دماغى إيه يا اسطى ؟ دانا دماغى دى متكلفة أوى ..

هو رجل نحيل هزيل حاد المزاج .. انتفض على مقعده يريد أن يشتبك مع السائق في عراك شديد والركاب يهدئونه وهو يقول :

- سيبونى عليه .. ده أنا أقدر أبهدلك !! وفجأة بدا مستكيناً وديعاً وجلس قابعاً على مقعده قائلاً بهدوء : هوه أنت رايح فين يا اسطى ؟

وهنا بدأ الشك في قواه العقلية .. كيف يصعد السيارة راكب .. لا يعرف وجهتها ؟

تعجب " سعيد " والتفت نحوه .. فصاح الرجل ثانية وقال :

- إنت بتبصلى كده ليه ؟ هه .. تعالى صورنى .. تعالى .. ما تيجى !!

تبسم " **سعيد** " وهمس " ربنا يشفى " وأشار بيده اليمنى بجوار أذنه في حركة نصف دائرية صامتة .

رمق السائق كميناً أمامه .. يحجز كل العربات المارة ، تنصرم منه واحدة تلو الأخرى .. فقال مضطرباً :

- ربنا يستر .. يظهر فيه حاجة !!

وعندما دنا من الحاجز الحديدى وجد أحدهم يشير إليه .. آمراً إياه بالتوقف .. انتحى السائق جانباً وتوقف ثم تقدم إليه رجل يمشى على استعلاء وقال :

- رخصك ؟

أخرج السائق " الرخصة " وأعطاها له .. نظر فيها ثم نظر لوجه السائق باحتقار .. قال له :

- أنت شايل ممنوعات ولا حاجة ؟

وجال ببصره بين الركاب كما لو كانوا من الممنوعات !!

سمع السائق الرجل الثرثار يقول له :

- اديله حاجة يا اسطى بدل ما ياخد منك الرخصة ويعملك مخالفة ويبهدلك .

فكر السائق لحظة وأخرج من جيبه شيئاً أعطاه إياه واستلم منه الرخصة ثم رمق السائق اثنين يفتحان باب العربة وأحدهما في يده " قميص أبيض " والآخر يجذب الرجل الثرثار من " كتفه " ويجره من العربة قائلاً :

- إنت رايح فين يا دكتور " مــــيلص " .. البس يا راجل القميص !!

كان الظلام قد تكاثف عندما وصل " سعيد " إلى البلد متوجهاً نحو الدوار .

رمق الضوء يتسرب من دار " شحاتة " في شارع داير الناحية المظلم ثم رمق " حلاوتهم " من الباب الموارب وهى بملابس شفافة ومنهمكة في شغل الدار .

هز رأسه متعجباً وواصل سيره بينما " حلاوتهم " قد أعدت العشاء وتركته على الطبيلة وغطته بقطعة من القماش ثم استلقت على السرير في ضوء اللمبة الصغيرة الباهت الذى يصبغ جدران الغرفة المطلية بالجير المقشور باللون الأصفر القاتم .

أنهى " شحاتة " شغله في الطاحونة .. عاد منهكاً .. كان ضوء القمر خافتاً ومظللاً بالغيوم .. فتح باب الدار الثقيل الذى أصدر صريراً عالياً .. دلف إلى الداخل .. خلع ملابسه المشبعة بالمسحوق الأبيض والشحم .. زعق بزوجته التى لم تلق له بالاً وتقلبت على السرير .. قطبت حواجبها الحادة المرسومة بعناية ..

أردف صائحا :

- " حلاوتهم " .. بت يا " حلاوتهم " .

نهضت من فراشها بتثاقل .. تريد أن تهرب بهذا الزواج من عذاب زوجة أبيها .. كالمستجير من الرمضاء بالنار لملمت شعرها الطويل الأسود الكثيف المجدول .. تواري مواطن الإغراء في جسمها المذهل .. تفضحها عيناها اللتان تشبهان عينى البقرة المرسومة بالكحل الأسود بدقة .

دلفت إلى ركن قصي يستمد ضوءه من اللمبة الصغيرة التى تتوسط سقف الدهليز الذى يحتوى على أدوات حقيرة تستخدمها في أعمال الطبيخ الذى نادراً ما يحدث .

أشعلت " وابور الجاز " الصدئ .. أحضرت " براد الشاى " الأسود ووضعته فوقه وهى تغمغم :

- إنت لازم يعنى تصحينى ؟

ابتسم عندما نطقت.. يريد أن يشعر بأن أحداً معه في الدار. قال:

- تعالى كلى معايا !

- مش عاوزة .

- طب اقعدى جنبى علشان تفتحى نفسى !!

لازالت نافرة وعيناها على " براد الشاى " تحثه على " الغليان " كما لو كانت هى التى تغلى .. رفعت غطاءه فخرج منه البخار الملتهب ثم غطته مسرعة .

هى تود الا ترى وجهه المقيت .. زفرت زفرة ملتهبة كالبخار .. هو يتحرق شوقاً إليها ، وهى دائماً متمردة عليه .. بلغ صبره مداه عليها .. يحاول أن يتحمل هجرها اللعين وسخطها على المعيشة .. يأمل أن تستقيم معه .. رغبته فيها تكاد تعصف به .. أنهى عشاءه .. التفت نحو" قُلة الماء " . قال لها مداعباً :

- أنا عطشان قوي .

- خذ أشرب ..

مد لها يده وانغرست عيناه تأكل من صدرها النافر .. شعر بدوار .. تجرع منها القليل وأغرق صدره الكثير دون وعى .

وضعت أمامه كوب الشاى .. تناوله .. أخذ يرتشف منه بصوت عال .. تقززت منه .. تركته ودلفت إلى غرفة نومهما .

اعتلت السرير ذا الأعمدة الحديدية المطلية بالنحاس الأصفر .. تجرع كوب الشاى وتبعها .. تصنعت النوم .. أولته ظهرها .. همس في أذنها .. لعب في شعرها .. لم تُعِرْه انتباهها .. بدأ صدره يضيق بها .. جذبها من كتفها بقوة .. استدارت غاضبة :

- يا أخى سيبنى في حالى بقى !!

تفرسها والشرر يتطاير من عينيه :

- هوه ده مش حقى ؟

- سيبنى أنا عاوزة أنام !!

- لأ مش هتنامى دلوقتى .

- يووووه .. هاسيبلك الأوضة واخرج !!

استشاط غضباً .. صفعها على وجهها .. ترك هو الغرفة وخرج.

وعند انتصاف الليل كان قد راح في سبات عميق .. بعد أن قضى نصفه الأول في نكد .

تسللت " حلاوتهم " من الغرفة على أطراف أصابعها .. هى عازمة على الطلاق ومصممة عليه .. أمعنت النظر في وجه " شحاتة " تأكدت أنه يغط في النوم ويصدر شخيراً مدوياً .

توجهت نحو الدولاب الحقير.. أخرجت ملابسها البالية .. لفتها في صرة وهرعت بها نحو دار أبيها .. بعد أن أدركت أن (نار زوجة أبيها ولا جنة " شحاتة ") .

الظلام الحالك هبط بقوة على أكوام القش والسباخ المتناثرة في شارع " داير الناحية " والشبورة تكاثفت بضراوة على أعمدة النور وأسطح المنازل الصامتة وليس بالشارع سوى " خفير الدرك " .

سمعته يزعق :

- ها .. ها .. مين هناك .. بطريقة آلية .

دنت منه وجدته يغط في النوم .. الشهيق والزفير يداعبان شاربه المدلى .. يلتف في بالطو أسود كالكفن .. اكتشفت أنه يتكلم وهو نائم .. تركته وابتعدت إلى حال سبيلها .. تحتضن الصرة .. ضوء الأعمدة الخافت يعكس ظل الحوائط السوداء على الأرض كالأشباح .. كل ما يشغل تفكيرها هو الطلاق لكى تتحرر من البؤس والتعاسة .

انتابها شعور بأنه قد امتلأ حقداً على " الحاج حسن " وابنه " **سعيد** " .. وذلك بسبب كثرة كلامها عن ثرائهم والعز الذى يتمتعون فيه .

هدهدت بداخله وحش الحقد الأسود دون وعى .. ومن الواضح أنه لا يبوح بهذا الحقد لأحد حرصاً على صداقة " **سعيد** " التى أكلها وحش الحقد أو على الأصح .. استغلالها جيداً ، وفي غمرة تفكيرها الأسود .. اشتبكت هرتان وصاحتا وكان مواؤهما كبكاء الأطفال .. جفلت وشعرت برعدة ثم لملمت شجاعتها وواصلت السير ، وما لبثت أن رأت أمامها أطيافاً تتحرك .. تسمرت قدماها لحظات .. ثم سمعت أصوات كهمهمات الجن .. ارتعدت بشدة وعادت أدراجها مهرولة وهى تقول :

- النهار له عينين .

دلفت من الباب ببطء وهى تحاول أن تكتم صريره .. أغلقته من

خلفها وزوجها لازال يغط في سبات عميق عندما تسللت على أطراف أصابعها إلى الغرفة الساكنة .

ألقت الصرة .. استلقت على السرير وفي بالها " الحاج حسن " حلم حياتها الذى سيحقق لها طموحها الشارد .

و" الحاج حسن " مثل الجمل لا ينسى من أساء إليه وإذا أساء إليه أحد فليحذره .. ضاق صدره من أفعال " العمدة " .. بينما يجلس على الدكة .. يكلم نفسه تحت التكعيبة بعد صلاة العشاء والضوء الأبيض المنبعث من النيون يظلل الأرض بخطوط سوداء .. يصنع بعصاه دوائر وخطوطاً طولية وعرضية في التراب .. يحدق في أعماق الأرض .

تنبه عندما سمع خطوات " الشيخ معتمد " .

رفع رأسه صوب الأفق فأبصره .. مستقبلاً إياه .. اتكأ الشيخ بظهره وفرد ذراعه على مسند الدكة بعد أن جلس سائلاً عما به .. بدا الحاج مراوغاً .. أشاح برأسه صوب باب الدوار زاعقاً على " خروع " .. لم تسعفه ذاكرته بأن " خروع " لازال في الغيط مع الأنفار .

خرجت " فاطمة " ملهوفة :

- أيوه يابا .

طلب منها إحضار الشاى .

استدركه " الشيخ معتمد " وحدجه بنظرة معناها أن هناك شيئاً جللاً قد حدث .. بدا " الحاج " مضطرباً وهو يخبره بأن العمدة لم يتركه في حاله وأنه ذهب إلى تاجر الوكالة لكى يزرع فيه الشك ويمنعه من شراء المحصول لكى يهلك في مخازنه ، وقبل هذا قد ذهب إلى أولاد أبو سلامة من أجل أن يأخذ الطاحونة ويتحكم في أقوات الناس .

قال الشيخ مهوناً من المسألة وعلى وجهه ابتسامته البشوشة :

- الصبر يا حاج .. الصبر نصف الإيمان .

تملكه القلق وغمر الشيخ بنظرة فيها كل خبرة الحياة :

- على العموم الانتخابات قربت وأنا مش فاضى له دلوقتى .

قاطعهم " ميشيل أفندى " مهللاً من بُعد قليل :

- إزيك يا عم الحاج .. إزيك يا " شيخ معتمد " .

انفرجت أساريرهما .. استقبلوه بترحاب بالغ .. صاح على " بطة " كى تحضر العشاء لهم .. أصر" ميشيل أفندى " أنه تناول عشاءه .. وأخبر الحاج بأن الموضوع غاية في الأهمية .

ارتسم الوجوم على وجه الحاج وقال :

- خير يا " ميشيل أفندى " ؟

- الدودة مبهدلة الغيط بتاعك البحرى .. إزاى أنت سيبه من غير رش ؟

- طب ما ترشوه إنتو .

- كنَّا زمان بنرش ، لكن دلوقتى رشنا بقى قليل وفي أوقات معينة ، وغيطك عاوز يترش دلوقتى .

ثم أخبره بأنه قد أبلغ " سعيد " و" خروع " بهذا الكلام عندما كان مع الأنفار في الغيط الشرقى ، وأن الجمعية الزراعية فيها عبوات المبيد الحشرى جاهزة .

قال الحاج وهو مثلج الصدر مستفسراً :

- يعنى هنلحق يا " ميشيل أفندى " ؟

- الصبح من بدرى .. إبعتلى " خروع " بالفلوس وأنا هديله

الكمية المطلوبة ، ما تقلقش هنعمل اللازم .

اتت إليهم " بطة " بالشاى .. تناوله " ميشيل افندى " بأدب جم .

قال الشيخ مداعباً :

- الا انت ما اتجوزتش لحد دلوقتى ليه يا " ميشيل افندى"؟

- على إيه يا مولانا ، خلينى كده بعقلى أحسن .

- إيه اللى عاجبك في بلدنا ؟ .. ما تأخذنيش .

- كل شىء يا مولانا .

- يعنى عيشة البندر مش أحسن ؟

- مابقاش فيه فرق كبير دلوقتى .. بص حواليك للكتل الخرسانية ، والدش اللى موجود فوق كل دار ، معظمهم جاب الكمبيوتر لولاده ، هنا كل المدارس والوحدة الصحية والتليفونات مفيش حاجة ناقصة عن المدينة .. بالعكس يمكن هنا تلاقى شوية هوا نضاف .

عقب الحاج حسن :

- والله عندك حق يا " ميشيل افندى " .. البلد بقت زى المركز .. بس هما شوية خلاف يمكن في بعض العادات وخلاص .

وقف "الشيخ معتمد " منتصباً واستأذن للرحيل وبعده بدقائق استأذن " ميشيل افندى " متوجهاً إلى داره أيضاً .

خرج الجد " سليمان " يجرجر قدميه ويضرب بعصاه الأرض رمق بالنور المتبقى في عينيه ابنه " حسن " لازال جالساً على الدكة الخشبية أمام الدوار.. وقف متكئاً على عصاه وقال :

- إنت مين ؟ .." همام " .. اتأخرت ليه يا " همام " ؟

تنبه " الحاج حسن " واتجه نحوه ممسكاً بيد أبيه .

قال الجد بانكسار :

- " حسن " .. ؟ امال أخوك همام فين يا حسن ..؟ اتأخر قوى يا بنى.

- يا ابه ريح نفسك معقول " همام " هيرجع تانى ؟

تملك الغضب من الجد وجذب يده من يد ابنه وقال :

- أيوه هيرجع ولا أنت خايف يقاسمك في الورث ؟

- يا ابه همام أخويا " شهيد " .. يعنى عايش عند ربنا دلوقتى ومبسوط .

نظر إليه الجد شذراً وتركه متوجهاً إلى غرفته وابنه يراقبه حتى دلف إليها وتوجه هو الآخر لينام .

وفي الصباح هب " الحاج حسن " من نومه على صوت " خروع " كدأبه .. يذكره بموعد " ميشيل أفندى " .

ثم صاح على **سعيد** أيضاً وكانت الشمس تطل براسها في الأفق قرصاً أحمر ، والجو معبأ بأبخرة مائية قليلة .. بعد تناولهم الفطور.. خرجوا جميعاً .

توجه الحاج حسن بسيارته " الجيب " نحو " الجمعية الزراعية " كى يأتى بالمبيدات .

اتجه " **سعيد** " و " خروع " مترجلين .. إلى ان يأتى لهم الحاج بالمبيدات ، وفي الطريق الحاصب أبصر " **سعيد** " ورشة " فرج " ثم عرج عليها كى يسأل عنه .. فلم يجده .. ترك له رسالة شفوية مع "

عراقيب " صبى الورشة .. ثم واصلا سيرهما و" خروع " يجرجر رجليه التى تحمل فوقها جسداً ضخماً فاغراً فاه وتنفسه سريع ثم التفت نحو " **سعيد** " .. سأله ببلاهة :

- الا قولى يا سى " **سعيد** " : هوه فيه عفاريت بتطلع صحيح بالليل ؟

- لأ .. يا " خروع " ما عفريت إلا بني آدم .

- أمال الناس بتقول ليه إن ساقية " أبو دسوقى " مسكونة بالعفاريت ؟ كل ليلة تطلع منها جنية .. تقعد على حرفها وتمشط شعرها ولما حد يقرب منها تطبش في المية على طول ؟

نظر إليه شذراً ثم هز رأسه وقال :

- أنت شفتها بعنيك ؟

- بس الواد " نوفل " شفها وحكالى .

حدق فيه حائراً وهو يعلم أن حكاية العفاريت وأمنا الغولة لازالت تعشش في رءوس البعض ، ومنهم " خروع " .. ثم وجده وهو يحدجه وحدقتاه بدأتا تتسعان . قال بفضول :

- إنت مش مصدقنى يا سى " **سعيد** " ؟

- طب إيه رأيك إنها حصلت مع " نوفل " بجد ، وهو عمره ما يكدب عليا .

تملكه التعجب ثم سأله بذهول ساخر :

- ازاى يعنى ؟

بدا " خروع " كالمأخوذ وهو يحدق في وجه " **سعيد** " كما لو كان يشك أنه عفريت .. ثم سأله :

- تعرف الواد " مصلحى " ؟

- أيوه .. ماله ؟

- اتفق مع نوفل عشان يعدى عليه في نص الليل لما المية تزيد شوية في الترعة علشان يروحوا يسقوا الدرة ، خدوا مكنة المية وعلقوها ، بدأت تحدف ميتها في الرشاح ، راح " نوفل" يلم شوية حطب علشان يعملوا شاى ، ولع ركية كبيرة تحت الجميزة اللى على راس الترعة .. وبعدين جاب البراد وحطه على النار .

كان " مصلحى " واقف جنب النار ولما " نوفل " جه يمد إيده عشان يصب الشاى .. بص في النور اللى طالع من " الركية "لقى رجل من رجلين " مصلحى " (خشب) ارتعشت إيده وجري في الغيط زى الفار المذعور .

جال بخاطر " **سعيد** " هذا السؤال :

- هل يمكن أن يكون الوهم حقيقة ؟ والخيال واقعاً في أذهان الناس ؟

- نعم !!

- عندما يترسخ الوهم والخيال في عقولهم وتكون الحقيقة واضحة جلية أمام عيونهم ولا يرونها، ويصدقون الخيالات المبهرة التى تنسجها عقولهم ، وعلى هذا يمكن أن تتحول الشائعة إلى حقيقة في عقولهم .. حتى تجد الفرصة

المناسبة لفرض نفسها على واقعهم، ولا يعلم حقيقتها إلا من روج لها وعندما يواجهه آخر يعلمها يقول له :

- يا راجل داحنا دافنينه سوا !!

يعلم أنها محض خرافات متوارثة عند البعض ويعتبرونها حقيقة واقعة ، وعندما سأله " سعيد " :

- ويعدين حصل إيه بعد ما جري في الغيط زى الفار المذعور؟

قال وهو يرجف :

- راح على دار " مصيلحى " لقاه لسة نايم .. وقع من طوله لما " مصيلحى " قاله :

- يالا بينا يا " نوفل "علشان نروح نسقى الدرة .

تهاوى " سعيد " جالساً بعدما راح في غيبوبة من الضحك و " خروع " ينظر إليه ببلاهة فاغراً فاه .. صدره مفتوح وعلى رأسه " الطاقية المخرمة ".. عندئذ كانا قد وصلا إلى " الخص " .

اعتدل سعيد على " الدكة الخشبية " الموجودة في " الخص " .. اتكأ بظهره على مسندها عاقداً يديه حول ركبته اليمنى ، والجلباب مشمور قليلاً عن رجله اليسرى و" خروع " يقف مواجهاً له ، وعندما أفاق " سعيد " من نوبة الضحك التى ألمت به .

قال ساخراً :

- ويعدين إيه إلى حصل بعد كدة ؟

أردف " خروع " :

- اضطر " نوفل " يروح تانى مع " مصيلحى " علشان مكنة

الميـة اللـى سـايبها شـغالة لوحـدها ، كـان النهـار قـرب يشقشق ولما وصلوا واطمن إنها لسة شغالة وبتحدف المية في الرشاح .. قعد مع " مصيلحى " تحت الجميزة وحكالوا على اللى حصل .. قعد " مصيلحى " يضحك ويتعجب وقاله :

- إزاى يا راجل تكون ليا رِجْل بنى آدم ورجل خشب .

- دقـق نوفـل النظـر في وش " مصـيلحى " وهـوه بيسـأله ويضحك وقال :

- آه والله كانت له رجل بنى آدم ورجل خشب !!

قطب " مصيلحى " حاجبه وحدق في وجه " نوفل " قائلاً :

- خشب إزاى يعنى ؟

- ورفع رجله في وش " نوفل " وقال زى دى ؟

وقع " نوفل " على الأرض " ما حطش منطق " .

وبينما كان " خروع " مندمجاً في الكلام رمق " سعيد " قطعة من الخشب أشبه بالعصا بجواره في الخص طولها حوالى متر .. استلها وعلى حين غرة من " خروع " واراها خلف ظهره ثم دسها داخل جلبابه ممسكاً إياها من الفتحة ، ووقف رافعاً رجله اليسرى عن الأرض وحلت محلها القطعة الخشبية ، وعندما انهى " خروع " كلامه .. ضحك " سعيد " ضحكة على طريقة العفاريت ثم سكت فجأة واتسعت حدقتاه مبحلقاً في وجه " خروع " ودنا منه قليلاً وهو يرفع القطعة الخشبية في وجهه ويقول :

- خشب ازاى يعنى ، زى دى ؟

وعندما رمقه " خروع " خر مغشياً عليه ، ومن شدة خوفه نهض ثانية ، ثم فر كالفيل المذعور .. ثم وقع .. ثم نهض .. أخذ يجري كالممسوس يقع وينهض ويتعثر في أعواد الزروع المتشابكة التى تصطدم بها قدماه متوجهاً إلى الدوار.

مرة أخرى عاودت " **سعيد** " نوبة الضحك المتواصل حتى غاب " خروع " عن عينيه .. عندئذ أتى إليه أحد الأنفارالذين ينتظرون " الحاج حسن " ومعه المبيدات وقال :

- إحنا جاهزين يا سى " **سعيد** " .

أفاق " **سعيد** " من نوبة الضحك التى ألمت به ونظر إلى الأفق صوب الطريق الذى فر منه " خروع " مذعوراً وقال :

- طيب أنا هاروح أجيب " خروع " وأجى على طول !!

كانت العصا الخشبية لازالت بيده .. أخذها معه دون قصد واتجه صوب الدوار متخذاً طريقاً مختصراً .. عندما وصل رمق " بطة " واقفة أمام الباب فسألها :

- هو " خروع " ما جاش ؟

- لأ ما جاش .

ودلفت " فاطمة " داخل الدوار ثم التفت " **سعيد** " وقد تمكله القلق وأخذ ينظر إلى الطريق المتوقع أن يأتى منه " خروع " .. فإذا به يقف أمامه و يلهث بشدة .

عندما رمق " **سعيد** " الواقف أعلى درجات السلم تأكد " خروع" أن الذى كان معه في " الغيط " ما هو إلا عفريت خر مغشياً عليه ثانية .

أحضر " **سعيد** " " قلة الماء" من أمامه على السور وافرغها على وجه " خروع " الممتلئ وهو يكاد يهوي من الضحك ، وعندما أفاق " خروع " قال لاهثًا :

- أسكت يا سى " **سعيد** " على اللى حصلى !!

- حصل إيه يا " خروع " ؟

قال وصدره العريض يعلو وينخفض :

- واحد شكلك وزيك بالظبط .. كان معايا في الغيط دلوقتى وكنت فاكره أنت .. بس التانى رجله كانت خشب .

كان " **سعيد** " لايزال ممسكاً بالعصا الخشب وراء ظهره .. دسها داخل جلبابه ثانيةً ثم قام برفع رجله اليسرى لأعلى ويده داخل فتحة الجلباب ممسكاً بها ثم رفعها في وجه "خروع" محدقاً فيه وقال :

- خشب ؟ خشب إزاى يعنى .. زى دى ؟

- ٦ -

تمكن الحقد من العمدة وشعر بجحيم الغضب بعدما تلقى الطعنات المتوالية في كرامته لأن " الحاج حسن " قد أطاح بكبريائه ، جعل تأثيره معدوماً في البلد .. لذلك قرر أن يتحالف مع الشيطان وهو "حشاف" ورجاله .. ثم استقطب " شحاتة "، " الذى يبيع أبوه بالمال" وأضحى من رجاله الذين يلازمونه كظله مثل شيخ الخفر .

بلغ حقدهم مداه عندما علموا أن " الحاج حسن " نجح في " انتخابات مجلس الشعب " .. وخصوصاً " شحاتة " الذى أضمر لعائلة " عبد البر " كلها حقداً أسود بعدما ترك الطاحونة وامتلك المال .

ويطير عقله عندما يرى " حلاوتهم " وهى تشتغل في أرض عائلة " عبد البر " .. يقف على قارعة الطريق ينتظرها كى يراها فقط .. ليطفئ لهيب شجونه وآلامه ، وهى تمر أمامه تتبختر في خيلاء يتراقص شعرها المضفور في جدائل مدلاة على ظهرها ، باتت تتقن لغة الجسم والعين والحاجب ، وتتهادى في مشيتها بطريقة تلهب الخيال .. عندما يرى ذلك تأكل الغيرة قلبه .. شعر بفتنة شبابها وسحرها وهى تتبادل الضحكات الصارخة مع كل من يومئ إليها ، وأضحت نظرات أهل البلد المشتعلة تشتهيها ، وبدهاء شديد نصبت شركها الأنثوى للحاج " حسن " الذى لم تهدأ ثورته الجامحة نحو طغيانها الجارف وأضحت رغبته الشديدة تضغط على أعصابه التى تأكلت من نار جسمها النابض بالحياة الفوارة .

استقرت " حلاوتهم " في منزل أبيها وعادت إلى شغل الأجرة مع الأنفار ورفعت راية الحرية فوق رأسها ورأس الجميع .

في نهاية الصيف وفي يوم قائظ بدأ جمع القطن ، عند " الحاج حسن".. " خروع " هو الذى يتولى جمع الأنفار من البلد والبلاد المجاورة ، ومن بينهم " حلاوتهم " التى تؤثر العمل عندهم لغرض ما في نفسها .

زعق " الحاج حسن " على " خروع " آمراً إياه بجعلها في عمل مريح.. مثل سقاية الأنفار .

هز" خروع " رأسه كما لو كان فاهماً لكل شيء ، وضحك ضحكة بلهاء .

بينما " فاطمة " تنتابها (وعكة) بسيطة في بطنها ، ولكن سرعان ما تزول .. ثم ما تلبث أن تعود .. ثم تزول وظلت هكذا فترة ليست بالقليلة .. حتى داهمتها بشدة هذه المرة ، وعلى أثرها نزفت بغزارة وهى تتلوى من شدة الألم في بطنها وعندما علم أبوها .. ترك الأنفار وعاد مسرعاً إلى الدوار .

ذهب " **سعيد** " ليأتى بالدكتور " عزت " الذى نصحهم بالذهاب إلى أقرب مستشفى وهو "مستشفى المركز" .

كان الوقت عصراً وبالرغم من انكسار الشمس قليلاً فإنها كانت شديدة الحرارة والكل يتصبب عرقاً عندما أخذوها متوجهين إلى المستشفى .

وألقى مرض " فاطمة " بظلاله الثقيلة على كاهل أمها التى أصابها الوهن وباتت صحتها في النازل ، و" مستشفى المركز " يقع

على الطريق السريع .. مصر – إسكندرية ، وذلك كى تتمكن من استقبال حوادث هذا الطريق المستمرة وبعد نصف ساعة كانوا قد وصلوا إلى المستشفى .

دلفوا إلى غرفة الاستقبال .. هناك لافتة مكتوب عليها (طوارئ) .

لم يعثروا على ترولى كى يضعوها فوقه .. حملها **سعيد** على كتفه عاقداً يديه أسفل مؤخرتها وهى تتألم والدم ينزف بغزارة من فِيهَا وما بث فيه كل هذه القوة لحملها إلا ألمها الشديد .. وبعد أن اجتاز الردهة الضيقة.. رمقوا غرفة على بابها لافتة مكتوب عليها (استقبال) .وبداخلها تقف ممرضة تعبث في بعض الأشياء داخل دولاب مترب في ركن من الغرفة الكئيبة بدا الاستياء يتملك من " **سعيد** " وهو يسألها عن الطبيب .

برطمت بصوت خفيض :

- يا قاعدين يكفيكو شر الجايين .

ثم قالت :

- معرفش .. شوفه في الاستراحة بتاع الدكاترة .. خلف هذا المبنى .

جذب " الحاج حسن " مقعداً وأراحوا عليه " فاطمة " وخرج " **سعيد**" مسرعاً ليأتى بالدكتور " النوبطجى ".. فلم يجده .. عاد إليهم مسرعاً .. أشاحت عنه بوجه عبوس وقالت دونما اكتراث :

- تلاقيه راح هنا ولا هنا.. انتظروا شوية زمانه جاى .

بدأ الشرر يتطاير من عيني " الحاج حسن " وقال غاضباً :

- إزاى دكتور مسئول هنا يسيب مكانه .. دانا هوديكوا في ستين داهية .

شعرت بالخوف وقالت :

- وأنا مالى "يا حاج" .

هز راسه وزفر ولم يعلق .

وبعد لحظات دخل الطبيب ضاحكاً مع إحدى زميلاته وقال ببرود:

- في إيه " يا حاج " ؟

حدق فيه " الحاج " ثم التفت صوب " فاطمة " القابعة على الكرسى وقال ساخراً :

- مفيش حاجة .. إحنا جايين نتفسح هنا !!

كان جو الغرفة كئيباً وبها ضوء خافت يزيد من حدة كآبتها ، وجدرانها ملطخة بجميع الألوان .. تنبعث منها رائحة كريهة تزكم الأنوف .. شعر الدكتور بالحرج ووضع سماعته في أذنيه وطلب منهم الانتظار خارجاً ، وبعد لحظات خرج عليهم قائلاً :

- لازم نعملها اشعة أولاً علشان نقدر نحدد هيه عندها إيه، ثم أمر المرضة أن تأتى له بالموظف المسئول عن جهاز الأشعة .

ذهبت وعادت عليها دلائل الحيرة وقالت :

- مش موجود في مكانه .

غضب الدكتور وصاح :

- أنا لازم أكتب فيه مذكرة دلوقتى .. وأشار إلى الممرضة:

- هتيلى ورقة وقلم .

شمل " **سعيد** " أباه بنظرة يائسة ثم مد يده تحت إبطه وأخذه وانتحى جانباً وتكلم معه بصوت خافت .. بعدئذ حمل أخته ثانية وتوجه بها خارجاً وأبوه يهرول أمامه .

فتح باب العربة وأجلساها وبجانبها أمها وانطلق " **سعيد** " بالعربة كالبرق في اتجاه القاهرة .

توجه **سعيد** صوب المعادى دون قصد منه .. وبينما هو يسير في شوارعها لمح لافتة مكتوب عليها (مستشفى الحكمة التخصصى) .

توقف " **سعيد** " بالعربة وعلى عجل فتح الباب وهبط يستطلع أمرها .. ارتقى السلالم الرخامية الأمامية ودفع الباب الزجاجى الأسود .. لحظات .. ثم خرج ومعه رجلان بملابس بيضاء يدفعون أمامهم ترولى كالسرير .

كانت هناك بقايا ضوء من الشمس الخافتة بعد الغروب يضفى على وجوههم البائسة قتامة وبعد أن صعدوا السلالم الأمامية .. دلفوا إلى بهو فسيح تتدلى من سقفه ثريا ضخمة معلقة .. تتلألأ في الضوء الزئبقى الزاهى ، وعلى اليمين تجلس فتاة شقراء ينعكس الضوء الأبيض على صفحتها الملساء .. شعرها الأصفر يهتز خلفها كذيل الحصان .. تجلس أمام مكتب كبير عليه لافتة مكتوب عليها (استعلامات) .

وقف " **سعيد** " وأبواه متجمدان ومنبهران بما شاهدوه . .

جاء رجل أنيق شعره لامع ومفروق على جنب .. وطلب منهم الجلوس على " أنتريه " جلد مواجه لمكتب الفتاة الشقراء ، كلامه مصحوب بابتسامة مصطنعة .

اصطحبوا " فاطمة " وولجوا بها إلى داخل مصعد إلى أعلى وأمها ترمقها وهى واضعة إحدى يديها على فمها وبالأخرى منديل صغير ومكور وغارق بدموعها المنهمرة بغزارة من حدقتيها .

نظر " سعيد " وهو يزفر من خلال النافذة الزجاجية إلى الضوء المتسرب من الأعمدة وهو يغمر الشارع باللون الأصفر الباهت .

أتى إليهم الطبيب مبتسماً بعد أن مضت ساعة تقريباً و " فاطمة " معهم .. طمأنهم وهدأ من روعهم .

شخص لهم الحالة بأنها ثقب في الأمعاء وبسببه يأتى النزيف ويعدون الآن لإجراء عملية جراحية ، ذلك بعد إجراء التحاليل والأشعات اللازمة ثم طلب منهم وضع مبلغ تحت الحساب في الخزينة.

وفي الردهة العلوية المجاورة لغرفة العمليات جلسوا ثلاثتهم على " فوتيه " من الجلد الأحمر .. وكان الضوء الأبيض الساطع في الغرفة الساكنة يلوح عندما تخرج الممرضة مسرعة وتعود ماضية .. الصمت كان عميقاً داخل هذه الغرفة .

كان الليل قد انتصف عندما خرج الطبيب وقال :

- الحمد لله العملية نجحت .

وما لبثوا أن رمقوا ابنتهم وهى ممدودة على " الترولى " الذى يمر من أمامهم خاطفة قلوبهم الوجلة .. ثم دلفوا بها إلى غرفة في نهاية الردهة حيث مددوها على السرير الأبيض .

كانت الغرفة مغلفة بالهدوء والضوء الخافت ، ومرتبة بعناية ونظيفة وكل شىء فيها يلمع .

أمرهم الطبيب وشدد بعدم تقديم أى طعام أو شراب لها .

رفعت أمها يديها داعية ومتضرعة .

عندما علم " فرج " بمرضها .. تاه عقله وأخذ يجوب البلد كالضال ويحوم حول " الدوار " عله يرى أحداً يطمئنه .. ثم جال بخاطره أن الجميع معها .. ماعدا الجد " سليمان " و " خروع " .

كان الوقت عصراً عندما توجه مسرعاً إلى الغيط وزعق :

- "خروع".. "خروع " ... التفت إليه خروع وهو يغمغم متضجراً :

- عاوز إيه ده راخر ؟ هوه إحنا في إيه ولا إيه !! ثم رفع نبرة صوته مع إلحاح من " فرج " وقال :

- نعم يا سى " فرج " ؟ عاوز إيه ؟

بدا " فرج " مداعباً كأنه لم يعلم شيئا عما حدث :

- امال " **سعيد** " فين يا عم " خروع " ؟

حدجه متملقاً كما لو أنه شعر أن " فرج " يداهنه وقال :

- كلهم راحوا مصر !!

- مصر ؟

- أيوة عشان الست " بطة " تعبانة شوية وخدوها للحكيم .

- وما تعرفش اسم الحكيم طبعاً يا " خروع " .

شعر " خروع " باهتمام " فرج " الزائد والحيرة التى انتابته والتفت برأسه صوب الأنفار ليطمئن على الشغل موحيا إلى " فرج " بعدم الاكتراث ثم رمق " حلاوتهم " قادمة نحوهم تتبختر وعلى رأسها وعاء كبير به ماء الشرب للأنفار.. علها تتلقط كلمة.. ثم قالت بفضول :

- ازيك يا سى " فرج " .

- أهلاً يا " حلاوتهم " .

قطع فرعا صغيرا من شجرة القطن وهو يغادر المكان وقذف به في الهواء وهو يسمع " حلاوتهم " وهى تداعب " خروع " مستفسرة :

- هو فيه إيه يا واد يا " خروع " ؟

- مفيش .

- امال إيه إلى جاب ده هنا ؟

- ما اعرفشى .. روحى اسأليه .

ضحكت ضحكة بعثرت بها كيان " خروع " المتجمد .

تصنع الانفعال وهو يأمرها بحنية وتراخٍ :

- يلا امال عشان الأنفار عطشانة !!

- عطشانة !!!

التفتت بجسمها المغري صوب الأنفار ومكثت لحظات ثم توجهت نحوهم ، و" خروع " غير متماسك يتابع مؤخرتها في ذهول فاغراً فاه ولم يفق إلا عندما زعق عليه أحد الأنفار .

وبينما يتحرك بجسده الثقيل تعثر في حجر أمامه وانكب على وجهه وسمع الأنفار وهم يضحكون عليه ويغنون :

- العجل وقع هاتوا السكينة .. العجل وقع هاتوا السكينة .

استدارت " حلاوتهم " نحوه فوجدته يلملم نفسه فراحت في ضحكات عالية مجنونة جعلت السائل الأبيض يسيل من أفواههم الفاغرة .

وعندما علم العمدة بمرض " فاطمة " زعق على الخفير وسأله:

- ما شفتش " الحاج حسن " انهاردة يا وله ؟

- لأ يا جناب " العمدة " .
- ولا حد من عيلة " عبد البر " ؟
- لأ يا جناب " العمدة " .
- طب غور.. إمشى .. ولا منك فايدة ولا عايدة .. جتك القرف !!

التقط عباءته وخرج من " الدوار " بعد مغيب الشمس وأمسك عصاه التى لا تفارقه واتجه إلى دوار " الحاج حسن " في مبادرة منه لمؤازرته ، وفي شارع داير الناحية رمق " شحاتة " يجلس على دكة خشب حقيرة أمام دكان "شعبان" البقال، وهو يتبادلون الكلمات ويضحكون .

يقف " شعبان " في الداخل ورأسه وكتفاه إلى الخارج والضوء المنبعث من اللمبة الصغيرة المعلقة في سقف الدكان يتسرب عبر الباب إلى ظلام الشارع الموحش .. يدخن سيجارة يمتزج دخانها بذرات الضوء والغبار وعندما رمق العمدة وهو قادمٌ نحوهم .

همس في أذن " شحاتة " والتفت صوب " العمدة " ثم انتصب واقفاً واستقبله مهللاً ومرحباً برياء .. خرج " شعبان " مسرعاً وبيده مقعد :

- اتفضل يا جناب " العمدة " ارتاح .

كان واقفاً وعصاه بين رجليه ويداه مطبقتان عليها .

نظر للكرسى برهة ثم جلس واعتدل في جلسته .. رمق " الشيخ معتمد " يمرق من أمامه متوجهاً نحو دوار عائلة " عبد البر " دون أن يراه .. زعق عليه :

- يا " شيخ معتمد " .. يا " شيخ معتمد " .. نادى عليه يا وله يا " شعبان " .

تنصت الشيخ لمصدر الصوت في جنح الظلام ثم استدار نحوهم نافراً :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

- واخد في وشك كدة ورايح على فين يا مولانا ؟

نظر إليهم شذراً ثم قال بعد برهة .. كما لو كان يحثهم على فعل شيء مفيد :

- رايح أقضى واجب .

تظاهر العمدة بأنه لا يعلم شيئاً وقال بمكر :

- خير يا مولانا .. هو فيه إيه ؟

- " فاطمة " بنت " الحاج حسن " عيانة .

تظاهر العمدة بالمفاجأة وقال :

- يا ساتر يا رب .. يا ساتر خدنى معاك يا مولانا .. عن إذنكوا يا رجالة .

ومضى معه وبعد خطوات قليلة التفت وراءه زاعقاً :

- ابقى عدى عليا يا " شحاتة " .. عايزك ضروري !!

نظر " شعبان " إلى " شحاتة " متعجباً وحاسداً إياه :

- أيوة يا عم ماشية معاك .. اللى علي علي .. بس خللى بالك الجماعة الكبار دول ماحدش يعرف يجيب قرارهم.

حدق في وجه " شعبان " ثم التفت ببصره صوب الأفق الأسود كما لو كان يتطلع إلى شيء ما في الأعلى .

- ٧ -

كانت " فاطمة " قد أفاقت عندما توجه " **سعيد** " وأبوه إلى القرية وتركا أمها معها حتى يعودا إليها في الصباح ، وعندما هبطا السلم الخارجي .. رمق " الحاج حسن " على بعد خطوات " فرج " وهو يتجول ذهاباً وإياباً أمام المستشفى في ضوء الشارع الأصفر المنبعث من أعمدة الإنارة العالية .

وقف لحظة متعجباً .. زعق عليه .. شعر " **سعيد** " بالحرج ، وعندما أقبل " فرج " كان أيضاً يعتريه الخجل ولكنه سلم عليه بحرارة قائلاً :

- خير يا عم الحاج .. الست فاطمة عاملة إيه ؟

- خير يا فرج والله فيك الخير .. يالا معانا إحنا مروحين.

كاد الليل أن ينتصف و" إجلال " مازالت جالسة مكانها على المقعد الجلد المواجه لسرير " فاطمة " ابنتها .. يتخبطها سلطان النوم .. يهوي برأسها الثقيل ثم ترفعها وجلة فتبصر ابنتها ممددة أمامها على السرير الأبيض .. كان ضوء الغرفة خافتاً ، وضوء الردهة الساطع ينبعث من زجاج الباب الذي فتحته الممرضة ودلفت داخلها .

وقفت لحظات أمام " فاطمة " ترقبها عن كثب ، والأم تتابع ، وعلى وجهها ابتسامة حزينة .

رفرفت جفون " فاطمة " .. أخرجت الممرضة من جيبها مقياس الحرارة ووضعته في فم " فاطمة " .

رفعته في اتجاه الضوء وقرأت الحرارة .. وحركت شفتيها اللامعتين وقالت :

- أحسن كتير يا حاجة .. هي دلوقتى بقت كويسة .. ثم خرجت وعيون" إجلال " تتابع تقاسيم جسمها المذهل ومؤخرتها المحبوكة .

وقبل أن ينقشع الظلام عن القرية كان " حسن عبد البر " وابنه على أهبة الاستعداد للذهاب إلى المستشفى .. استقلا العربة وانطلقا والشمس لازالت قرصاً أحمر يحتضن الأرض في الأفق ، والبخار المائى يتصاعد على صفحة الماء في الترعة الكبيرة .. والنسمات تداعب أعواد الزروع المبللة بقطرات الندى الفضية ، وفي الأفق تسبح الطيور في الفضاء تغدو خماصاً .

دلفا إلى المستشفى ويداخلهما خوف يظهر على ملامحهما المرهقة .

ارتقيا السلم الرخامي الأملس المؤدي إلى غرفة " فاطمة " .

وجدا سريرها خالياً وأمها غير موجودة .. فقدا السيطرة على نفسيهما بعد أن تبادلا النظرات المروعة المليئة بالخوف والترقب حتى سمعا وقع أقدام منتظمة تضرب الأرض وتدنو منهم وإذ بالممرضة تدلف إليهم وتقول واثقة :

- من فضلكم ما تقلقوش .. " فاطمة " تعبت شوية وهي دلوقتى في العناية المركزة .

وعندما أبصرتهم "إجلال" .. أجهشت بالبكاء وهرول إليها "**سعيد**" مستفسراً فقالت :

- جالها نزيف ونقلوها العناية المركزة .

توجه " **سعيد** " لغرفة المدير مستفسراً وعندما رمقه المدير ألقى من يده قلماً كان يعبث به ثم اعتدل في جلسته الرخوة وخلع نظارته ..

وضعها أمامه على المكتب .. تصفح بعض الأوراق التي بها تحاليل وأشعة خاصة بـ " فاطمة " وقال :

- في الحقيقة .. الأشعة أظهرت لنا ثقباً في المصران الغليظ والعملية نجحت ولكن الثقب لم يلتئم تماماً لضمور في الأنسجة . ثم زاغت عيناه وهو يقول :

- إن هنالك أملاً كبيراً .

وبعد نقاش مرير .. قرر الانصياع لكلام المدير وهم يعلمون جيداً أن الأمل بدأ يتلاشى من بين أيديهم ، ولكن لا يوجد سبيل آخر أمامهم .

ترك **سعيد** أبويه وخرج هائماً على وجهه بعد أن حاول تهدئة أمه البائسة .. أومأ برأسه لحارس الأمن القابع على مقعده يحييه .. أحس بلذع الشمس عند هبوطه السلم الأمامي للمستشفى .. وقف يفكر :

- ماذا يمكن أن يحدث ؟ .. هل ستموت " بطة " ؟

بعد لحظات رمق طفلاً لم يتجاوز الثماني السنوات مسرعاً بدراجته ويقطع الشارع في مواجهة سيارة مجنونة صرخت إطاراتها محتكة بالبازلت ، استدارت وصدمت الطفل بمؤخرتها فخر زاحفاً على الأرض وتطايرت أشلاء دراجته في الهواء وهوت مصطدمة بالأرض مهشمة .

وضع " **سعيد** " راحتيه علي وجهه مصعوقاً ثم انطلق مسرعاً صوب الطفل وحمله بين يديه وعاد مسرعاً وهو يزعق ثائراً .. أسرع المسعفون بالترولى .. مددوا عليه الطفل .. " **سعيد** " يراقبهم لاهثاً .. دلفوا به من

باب المستشفى ثم عاد ينقب عن السيارة التي اختفت تماماً .. اتجه صوب حارس الأمن فوجده قد التقط أرقامها وأبلغ الشرطة .

مضت ساعة ثم عاد " **سعيد** " إلى المستشفى وفي أثناء صعوده السلم استوقفه صوت الممرضة وهي تصيح غاضبة :

- هو الولد اللى العربية خبطته ده تبع مين ؟

حدق فيها وعيناه تتوهجان غضباً .. هبط ثانيةً .. قال لها وهو يشعر برغبة شديدة في أن يصفعها على وجهها :

- الولد ده تبعي أنا .

وزعق بعلو صوته :

- يا ناس حرام عليكو !

قالت ببرود :

- طيب من فضلك روح الخزينة !!

تركها وتوجه للخزينة وانهى الأمر.

ارتقى السلم ثانية .. وجد أبويه قابعين أمام غرفة العمليات وهما مقهوران وما هي إلا لحظات حتى خرج الطبيب وهو يخلع القفازات من يديه قائلاً :

- يا جماعة إحنا عملنا كل اللى في وسعنا .. والباقي على ربنا .

رفعت أمها " إجلال " يديها متضرعة وأبوها و" **سعيد** " وقفا كالمأخوذين عندما مرقت " فاطمة " من أمامهم محمولة على "الترولى" متوجهة نحو غرفتها ثانية .. انتابهم إحساس مروع بأن هذه هي النهاية ، هرول الجميع متوجهين إلى غرفتها ملهوفين عليها .

انتحى " سعيد " جانباً " .. شعر بالقهر كما لو كان قد كسر شيء ما بداخله .. ترقرقت عيناه .. حبس انفعالاته المتأججة بداخله وجلس في الردهة على المقعد المواجه لغرفة " فاطمة " .. لحظات .. ثم سمع الممرضة تصيح لتخبره بأن " الولد " حالته جيدة وأمه تريد أن تشكره والشرطة تريد أن تسأله بعض الأسئلة .. اعترت ملامحه ابتسامة ممزوجة بالحزن وهبط معها السلم ليكتشف أن هذا الولد يتيم .

كان الوقت عصراً عندما أفاقت " فاطمة " .

تعليمات الأطباء مشددة بعدم تناولها أى طعام أو شراب وأنها ستعيش فترة طويلة على المحاليل .. شعروا بأن الأمل في شفائها بدأ يتجدد عندما رمقوا " فاطمة " وهي تبتسم ابتسامة فيها كل مفاتن الحياة .

دلف إليهم " فرج " و" الشيخ معتمد " .. استقبلهم " الحاج حسن " مرحباً .. جلسوا وكان " فرج " ممسكاً في يديه كيساً وضعه بجانب السرير الذي ترقد عليه " فاطمة " وهى تتضور جوعاً .. كان بداخله لفائف من الطعام لم يجد " فرج " فرصة ليسد بها رمقه .. عندما دخل الطبيب . طلب منهم الخروج لتستريح المريضة .

انتقلوا جميعاً .. تركوا " فاطمة " وحدها وهى تشعر بالنشوة بعد أن رأت " فرج " ، في هذه اللحظة بالذات كان قد بلغ الجوع مداه بها وإذا بها تتحسس الكيس الذي خلفه "فرج" دون قصد بجانب سريرها .

التقطته والتهمت ما فيه ، وهي لا تعلم أنها ممنوعة من الطعام .. وبعد مرور يومين بدأ الأطباء يلاحظون تحسن حالتها .. بعد أن

كانوا قد فقدوا الأمل في شفائها وعلى الفور قاموا بإجراء " أشعات " عليها ليكتشفوا أن قشور " الطماطم " الموجودة في الطعام الذي أكلته " فاطمة " قد سدت مكان الثقب وتجددت الأنسجة ثانية على هذه القشور.

امتلأ دوار الحاج " حسن عبد البر " بأهل البلد مهنئين بخروج " فاطمة " من المستشفى بالسلامة ، وأكثر الفرحين كان " فرج " الذي اتخذه القدر سبيلاً لخلاص هذه العائلة من النكبات .

أمر " الحاج حسن " بذبح ثلاثة عجول لإطعام كل فقراء القرية، و" حلاوتهم " منهمكة معهم في تجهيز الطعام .. خرجت الصوانى في الجرن الواسع أمام الدوار مرصوصا عليها (الهُبر والفتة) .. تتسابق إليهما الأيادي .

❖ ❖ ❖

كان يوما عاصفا ومتربا وضوء النهار أصفر مليئا بالغبار الخانق عندما دخل " مـيلص " الغرفة الكئيبة المليئة بضجة النزلاء التي لا تخمد ومضاءة بلمبة صغيرة تتأرجح في سقفها .. يرقبها عن كثب أحد النزلاء وهو يهز رأسه معها ذهاباً وإياباً .

وكان هذا بعد أن أمسكوا به من العربة التي كان يستقلها مع " سعيد ".

وقف " مـيلص " وسط رفقائه بشعره المنكوش وحدقتيه المتسعتين وحركاته الخاطفة التي تثير الخوف .. يضحك فجأة ثم يصمت فجأة .. هاج عليهم صائحاً :

- انا مش فاشل يا كلاب .. دا أنا الدكتور " ميلص " .. مش مصدقين ؟

و أشار إلى أحدهم كان يجلس فاغراً فاه مرتدياً سترته بالمقلوب.

على الفور هرول إليه .. زعق " ميلص " وهو يشير بإصبعه لأسفل :

- ارقد أما أكشف عليك !!

بسرعة استلقى على ظهره .

سحب " ميلص " مقعداً وجلس مواجهاً له ثم رفع عنه سترته كاشفاً بطنه .. أخذ يتحسسها ويجس في جنبيه بحرفية ثم امسك مرفقه يقيس له النبض حينما رمقه ممرض طويل البنية وشرس .

توجه الممرض على الفور إلى الدكتور ليخبره بما رأى من فعل " ميلص " .. امر الدكتور بإحضاره ، وعندما رفض ميلص الامتثال .. حمله الممرض على كتفه كالطفل وهو يصيح :

- سيبونى يا حَوَش !!

وعندما دلف به الممرض إلى داخل الغرفة ألقاه على الأرض والطبيب يرمقه من خلف النظارة السميكة بعيون باهته وزائغة ويتلفت حوله كما لو كان يهاب من أحد سيباغته بضربة ما من أى اتجاه !!

انتصب " ميلص " واقفاً .. لملم أشتاته .. أخذ يمعن النظر في الطبيب ثم قال باستعلاء :

- هوة أنت مش عارف إن أنا دكتور .. يا دكتور ؟

- طبعاً عارف .. أنا بس عاوز أطمئن عليك !!

- لأ .. أنت فاكرني فاشل !!

- لا يا راجل مين بس قال عليك فاشل ؟

انتفخت أوداج " ميلص " واتسعت حدقتاه وشد شعره بقوة وقال :

- أبويا .. كان على طول يقولي يا فاشل .. مع إني دكتور .

ثم التفت نحو المرض المذهول وحدق فيه وسأله قائلاً :

- مش أنا دكتور يا فحل ؟

- أيوة طبعاً !!

اغرورقت عيناه بالدموع وأردف :

- أبويا شغال جزار .. وعلشان ما كنتش بساعده في الشغل .. كان دايماً يشتمني ويقولي : يا فاشل تعالى قطع معايا في لحم البهايم بدل ما أنت عاوز تقطع في لحم الناس .. لحم البهايم غالي لكن لحم الناس رخيص .. ومراتي الملعونة بلغت فيا واعتبروني خطر على الناس .

تأثر الطبيب من حكاية " ميلص " وأمر بعودته إلى عنبره ثانية.

أطبق المرض على معصم ميلص بقوة .. جذبه خارج غرفة المدير متوجهين نحو العنبر عبر الردهة المؤدية إليه ، و " ميلص " يجوب ببصره المكان ويتفحصه بحثاً عن مكان آخر يحاول منه الإفلات هرباً .

انتصف الليل و" ميلص " لايزال مستلقياً على سريره يحملق في سقف العنبر ، ورفقاؤه يغطون في نومهم العميق .. يخرج من حناجرهم أصوات متقطعة .. صفير ، وشخير ونقيق وفحيح .

مشى على أطراف أصابعه .. رمق الحراس قابعين .. رءوسهم ملقاة على صدورهم .. يسبحون في الأحلام .

هبط درجات السلم بعد أن خرج من الردهة .

تسلل بين شجيرات الحديقة قاصداً الأماكن المعتمة حتى وصل إلى " السور " المتوارى خلف الأشجار .. تسلقه زاحفاً على بطنه حتى آخره .. أطل برأسه ناحية البوابة الخارجية .. رمق الحراس يتبادلون السجائر ويضحكون من أفعال المجانين .. سكن مكانه قليلاً حتى واتته الفرصة .. قفز من أعلى السور الذى يمتطيه منكباً على وجهه وسط كومة قش بجوار صندوق القمامة .. شعر الحارس بصوت ما قد صدر منبعثاً من هذه الناحية .. توجه نحوه .. رمق قطة تسعى تنقب عن رزقها في صندوق القمامة .. هز رأسه ورجع .

انتظر " ميلص " ساكناً لحظات ثم أطلق ساقيه للريح بطريقة آليه ليدرك أنه في موقف السيارات الخاص " **بالبجامون** " .

وعندما توجه " فرج " صوب " ورشته " في مدخل البلد رمق " ميلص" جالساً أمامها على جزع شجرة وبيده " باذنجانة " سوداء يقضمها .

حدق فيه " فرج " عن كثب وهو حذر ، ولايزال " ميلص " يقضم ما في يده دونما اكتراث حتى استقر " فرج " أمامه مرتاباً في أمره .

زاغت عينا " ميلص " وبدت عليه علامات الخوف وتقلص جسده النحيل على جزع الشجرة البني المغطى بالحراشيف .. كانت الشمس تتأهب للمغيب مخلفة وراءها قطعاً حمراء تلهب سماء القرية ..

رفع " فرج " يده مرحباً بحذر :

- أهلاً يا اخ .

استدار " مـيلص " وهو لا يزال منكمشاً وبيده قشرة الباذنجانة .. عيونه زائغة وخائفاً :

- أهلاً يا أخويا .. عاوز حاجة ؟

شعر " فرج " أنه خائف وغير طبيعى :

- أنت اسمك إيه ؟

بدا متردداً وقال :

- جميل !!

شك " فرج " في أمره وتملكه القلق وشعر أنه يكذب عليه وقال ساخراً :

- جميل ؟ مش باين !!

تملك الغضب من " ميلص " وغمره الانفعال وقال :

- أيوة يا خويا جميل .. مش عاجبك .. ولا عشان منظرى؟
أنا ما بحبش المظاهر !!

- إنت منين يا سى جميل ؟

- وإنت مالك .

قرر " فرج " أن يستفزه ليكتشف أمره جلياً .. وقال :

- إنت لازم حرامى .. شكلك كدة مش عاجبنى !!

انتصب " مـيلص " واقفاً بهدوء وبدا واثقاً من نفسه وقال وعلى وجهه ابتسامة ساخرة :

- وإنت يا مقشف حيلتك إيه يتسرق ؟

شعر " فرج " بأنه يباريه بنفس الطريقة الاستفزازية فتمالك نفسه وقال بهدوء مشيراً بأصبعه صوب الورشة :

- الورشة دى بتاعتى .

التفت نحوها " ميلاد " ثم أشاح عنه بوجه عبوس وقال :

- ودى هسرق منها إيه يعنى ؟ .. روح يا عم الله يسهلك.

تملك الغضب من فرج وقال بانفعال:

- انا هبلغ عنك النقطة وهما يشوفوا حكايتك إيه ؟

استوقفه " ميلاد " يستعطفه :

- نقطة إيه بس يا أخى ؟

وأردف بذكاء شديد :

- اعزمنى بس على " كباية شاى " وأنا أحكيلك على كل حاجة .

فكر " فرج " لحظة ثم وافق على طلبه واتجها معاً صوب الورشة .. وزعق على الصبى " عراقيب " .. وأمره بإحضار مقعدين وعمل كوبين من الشاى .

وقام " ميلاد " بسرد حكايته مختزلاً الجزء الخاص بمستشفى الأمراض العقلية .. رق له قلب فرج وقال :

- أنت ضيفى إلى أن يأذن الله ونرى ما سيحدث .

شعر " ميلاد " وتملكه إحساس قوى بشهامة ونبل هذا الرجل وتوجه بصحبته إلى حيث يسكن .

بعد تكاثف الظلام على القرية استأذن الزوار والمهنئون بخروج "فاطمة " من المستشفى بالسلامة واحداً تلو الآخر ، والجد " سليمان "

تعلـو وجهـه المعـروق ابتسـامة طبيعيـة ويغمـره الرضـا وهـو قـابع علـى الدكة المواجهة لباب " الدوار " العتيق .

يراقـب النـاس وهـم يخرجـون ويلقـون عليـه التحيـة .. مـنهم مـن ينتحـى صـوبه ويقبـل رأسـه الملفـوف بالشـال الأبـيض .. ومـنهم مـن ينحنى على يده النحيلة المسنودة على طـرف الدكـة يقبلـها ويخـرج .. ولم يتبق سوى " خروع " الذى كان مشغولاً بترتيب المكان كما كان من قبل .. ثم توجه هو الآخر إلى غرفته المجاورة لمخزن الغلال ، وعلى عجـل توجـه " الحـاج حسـن " تغمـره نشـوة المحسـن الـذى يغـدق علـى الفقير .

صاح الجد " سليمان " :

- يا " سعيد "
- أيوة يا جدى .
- تعالى يابنى دخلنى أوضتى .
- حاضر يا جدى .
- هوه عمك " همام " رجع من الحرب ولا لسة ؟
- لسة يا جدى !!!
- اتأخر قوى يابنى .. ربنا يستر .

استلقى الجد على سريره لاهثاً وهو لايزال يردد .. ربنا يستر .. و" سعيد " يرقبه متألماً وبعد أن دثره بعناية خرج يجرجر قدميه نحو الردهـة المؤديـة للصـالة الكـبيرة ووقـف برهـة أمـام صـورة جـده الكبيرة المعلقة على الحائط يحملق فيها على شباب قد ولى وراح .

كان الضوء الأبيض يغمر أرجاء الدوار العتيق مخلفاً وراءه ظلالاً كالأشباح قد بثت قشعريرة سرت في جسد " **سعيد** " المنهك وهو يتوجه صوب غرفته .

ارتقى السلم الخشبى المزين بالأرابسك .. دلف من الباب قاصداً سريره .. اعتلاه مستلقياً على ظهرة ويداه متشابكتان تحت رأسه الذى يغوص في الوسادة البيضاء وبصره مغروس في سقف الغرفة شارد الذهن .

ظل هكذا فترة ليست قصيرة كمن يرزح تحت عبء شيء ما يثقل كاهله ، وصورة منى لا تكاد تفارقه لحظة .. دائماً يراها بداخله ويراها على الأشياء من حوله .

اعتراه الاكتئاب فجأة واستولى عليه الخوف شعر بقشعريرة تهزه وتعصف به .. نهض واعتدل عاقداً يديه حول ركبتيه ثم انتصب واقفاً وأشعل سيجارة اختلط دخانها بذرات الغبار العالقة بشعاع الضوء المتسرب من النافذة المطلة على(غيط الكرنب) .

أشاح بوجهه نافثاً زفرات كلهيب الجمر خرجت من أحشائه المحترقة .. فتح النافذة وأطل برأسه من إطارها .. كان الجو مضبباً عندما قذف ببصره في الأفق المترامى وهو ينفث دخان سيجارته الذى امتزج بالنسيم الذى لفح وجهه المحترق .

ظل واقفاً لحظات ورأسه تطل خارج النافذة .. هبط ببصره على (غيط الكرنب) المختفى تحت الضباب الهابط بكثافة .. أمعن النظر واتسعت حدقتاه عندما خيل إليه أن (غيط الكرنب) مرصوص برءوس

الشياطين وأشعة الضوء المتسربة من الفضاء على أوراقه الملفوفة اللامعة تجعل هذه الرءوس كما لو كانت تتحرك وتتراقص .

تملك " **سعيد** " التوتر وهو يغلق النافذة ويسدل عليها الستارة ثم أطفأ السيجارة ، وعندما شرع في النوم ظن بأنه يستمع إلى همهمات غريبة تصدر من ناحية (غيط الكرنب) الذى تطاولت أعناقه وصارت كأعناق الابل .

صر أذنيه وأرهف السمع ثم اغمض عينيه عندما تجمعت الطيور الجائعة على قمم الأشجار المحيطة بـ (غيط الكرنب) في انتظار الفتات الذى يتبقى لها من الفرائس التى تستولى عليها الذئاب .

ودائماً ما يحدث هذا في الليالى الحالكة السواد .. تأتى الذئاب بفرائسها تجهز عليها لا تبقي منها على شىء .

تحوم حولها الطيور الجائعة .. راجية أن تخلف شيئاً منها حتى ولو بقايا محشورة بين أسنانها كما يحدث مع التماسيح .

وعندما تدنو من وليمتها تنهرها الذئاب وتهشها بعيداً .

ظل هذا يحدث حتى لاح في الأفق " صقرٌ " قد ضاق ذرعاً بما يحدث أمامه .. قرر مشاركتها الطعام .. أخذ هذا الصقر ينتظر قدوم الذئاب إلى (غيط الكرنب) وهو يتربص بها أعلى شجرة التوت على رأس " الغيط " حتى وصلت الذئاب ومعها الخراف والماعز المسلوبة من أهل البلد .. وبينما هو يرقبها رمق خمسة ذئاب تجرجر الضحايا من رقابها متخللة بها بهم الأشجار الكثيفة المحيطة .. ثم هبطت بها إلى (غيط الكرنب) وتوسطته ، كان في استقبالها الشياطين تحدق بعيونها الملتهبة وتتمايل أعناقها فرحة بالحق المسلوب .. يراقبها " الصقر "

الذى يتضور جوعاً .. ويتحين الفرصة المناسبة لينقض عليها ليقتنص ما يسد به رمقه .

شقت الذئاب بطون فرائسها وبدأت الحفل .. تمزيق والتهام قطعة تلو الأخرى .. رمق " الصقر " الجائع " معزة عجفاء " على جانب الحفل الملتهب خلفتها الذئاب سهواً .. انقض مطبقاً بمخالبه عليها ثم حلق بها عالياً والذئاب تبصره مكتوفة ومبهوتة من هول المفاجأة حتى توارى عن أنظارها .

انطلقت الطيور فزعة وهي تتابع الموقف عن كثب لعلها تحصل من " الصقر " على شيء ما يسكت ثورة بطونها العارمة .

اختفت كل الأشياء في (غيط الكرنب) .. تسللت الذئاب وهى تُضمر الانتقام من هذا " الصقر " .. اللص .. المختطف .. الجبان.

وبما أنه لص ومختطف وجبان فلابد أن يُحَاكَم .. ولكى يُحَاكَم لابد أن يُقبض عليه أولاً .. بعدها تأخذ العدالة مجراها وصولاً لإعدام أمثال هؤلاء اللصوص ، ولكى تتمكن من القبض عليه وضعت خطة .. وهى نصب كمين محكم يقع فيه هذا الصقر الملعون الذى عكر عليها صفو حفلها .

وبعد مرور ثلاث ليال كررت فعلتها التى دأبت عليها.. خلفت له معزاه العجفاء قصداً .. ظن أنها ضالته المنشودة .. انقض عليها ولكن هذه المرة كان في انتظاره ثعبان ضخم طوق رأس الشيطان بذيله وتدلى بطوله الثقيل لأسفل وعيناه الحادتان تجوبان (غيط الكرنب) وعندما رمقه " الصقر " ظن انه فرع مدلى من الشجرة العجوز .. أقبل كى يطبق بمخالبه على " المعزة العجفاء " وكاد أن يهم بها لولا أن

ذلك الثعبان تسلل والتف حول عنقه وجذبه لأعلى فهوت المعزة من مخالبه فالتهمتها الذئاب القابعة في جلسة الحكم رافعة يديها وهى تتابع " محاكمة طير البر " .. عندئذ شعر " الصقر " الجائع بأنه وقع في فخ طوقته الذئاب وهو معلق يرزح تحت نير سلطانها الطاغى يتأرجح في حبل المشنقة .

أطلقت الذئاب عواءها في الأرض البراح فرحة بأن اللص قد أخذ ما يستحق من عقاب ، وفي غمرة فرحها لاح لها رجل ملثم بيده عصا سحرية .. هش بها عليها فاختفت تماماً ثم أشار بعصاه صوب الثعبان فالتقمته وسقط " الصقر " على الأرض جريحاً .. توجه الرجل الملثم وأخذه .

شعر " **سعيد** " بأنه يعرف هذا الرجل الملثم .. دنا منه .. نظر إليه الملثم بحنو ثم أعطاه الصقر .. مد يده على اللثام ونزعه فاكتشف أن الرجل الملثم هو صديقه " فرج " .. اختلط معه الحلم بالحقيقة عندما ترامت ابتهالات الفجر إلى مسامعه .. تملكه الذهول وهو يتقلب على جنبيه يعد نفسه للنهوض كى يصلى الفجر .

وفي الصباح بدا على " الحاج حسن " الاستياء لأن " خروع " قد أبلغه بأن " شحاتة " قد ترك الطاحونة .. تولع على راس أصحابها " وهذا ما سمعه " خروع " من " شحاتة " بالحرف .

سمع " **سعيد** " هذا الكلام .. تمكله الذهول وقال :

- صحيح إذا أكرمت اللئيم تمرد !!

مستنكرا هذا الأمر ممن يظنه صديقه .

وأردف :

- انا لازم أكلمه وأشوفه هوه بيعمل كدة ليه ؟

رد عليه "خروع " بنبرة ساخرة بلهاء وقال :

- متشغلش بالك يا " سي **سعيد** " .. هو مش هايسمع كلامك .. لأنه شكله كدة وقع على قرشين متعرفش منين ، وحاله اتغير وبقى نتن .

تملكته الدهشة وهو ينصت إلى " خروع " وكانت بيده بيضة مسلوقة انتهى من تقشيرها .. التهمها بغضب ثم نهض قبل أن يتم فطوره وخرج متوجهاً نحو " فرج " الذي وجده مازال يغط في نوم عميق .. وقف واجماً عندما وقع بصره على شخص آخر مستلق على ظهره فوق الكنبة الموجودة أسفل نافذة الغرفة .. يضع يده النحيلة على جبهته ويخفي بها عينيه من الضوء الذي غمر الغرفة.

قام " **سعيد** " بافتعال زوبعة لإيقاظهما وعلى إثرها استيقظ "ميلص" فزعاً .

أصاب الذهول كليهما ، ولم يوقظ " فرج " من نومه العميق إلا إناء الماء على المنضدة التي تتوسط الغرفة .

وبعد أن أصبحا في تمام يقظتهما .. استفسر منهما " **سعيد** " عما يدور في خلده . وهي حكاية " ميلص " .

أخذهم وتوجهوا ثلاثتهم إلى المقهى .. أمر النادل أن يحضر لهم شاياً .. قاطعه " ميلص " مداعباً وقال :

- انا عاوز افطر الأول !!

ضحك " **سعيد** " وأمر بإحضار إفطار لكليهما .

كان الوقت ضحى والسماء صافية زرقاء وضوء الشمس الساطع يغمر البلد ، وظل الأشجار الباسقة يفترش الأرض ويظلل " المقهى " ويغمر الجالسين .

أراد " **سعيد** " أن يحكي لـ " فرج " عن الحلم الذي رآه .. لأن أن " فرج " كان هو ذاك الرجل الملثم الذي ظهر له وأنقذ الصقر من الذئاب.

استهوى " ميلص " هذا الحلم الغريب .. شك في حالة" **سعيد** " النفسية لزعمه انه طبيب ولكن مع إيقاف التنفيذ ولا أحد يعلم بأمره .. لم يكن " ميلص " بالنسبة إلى " **سعيد** " أكثر من مجرد إنسان مشكوك في قواه العقلية وينوي " **سعيد** " أن يحفظ عليه سره .. وبالنسبة إلى " فرج " لم يكن " ميلص " سوى شاب فقير سعى إليهم من مكان ما على الأرض منقباً عن لقمة العيش .

وفي أثناء ذلك الحوار المكتوم دار بخلد " **سعيد** " أن يجرب " ميلص " في العمل بالطاحونة عله يغنيهم عن تمرد " شحاتة " .. إذن فليجربه .. لكن بعد تدريبه .

قام بعرض الموضوع عليه مما أدخل السرور على قلب " فرج " الذي زاد إعجابه بتصرف " **سعيد** " .. وبعدما أبدى " ميلص " موافقته توجوا ثلاثتهم نحو الطاحونة الصامتة التي سكنتها الطيور والخفافيش .

دلفوا إليها من الباب الخلفي المؤدي إلى ماكينات التشغيل والكتل الحديدية السوداء المطلية بالقار ورائحة الوقود الجاف تزكم أنوفهم .

بدا " ميلص " مقبوضاً .. شعر به " **سعيد** " .. هدأ من روعه وبدأ يشرح له كيفية تشغيلها وتوقيفها وطرق صيانتها ، وأن هناك من

سيساعدونه أيضاً على الشغل وتدريبه على كل ما يتعلق بها .. وزعق على العمال الذين ينتظرونهم ، وعده أحدهم بأنها مجرد ساعة واحدة وستشتغل " الطاحونة " وفي خلال أسبوع سيكون " ميلص " قد علم بكل شيء عنها .. وبعد أن انتهوا أخذه " **سعيد** " وتوجهوا نحو غرفة تقع خلف الطاحونة تصلح للإقامة ، وفي أثناء ذلك قد تأكد من أن " ميلص " رجل مرهف الحس علاوة على خفة دمه وامتلاكه لروح الدعابة والمرح .. لذلك قرر " **سعيد** " أن يحل " ميلص " محل " شحاتة " ريثما يتأكد من شفائه تماماً .. ابتسم " ميلص " راضيا عندما رأى في الغرفة ذات الجدران الباهتة والجير المقشور " سريرا سفريا " ومنضدة صغيرة ومقعدين أحدهما رجله مكسورة ، وهذه الغرفة لها نافذة بحرية وباب عتيق محكم ولا ينقصها سوى إزالة الأتربة والغبار حتى تصلح للسكنى .

اطمأن " **سعيد** " عندما شعر برد الفعل الإيجابي الذي أبداه "ميلص" تملكه شعور بأن هذا الرجل ليس مجنوناً وإنما وراءه حكاية كبيرة لابد من معرفتها عندما يحين الوقت لذلك ، و" فرج " مجرد متابع لما يحدث ، وبعد انتهائهم .. استأذن متوجهاً صوب ورشته وهو راضٍ تماماً .

- ٨ -

تركه " **سعيد** " مع العمال " الطاحونة " وتوجه إلى "الدوار" عبر شارع " داير الناحية " التي تقع الطاحونة في آخره من الناحية البحرية " **للبجامون** " وهذا الشارع يمر أيضاً بدوار العمدة وبدار الشيخ "معتمد " إمام الجامع الكبير ، وعندما دنا من دوار العمدة رمق أباه جالساً على الدكة المواجهة للباب الرئيسي للدوار ، ويجواره " الشيخ معتمد " وفي المقعد المواجه يجلس العمدة وشيخ الخفر وأحد الخفر واقفاً كالزنهار أسفل الدرج للحراسة.

لاحظ احتدام المناقشة بين " أبيه "و" العمدة " .. دنا أكثر .. وقف بجانب " الخفير" . أرهف أذنيه .. وجد اللهجة مفعمة بالتوعد والاتهامات المتبادلة بين أبيه والعمدة " السباعي صالح "، و" الشيخ معتمد " يحاول تهدئة الطرفين ولكنه لا يقوى .. قرر " **سعيد** " اقتحام المجلس فجأة بعد أن وقف على ماهيته .. بيد أنه سمع العمدة يقول متوعداً بنبرة ملؤها السخرية :

- ابقي وريني حاتعرف تشغل " الطاحونة " إزاي يا حاج " حسن " ؟

عنئذ تأكد أن " السباعي صالح " وراء تمرد " شحاتة " عليه، وتأكد لـ " **سعيد** " أن " العمدة " هذا رجل مقيت لا يصلح أن يدير شئون قرية كبيرة مثل " **البجامون** " ، وكان تصرفه ملهماً عندما أدركه وهو مستاء من هذا المقيت وقال مباهياً :

- الطاحونة اشتغلت وخلاص يا حضرة العمدة !!

التفت نحوه " السباعي صالح " ببلاهة واستهزاء وقال ويده على أذنه يصرها :

- امال فين صوتها ؟ آه .. لازم اتبخر في الهوا !!

شعر الحاج " حسن " أن كلام ابنه " **سعيد** " هو مجرد حماس شباب ليكبح به جماح العمدة ويكسر به جبروته .. لكن " **سعيد** " التفت نحو أبيه مؤكداً وقال :

- ساعة واحدة وهاتسمع صوتها بيدوي في البلد كلها .

وفي هذه الأثناء كان " مـيلص " يعافر في محاولات مريرة مع العمال لتشغيل الطاحونة حتى نطقت وخرج صوتها على شكل " طقطقة " مدوية كسرت سكون " **البجامون** " العميق .

حينئذ توجه نحوها النسوة يحملن أجولة الغلال ، وعندما سمع " السباعي صالح" (طقطقتها) تملكه الإحباط .

انفرجت أسارير " الحاج حسن " و" الشيخ معتمد " .. بدا راضياً ، ونهض الحاج "حسن " واقفاً وقال متهكماً :

- بالإذن يا عمدة .. ولمصلحتك .. متقفش في طريقي !!

عندئذ شعر العمدة " السباعي صالح " بأن نار الحقد صرخت في أحشائه ، وبعد لحظات تبعهم " الشيخ معتمد " متوجهاً نحو داره يتوكأ على عصاه .

مشى " الحاج حسن " وبجانبه ابنه تغمرهم نشوة الانتصار ، علاوة على تباهي الحاج وخيلائه بابنه " **سعيد** " الذي أضحى رجلاً تتحدث البلد كلها عن شهامته ومساعدته لهم بلا أي مقابل .. وهو في

الحقيقة عكس أبيه الذي يعمل الخير ليشتري به هيبة وكبرياء ، مما جعل أكثرهم مداهنين له وذلك لحبه الشديد لهذه المداهنة .

كانت الشمس قد مالت للغروب وظلال الجدران الصامتة تفرش شارع " داير الناحية " عندما رمق " **سعيد** " دار " شنشانة " التي يخيفون بها الأطفال في البلد وباتت مضرب الأمثال عندهم .

ولفتت نظره وهي تطل برأسها من " النافذة الواطية " وتلف رأسها " بطرحة تلي " سوداء عليها رباط أسود تشد به رأسها .. تبرز بياض وجهها المعروق ويخرج من هذا الوجه عينان ثاقبتان وتتدلى على صفحته خصلة شعر بيضاء مشربة بالصفرة وترتكز بمرفقيها على خشب إطار النافذة المتآكل وكفاها متشابكتان ينفر منهما عروق زرقاء تمتد إلى أناملها المعوجة .

حدقت في " **سعيد** " بنظرة ثاقبة وابتسمت فكشفت عن فمها الخالي من الأسنان ، أوجس " **سعيد** " منها خيفة .. ولكنه بادلها بابتسامة كأنه يبادلها التحية وتابع سيره مع أبيه وهو يتلفت خلفه نحو دارها التي تغوص في الأرض وتكاد تلمس إطار النافذة الضيقة والباب الخشبي الضخم المدفون و " شنشانة " ما زالت تتابعه والابتسامة عالقة على وجهها النحيل .

ابتسم " الحاج " وقرر ان يشرح لابنه قصتها ظناً منه بأن هذا تاريخ بلد ، وتقمص شخصية مدرس التاريخ وقال :

- " شنشانة " دي كان عندها ولدين .. واحد كان في الحرب مع عمك " همام" وحصله زي ما حصل لعمك .. محدش يعرف عنه حاجة ، والتاني خد في وشه وساب

البلد ، وسامعين إنه بقى حاجة كبيرة قوى ـ في مصر .

واستطرد قائلاً :

- لعلمك كانت ـ في شبابها ست عايقة ، وكانوا عايشين ـ في القصر اللي ـ في مدخل البلد على السكة الزراعية .

قاطعه " **سعيد** " :

- قصر " شنشانة " ؟

- أيوه .. قبل ما يخرب وتسكنه الوطاويط ، ولما مات جوزها كان ابنها الثاني لسه صغير.

وصمت قليلاً ثم أردف :

- العمدة طمع فيها وحاربها كثير .. بس هي كانت بميت راجل .. كان عاوز يتجوزها بس هي طردته .. وفجأة لقيته عامل ورق مسجل بالقصر والأرض وجاب الحكومة واستلم كل حاجة وطرد " شنشانة " وابنها الصغير إللي ماقدرش يتحمل الصدمة وخد ـ في وشه وطفش ، وجدك " سليمان " هو اللي سكنها ـ في الدار اللي هي قاعدة فيها دلوقتي والغريب إن ابنها جالها عشان يخدها معاه مصر بعد ما ذل العمدة ورجع كل اللي خده تاني بس .. هي مارضيتش .

عندئذ تذكر " **سعيد** " عندما أنقذ " منى " من براثن خاطفيها .. وكانوا ـ في البيت المهجور الذي يطلقون عليه أحياناً " قصر شنشانة " وحاول الربط بين ابن " شنشانة " وهذا القصر المهجور بيد أن ابن "

شنشانة " قد قام بكسر جبروت العمدة واستعاد ما سرقه منهم .. كانا قد وصلا إلى الدوار .. جلسا تحت التكعيبة .

ركن الحاج عصاه بجانبه وقال :

- أختك " فاطمة " جالها عريس .

شعر " **سعيد** " بحالة من عدم الاتزان وتبادر إلى ذهنه أن هذا العريس ربما يكون " فرج " ، أو من الجائز أن يكون قد أرسل أحدا ما خاطباً " لبطة " ولكنه سرعان ما راجع نفسه يحدثها :

- دون علمي ؟ لا أظن !!

التفت إلى أبيه وسأله مستفسراً :

- مين هو ده العريس يا " حاج " ؟

تناول الحاج عصاه العاجية المركونة بجانبه وأطبق عليها براحتيه واضعاً إياها بين رجليه وبدا أنه يعلم بما يدور في خلد ابنه.

اضطجع على مسند الدكة وقال :

- ابن تاجر كبير .. وأبوه صاحبي من زمان .

طأطأ " **سعيد** " رأسه :

- بس لازم يا حاج ناخد رأيها الأول ونخليها تشوف العريس .

تغيرت ملامح الحاج وتملكه الغضب ، لكنه تمالك نفسه وقال بهدوء :

- إحنا ما عندناش بنات تكسر كلامنا .. فاهم ؟

عندئذ بدأت المناحة في دوار عائلة " عبد البر " .

وعندما علم " فرج " بهذا الخبر المشئوم تملكه الشطط وبدت عليه دلائل الحيرة والجزع وبات كالمكتوف .

شعر أن حياته قد منيت بالفشل ، و "**سعيد**" هو الإنسان الوحيد الذي يؤازره .. بيد أنه قد صدر فرمان من " الحاج " بعدم خروج " بطة " من الدوار.

كانت الصدمة مؤلمة .. أضحت " فاطمة " واجمة وضيقة الصدر.. وبدأ لونها في الشحوب وعودها في الذبول وصار عندها رغبة مفرطة في التخلص من حياتها التي باتت كابوساً ملازماً لها.

لاحظ " الحاج " ذلك وقلبه يقطر دماً ولكن كبرياءه كانت هي العقبة ، ثم ما لبث أن بدا متردداً بعد أن قامت زوجته " إجلال " بضغط مكثف عليه مستغلة حبه الشديد لـ " بطة " .. فلم يجد مفراً من أن يقبل بـ " فرج " عريساً لابنته .

اقام لهم عرساً لم يشهد أحد مثله ، وحضره المحافظ والمأمور وعلية القوم وتمنى لهما السعادة وراحة البال .

لم يبق أمام " الحاج حسن " سوى " حلاوتهم " وقد حان وقتها .. بعدما أخذت لبه .. مما جعله يشرع في اقتناصها بأسرع وقت .

لاحظ " الحاج حسن " أن " شحاتة " الذي سار على علاقة قوية " بالعمدة " من ناحية ، و " حشاف " من ناحية أخرى ، وقد اشترى بيتاً جديداً وركب سيارة .

ظل يلهث وراء " حلاوتهم " مطلقته ويغار عليها من أي أحد يرمقها تكلمه أو حتى تومئ إليه .. بيد أنها عاشت في البلد إغراءً مستغلة سلاح فتنتها الفتاك التي تعرف قدر سلطانه .. كانت لها طريقة معينة في التلفت حولها بعيون جريئة تلهب خيال الرجال ، ودائماً ما تشعر بسحرها وفتنتها وهي تتبادل النظرات مع الآخرين

لإشباع رغبة سلطان الجمال الذي يقودها إلى المجهول الذي ينتظرها .. بيد أنها في أثناء لقائها مع الحاج " حسن " الذي يشتهيها بكل جوارحه والغيرة تأكل قلب " شحاتة " عندما يرى العيون وهي تلتهمها وأضحى على شفا الجنون المطبق والولع الشديد بها مؤنباً نفسه :

- كيف فرط فيها بهذه السهولة ؟

وهي قد شعرت بالنيران التي يصطلي بها " الحاج " بعد أن نجحت في تفجير مشاعره وأحاسيسه المتبلدة التي أضحت نابضة من جديد .. لذلك ركزت عليه سلطانها الطاغي طمعاً في العز والجاه ، و" الحاج " بدوره سلم كل مشاعره الملتهبة لهذا السلطان القادم بقوة مخترقاً كل الحواجز .

وعلى حين غرة اختفت " حلاوتهم " من البلد وما من أحد يعلم عنها شيئاً .. مما أثار دهشة الناس .. خصوصاً " شحاتة " الذي تمكن منه الأرق والهزال وأضحى هائماً بها .. منقباً عنها في كل مكان .

كان ليله سرمدياً ولعب الخيال برأسه وذهب به كل مذهب .. عندما يراها تتهادى في مشيتها في أركان الدار الحقيرة التي كانا يسكنانها قبل طلاقهما .

ألحت عليه الهواجس وثارت شكوكه ومخاوفه وبات على شفا الجنون.. بيد أنه يعرف جيداً طموحها الجارف الذي لن يحققه لها سوى " الحاج حسن " أو ابنه على حد ظنه .

عندئذ حمل عائلة " عبد البر " ذنب حرمانه من حلم حياته، وظلت النار تأكل في قلبه الذي تفطر عليها ، ولكن من أين له بها الآن وهي تنعم بالحياة الناعمة والترف في أحضان " الحاج حسن" الذي اشترى

لها شقة فاخرة بالبندر بعيداً عن أعين الناس وعقد عليها سراً وليذهب " شحاتة " وكل أهله إلى الجحيم .

❖ ❖ ❖

في هذا اليوم زج الفضول بـ " خروع " ليرى بنفسه شريكه في خدمة الحاج " ذلك " المهبوش " المدعو " ميلص " كيف يدير " الطاحونة " ؟

دلف " خروع " إلى دهليز " الطاحونة " الواسع .. وقف أمام " القادوس " يتابع النسوة المعفرات بالمسحوق الأبيض ، والرجال الذين يأتون بأجولة القمح من الخارج إلى الداخل لطحنه .. " ميلص " ممسكاً " بقابص " التحكم في تنعيم أو تخشين المسحوق المندفع من فتحة " القادوس " .. مباهياً بما يعتقد أنه ينجزه .

كان الوقت عصراً والضوء الأصفر ينساب من فتحات "الطاحونة " العالية مختلطاً بذرات المسحوق الأبيض مشكلاً إشعاعات متقاطعة وينعكس على الوجوه السمراء المعفرة بذرات المسحوق و" الحاج حسن" قابع في ركن قصي بالأعلى داخل غرفة صغيرة محاطة بالزجاج الذي يمكنه من متابعة ما يحدث وهو جالس أمام مكتبه وما هي إلا لحظات حتى تسلل " خروع " خلسة حتى يستكشف بقية " الطاحونة ".

حدق في " ميلص " بابتسامة بلهاء ودلف حيث ماكينات الديزل التي استهوته .

وقف أمامها فاغراً فاه متبلداً حتى رمق أمامه قابس التحكم في " الزيت " .. دنا منه .. عبث به ، وإذ بالزيت ينفجر في وجهه الممتلئ بفعل الضغط ويتسرب على الأرض منسالاً .. مما جعل " حجر

الرحاية" الكبير يحدث طقطقة مدوية يحدث على إثرها شرر متطاير على رءوس الواقفين نتيجة الاحتكاك الشديد ثم يتوقف .

أضحى " ميلص " كالمأخوذ وهو يهرع ناحية غرفة الديزل ليرمق " خروع " متجمداً مكانه ووجهه وجلبابه المهدول من على أكتافه غارق بالزيت الأسود .. توجه مسرعاً نحو قابص الإيقاف وضغط عليه .. توقفت الماكينات وتفادى بذلك حادثاً مروعاً كان ممكن أن يحدث .

كان في إثر " ميلص " ، " الحاج حسن " الذي شاهد كل ما حدث وهنا حدثت مفارقه غريبة .. شمل " الحاج حسن " " خروع" بنظرة غاص بها في أعماقه ثم التفت نحو " ميلص " وقال بتهكم شديد :

- عمرك شفت " ثور" لابس هدوم بني آدم ؟

أجابه " ميلص " وهو متزن ومعتدل المزاج :

- أيوة يا " حاج " كتير قوى .. ولو عاوز عشرين ثور أجيبلك .. دول كتير قوي يا " حاج" !!

ثم ضحك ضحكة مجنونة وهو يحملق في " خروع " الذي تدلي عنقه ونظر في الأرض خجلاً .

تعجب الحاج منهما وخرج يكلم نفسه بصوت خفيض قائلاً :

- عشرين ثور .. إيه الغبي ده كمان !

كان اليوم جمعة والجو صحواً وجموع المصلين الغفيرة تتوافد بغزارة إلى الجامع الكبير الذي يتوسط شارع " داير الناحية " وبداخل الجامع .. المصلي والقائم والمترقب والذي أخذته طلاوة المسجد فنام .. حتى ظهر " الشيخ معتمد " بينهم ، وكل العيون ترقبه وهو يرتقي

درجات السلم الخشبية إلى المنبر .. حتى اعتلاه ثم التفت بوقار وصار مواجهاً للجالسين وقال :

- الحمد لله رب العالمين .. يارب .. ارفع مقتك وغضبك عنا ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .. ارحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، والطف بنا يا ربنا فيما جرت به المقادير .. إنك على كل شيء قدير .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد في الأولين والآخرين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين وبعد ..

- فقد تناحرنا من أجل دنيا زائلة .. وقطعنا أرحامنا وأكلنا أموالنا بيننا بالباطل فتخلفنا بعد أن كنا في المقدمة ، لأنه " من يمتلك حقيقة الأشياء فقد امتلك كل الأشياء" والحقيقة عندنا وأمام أعيننا جلية .. في الدين ، وقد سخَّر الله عز وجل جميع مخلوقاته في خدمة مخلوق واحد الا وهو الإنسان .. الذي ميزه عنهم جميعاً بنعمة العقل فلماذا نستخدم هذه النعمة في الضرر ؟ ولا نستخدمها فيما يرضي الله ورسوله ، وإذا رضى الله عنا حينئذ سنكون أسعد الناس .

ثم أخذ يجول ببصره فوق رءوس الجالسين ووضع كلتا يديه على الحرف الخشبي وقطب جبينه وهو يقترب أكثر من " مضخم الصوت " وركز ببصره أكثر نحوهم وقال منفعلاً :

- ما الفرق بين الإنسان والحيوان ؟ هه ؟ .. وليكن الثور مثلاً ؟

الإنسان كرمه الله عز وجل بنعمة العقل .. فبه يفكر وبه يتدبر، ومن يلغ عقله يكن مثل " الثور" لا يفقه شيئاً ويتصرف بغرائزه فقط .

وهنا تنبه " ميلص " الذي جلس القرفصاء وأرهف أذنيه لكلام الإمام ثم تذكر سؤال " الحاج حسن " له :

- عمرك شفت " ثور" لابس هدوم بنى آدم ؟

وكان وقتها يقصد بكلامه هذا " خروع " .

أخذ " ميلص " الإجابة من حنجرة " الشيخ معتمد " على محمل الجد الا وهي :

- من يلغ عقله يضح ثوراً .

تابع الإمام خطبته التي لم يفهم منها " ميلص " شيئاً بعد ذلك .

انتهت الخطبة وأقيمت الصلاة و بعد أن فرغ المصلون .. شرع " ميلص " في أخذ نعليه وخرج مسرعاً .

انتحى جانباً أمام باب المسجد وعندما رمق " خروع " يخرج من الجامع زعق عليه وسأله :

- أنت فهمت إيه من الخطبة يا " خروع " ؟

حملق فيه " خروع ببلاهة وقال فاغراً فاه :

- هه !!

ضحك " ميلص " وقال له :

- تعال أُقف جانبي هنا شوية علشان عوزك وهنروح سوا !!

ثم صاح " ميلص " على حوالي تسعة عشر آخرين من أمام الجامع وسألهم نفس السؤال وكانت .. إجاباتهم جميعاً مثل إجابة " خروع " .

أوقفهم جميعا في صدغ الباب بجانبه أمام الجامع ، وعندما رمق " الحاج حسن " و" الشيخ معتمد " يخرجان صاح عليهما .. التفتا نحوه متعجبين من أمره وسألاه في وقت واحد :

- فيه إيه يا " ميلص " ؟
- انت مش سألتني يا " حاج " وقلت : " عمرك شفت ثور لابس هدوم بني آدم ؟ "

ظن الحاج أن " ميلص " قد أصابه مس من الجنون وقال وهو يجاريه باسماً :

- أيوه .

وأنا رديت وقلت لك ممكن أجيبلك عشرين ثور لو عايز ويومها افتكرت إن أنا بخرف ؟

- أيوه !!

التفت " ميلص " نحو " الشيخ معتمد " وقال :

- وأنت يا مولانا قلت في الخطبة اللى ما يستخدمش عقله صح يبقى إيه ؟

هز الشيخ رأسه وبدا عليه الخجل لحظات وقال باسماً :

- يبقي زي الثور يا " ميلص " !!

قال " ميلص " موجهاً كلامه للحاج " حسن " وهو يشير بإصبعه نحو العشرين رجلاً الواقفين فاغرين أفواههم في ذهول وقال :

- اتفضل يا حاج آدي عشرين ثور لابسين هدوم بني آدمين .

انفجر الحاج في الضحك هو ومن معه بما فيهم " **سعيد** " .. وانقض العشرون رجلاً كالثيران على " ميلص " وجذبوه في وسطهم وأياديهم تتهاوى عليه كالمطارق لولا انه نحيف واستطاع التملص من بين أرجلهم ووقف بعيدا يرقبهم وهم لايزالون يضربون .. تعجب ودنا منهم ليرى من الذي يتلقى كل هذا الضرب؟ .. فوجده " خروع " فتركه وهرع في إثرهم باتجاه دوار " الحاج حسن " حيث دلف " **سعيد** " إلى غرفته لينام ساعة القيلولة وطلب من أمه أن توقظه قبل المغرب .

- ٩ -

استيقظ من نومه .. تناول غداءه وخرج متريضاً بين المزارع كعادته.. رمقته " صفية " بنت خالته .. الذى يملك شغاف قلبها ، وهو في طريقه .. كان ذلك قبل هبوط الظلام بقليل .

لحقت به وهو يقف متكئاً بظهره على جذع شجرة التوت .. يجوب ببصره الأفق .. يراقب أسراب الطيور المسافرة في كبد السماء وعن شماله الطرف الآخر من (غيط الكرنب) الذى يبدأ بالقرب من الدوار .. وكان نبات " الكرنب " مصبوغاً باللون الأزرق الداكن وقليل من الضوء الهارب يجعل أوراقه لامعة .. كانت " صفية " تتوق إلى مصارحته بحبها الجارف ، ولكن بقية من الحياء الذى ولى وراح قد منعها .

همست له على خجل باسمة .. تملكته رعدة خفيفة حين رمقها مشرفة عليه ، ما لبث أن انفرجت أساريره حينما أمعن النظر في قسماتها الجميلة التى عصفت به وبجوارحه التى هتفت بها .. هم إليها .. تقوده رغباته المكبوتة ، ولكن أيضاً بقية من أدب قد بدأ يتلاشى منعه .. أطبق براحتيه المرتجفتين على كتفيها النحيلين .. ذهب خياله به في كل اتجاه ، وهى بين يديه وديعة كادت تذوب ، والجزء المتبقى من الضوء الهارب إلى الفضاء الأبدى يلهب صفحة وجهها الناعمة .

تسللت أنامله يتحسس الشعر المهدول على رقبتها الناعمة .

شعر بالحرارة المنبعثة من خلال ملابسها تلفحه .. ارتجفت .. ذابت أنفاسهما في الفضاء .

عندئذ قررت " صفية " أن يذهب ذلك القيد المسمى بالحياء إلى أعماق الجحيم ، وغاصت في صدره هامسة في أذنه (بحبك) .

شعر بأنه يختبئ في حنايا الزمن السرمدي المجهول .. هذا الشيء الجارف الذي ألم به ، وقلبه مع غيرها .. تمكن من طرح مشاعره أرضاً .. وانتزع نفسه من قاع الجحيم الذي كاد أن يهوي إليه .. طلب منها أن تعود إلى الدار قبل هبوط الليل .

تركته وهي تسبح في الهواء كالفراشة تحتضن بيديها السراب في صدرها النافر ، شعرها الكثيف يتراقص على ظهرها كالمهرة العذراء ، وهو يرقبها عن كثب حتى توارت ، وعندما وصلت إلى دارهم غمرت اباها وأمها بابتسامة اضاءت ظلمة الدار ثم دلفت إلى غرفتها هائمة في عالم جميل صنعته من خيالها .

مازال " **سعيد** " واقفاً كالمأخوذ يفكر في القلب الذي شطر إلى نصفين .. بدأ الظلام يتكاثف والنجوم تلمع خلف السحب الرمادية .. أضحت العتمة تغطي كل شيء من حوله وبالكاد لا يبصر أمامه سوى عدة أمتار .. تملكته رجفة عندما رمق (غيط الكرنب) أمامه عبارة عن رءوس كرءوس الشياطين .

تجمد مكانه كالمسحور عندما خيل إليه أن هذه الرءوس تصعد لأعلى وهو يمعن النظر فيها .. تمكن منه الهلع وجثم على ركبتيه معتقداً بأنه قد أصيب بمس من الجنون .. ظل " **سعيد** " هكذا لحظات .. حتى أبصر ذئباً يجرجر شاةً من عنقها حتى استقر بها .. وأخذ في نهشها ، وأن شيئاً ما قد انقض على هذا الذئب وفريسته.

أخذ الذئب ينهره ويهشه بمخالبه حتى هرب وتوارى تماماً بين هذه الرءوس .. كان الليل قد أرخى سدوله تماماً ، وضوء القمر خافتاً ومظللاً بالغيوم وبدا الجو كئيباً .

شعر " **سعيد** " بأن كل هذه الرءوس بها عيون ملتهبة تطل عليه من الأفق .. تحرق شوقاً لمعرفة ما يحدث .

وما هو هذا الشيء الذى هبط من السماء على الذئب الذى ينهش فريسته ؟

لملم أشتات نفسه وتصنع الجرأة ثم تلفت حوله منقباً عن عصا يحمى بها نفسه عند اللزوم .. ثم هبط إلى غيط الكرنب .

وبالقرب من بقايا الشاة الممزقة وقف ساكناً .. فإذا بطائر مجهول الهوية يرفرف بجناحين كبيرين محاولاً الهرب .. ظل يعافر ولكنه لم يستطع .. أدرك " **سعيد** " أن هذا الطائر كان يتضور جوعاً ، وعندما رمق الذئب يتلذذ بفريسته دفعه كفر الجوع كى يجد لنفسه نصيباً يسد به رمقه .. لكن الذئب أبى إلا أن تكون الوليمة كلها من نصيبه وحده .

نهره بمخالبه الحادة فجرحه وتركه يتململ ثم هرب بفعلته .. تقدم والطائر الجريح يزحف على بطنه هرباً من " **سعيد** " الذى وقف يرقبه ، وقد أخذته الشفقة عندما اكتشف أنه صقر جريح .. دنا منه بحذر .

سكن الصقر الجريح بعد أن ظل يعافر في محاولات يائسة للهرب .. ألقى " **سعيد** " بالعصا وانحنى عليه وأطبق بكلتا يديه على جناحيه .. انكمش الصقر ..غاصت رأسه بين جناحيه .. حمله " **سعيد** " واضعاً إياه

تحت إبطه .. ممسكاً بكلتا يديه خوفاً من مخالبه الحادة .توجه به نحو الدوار .

وعندما دلف " **سعيد** " بصقره إلى الصالة الواسعة .. كانت " فاطمة " وزوجها " فرج " يجلسان مع أمه " إجلال " يتسامران بصوت عالٍ ، وعندما رمقته " فاطمة " هرعت إليه وابنها الصغير " **سعيد** " كان على كتفها .. أعطته لأمها وحدجت " **سعيد** " وهى تستفسر عن هذا الطائر .

شعر " فرج " بالانقباض .. أضحى كالمأخوذ عندما رأى الطائر .. ثم تذكر الحلم الذى رآه " **سعيد** " وحكى له عنه وكان معهم " ميلص " وقتئذٍ ، ويبدو أن " **سعيد** " قد نسيه في غمرة الهلع الذى ألم به ، وهو لايزال واقفاً يحدق فيهم بنظرات سريعة كالمبهوت ثم التفت نحو " فرج " وتفرسه بنظرة عميقة .. وبسرعة ارتقى درجات السلم متوجهاً نحو غرفته عبر الردهة المضاءة بالنور الأصفر الباهت .

دفع باب الغرفة مسرعاً وتبعه " فرج " مذهولاً ، وقبل أن ينطق " فرج " ببنت شفة تذكر " **سعيد** " الحلم الذى رآه .. وقفا جامدين مقطبى الجبين يحدقان في الصقر الجريح كالمذهولين .

وهو لا يعلم بما يحيكه له " حشاف" الذى سعى إلى الانتقام منه .. معتقداً بأن " **سعيد** " قد دمر خطته في الانتقام لولده " جابر " الذى يقضى حكم خمسة عشر عاما أشغالاً شاقة ، وكان من الممكن أن ينقذ " حشاف " ولده لو أن " منى " لازالت في حوزته .. لذا أخذ يرصد كل تحركات " **سعيد** " و " منى " بواسطة أذنابه ، وفي أثناء انتظار " **سعيد** " لها في كازينو (مرمر) على شاطئ النيل ، كانت أشعة الشمس

البيضاء تنعكس على صفحة النيل الرقراقة وتجعلها تضوى كحبات الماس المنثور .. لاحظ أن شخصاً ما يراقبه.

حضرت " منى " إليه .. جاء النادل .. طلب منه " **سعيد** " العصير الذى تعوداه في مكانهما الخاص والمفضل .. همس " **سعيد** " في أذن " منى " وهو يمعن النظر في شعرها القصير الأصفر المهدول على رقبتها ويغطى أذنها وجبهتها مستفسراً عن سبب ملاحقة هذا الرجل .. ويداخله خوف يهتف بأن ما يحدث هذا له علاقة شديدة بها .. اضطربت وانتفضت واقفة ، أطبقت على ذراعه وانصرفا متوجهين نحو الشارع حيث السيارة القابعة بجوار الرصيف .. مخلفين وراءهما الرجل الذى توجه من فوره صوب المنضدة التى تركاها ، .. اجترع كأساً من العصير الذى خلفاه ، وعندما حاول اللحاق بهما كانا قد اختفيا .

عندئذ تأكد بأنها في خطر داهم ، وبعد أن وصلا المعادى تردد " **سعيد** " في الدخول إلى البيت .. لولا أنها الحت عليه .. كانا في حالة من الهذيان المحموم .

لاحظت ذلك أمها التى حاولت احتواءهما .. ثم توجهت صوب الردهة المؤدية للمطبخ .. كان ضوءها خافتاً عن ضوء الصالة الساطع .. وانهمكت في إعداد الطعام .

مازالت " منى " مبهوتة وتشعر بالخوف ولكنها بدأت في توضيح الأمور إليه عندما شعرت أنه أيضاً في خطر .

كانت ترجف وهى تستطرد .. أشفق عليها وهدأ من روعها وطلب منها السكوت .. كان عندئذ قد ألم بأطراف الحكاية كلها .

جلسا في صمت عميق حتى صاحت عليها أمها لتناول الغداء ، ومع أول لقمة يقضمها " **سعيد** " .. شرد ذهنه وجال بخاطره : " الصقر " الذى طببه وأطعمه .. ثم روضه وساعده في ذلك أن " الصقر " كان حديث السن ، أضحى يستهويه ولا يفارقه .. ثم ابتسم وهو لايزال يمضغ أول لقيماته حينما تذكر أهل البلد وهم ينادونه (بطير البر) .. تشبيها له بهذا " الصقر " .. كانوا يطلقون عليه " **سعيد طير البر** " بدلاً من " **سعيد عبد البر** " .

فقد قام " **سعيد** " بتدريب هذا " الصقر " على أعلى مستوى ، وفي أثناء تدريبه له كان يربطه من رجله بحبل رفيع وقوى وكلما حلق الصقر عالياً جذبه " **سعيد** " ضاحكاً ثم يضع قطعة من اللحم في منقاره ، وحينما يرمقه أهل البلد .. يلتفون حوله كأنما قد نصب سيركاً وتدنو الصبية من " الصقر " يداعبونه .. مما جعل هذا "الصقر" يتعود على معاشرتهم ولا يهابهم .

وأدخل هذا السرور على قلب " **سعيد** " .. لأنه كان يضع الصقر على كتفه ويمشى به مختالاً .. إلا أنه في أوقات معينة كان يشعر بالانقباض والضيق الذى لا يعلم سبباً محدداً له سوى هذا الحلم المزعج الذى داهمه وأسفر عنه هذا الصقر في الوقت الذى لا يرى أباه إلا قليلاً بيد أنه غارقٌ مع " حلاوتهم " ذات الوجه الصبيح في بحر من العسل وما من أحد يعلم شيئاً عن هذا الغرام الآثم الذى انخرط فيه " الحاج " البالغ من العمر سبعة وخمسين عاماً مع " حلاوتهم " التى لم تتجاوز الخامسة والعشرين بعد .. إلا أن الحاج كان يقضى معها أوقات متقطعة تسقط من العمر الذى يَفْلَت من بين يديه ، وأدخل

" فرج " السرور على قلبه عندما أشار بأنه سيسمى ابنه " **سعيد** " .. مما جعل خاله يرتب لسبوعه كما لو كان عريساً وحضرته " منى " وأهلها مما أثار غيرة " صفية " آنذاك .

رمقته " منى " شارد الذهن .. يلوك الطعام في فمه ببطء وأحياناً ترتسم على وجهه ابتسامة باهتة وأحياناً أخرى يقتضب .

حثته على إتمام طعامه .. أجابها بابتسامة خفيفة وما لبث أن شرد ثانياً يجتر الذكريات المؤلمة من أحشاء الزمن الغابر ، يتفتق ذهنه عن ذكريات ولت .. قفز إلى مخيلته " شحاتة " صديق عمره الذى لاقى من الحرمان ما لاقى طيلة حياته .. دائماً ما كان ملاذه هو " **سعيد** " الذى ينقذه من كل ما يعترضه من مشاكل .

فحينما عجز" شحاتة " عن دفع مصروفات الجامعة .. ذهب " **سعيد**" ودفعها عنه وأعطاه إيصال الدفع كى يستطيع شراء الكتب التى دفع ثمنها " **سعيد** " أيضاً ، وعندما كان يذهب " **سعيد** " لشراء ملابس له كان يشترى مثلها لـ " شحاتة " لعلمه أنه يتيم الأب وأمه لا تملك شيئاً من حطام الدنيا ، ويوم أن مرضت أم " شحاتة " - والرياح تعصف بالأشجار المحيطة بالقرية والسحب حبلى بالأمطار الغزيرة .. كان ذلك منذ سبع سنوات مضت - وكاد أن يفتك بها ، فلما علم توجه على الفور إلى " شحاتة " وأخذاها إلى الطبيب الذى نصح بأنه من الضرورى إجراء عملية جراحية في القلب .. ستتكلف خمسة عشر ألفاً من الجنيهات علاوة على مصروفات الإقامة .. وحينذاك كان " **سعيد** " لا يمتلك إلا جزء قليل من هذا المبلغ ولكنه أخذ جزءًا من أبيه وجزءًا آخر من أمه واقترض الباقى وتحمل عبء السداد وحده ..

وقتئذ كان " شحاتة " لا يمتلك قروشاً معدودات وتملك الجزع منه حتى أنقذه " **سعيد** " كما لو كان مبعوث العناية الإلهية ومخلص البشرية من همومها .

عانى " شحاتة " من الحرمان معاناة شديدة حتى تزوج " حلاوتهم " الهاربة من بطش زوجة أبيها ولكنها ما لبثت أن ضاقت به ذرعاً .. وعاشا معاً بضعة أشهر في جحيم من الغضب إلى أن تم طلاقهما واختفت " حلاوتهم " .. عندئذ شعر " **سعيد** " أن اختفاءها متزامن مع تغير حال أبيه .. لمحت إليه " فاطمة " من قبل ولكنه لم يلق لها بالاً .. استولى عليه القلق بشدة وشعر برغبة مفرطة في أن يأتيه عفريت من الجن يأخذه يطير به إلى البلد .

بدت على " **سعيد** " دلائل الحيرة بينما تحدثه " منى " .. لكنه لم يجب عليها إلا بعد تردد كثير .. مما أثار شجونها .. احتوته بنظرة حانية شعر بها عندما أبحر في عينيها الواسعتين ووجهها القمرى الهادئ .. وبينما يودع أحدهما الآخر في صمت دخل عليهم " العميد مختار سعد " مثيراً للضجة كدأبه ، وعندما رمق " **سعيد** " جالسا على منضدة الطعام مع ابنته ابتسم وقال بصوت جهورى:

- أهلاً يا **سعيد** .
- أهلاً يا عمى .

.. انتصب " **سعيد** " واقفا متهيئاً للانصراف .. ودعه " العميد مختار سعد " وفي أثناء ذلك حضر " وحيد " ابن عمة " منى " ذلك الشاب الوسيم الذى أتى من " الكويت " في إجازة .. وقدم لزيارتهم فتلاقى مع "**سعيد**" عند الباب .. تفرسه بنظرة فاحصة متعجباً من وجوده .. بادله

" **سـعيد** " نفـس النظـرة وهـز رأسـه دون كـلام وخـرج .. بعـد أن قـام " العميد مختار سعد " بتقديم كل منهما للآخر .

بدأت بذور الشك تنمو داخل " **سعيد** " بيد أنه لاحظ أن هذا الشاب قد بذل مجهوداً كبيراً في تأنقه .. فشعره مفروق على جنب ، أسمر ، ولامـع .. والحُلـة التـى يرتـديها واضـح أنهـا ثمينـة .. رائحتـه عطريـة فواحـة وبيـده سلسـلة مفـاتيح ذهبيـة ، وعنـدما عَبَـر " **سـعيد** " الشـارع التفت ليركب سيارته .

رمـق سـيارة فارهـة حمـراء تقـف أمـام المنـزل لم يجـد صـعوبة في أن يكتشف أنها سيارة " وحيد " ابن عمتها .

- ١٠ -

أشعل " حشاف " جَذوة الانتقام من " **سعيد** " الذى حركته نخوته لإنقاذ " منى " - قرة عين أبيها - من الشرك الذى نصبه - " حشاف " - عندما كان يخطط لأن يقايض بها على ابنه قرة عينه أيضاً .

تحرك وحش الغطرسة داخله .. قرر الانتقام من " **سعيد** " أولاً .. ثم من " العميد مختار سعد " ثانياً ، وعن طريق العمدة " السباعى صالح" توصل إلى " شحاتة " الذى يضمر الحقد الأسود لعائلة " عبد البر" كلها .. إذن فقد توصل " حشاف " إلى بداية مبتغاة .

حَبَكَ مؤامرته التى كان " شحاتة " ضلعاً قوياً فيها .. فقد أغدق على " شحاتة " المال الوفير الذى ظهر عليه فجأة وعلى هذا فقد ترك العمل في طاحونة " الحاج حسن " بعدما استغله " حشاف " كمطرقة يهوي بها على رأس " **سعيد** " .

وجد " شحاتة " في هذا إشباعاً لرغبة الانتقام بداخله .. حينئذ وافق على كل أوامر " حشاف" ، وكان أيضاً من الذكاء أن يتخذ لنفسه درعاً يحميه وقت اللزوم .. عندما اجتاز اختبارات " حشاف" له وبدأ يشترك في بعض أسراره .

بلغ من الذكاء والحرص مداه عندما استعان " شحاتة " " بجهاز تسجيل " صغير أخفاه في جيبه ليسجل عليه معظم مؤامرات " حشاف " ، وعندما حان وقت الانتقام من " **سعيد** " أخبروه هاتفياً بأن " منى " في خطر داهم بيد أن " **سعيد** " يشعر جيداً بهذا الخطر عليها ، وعليه أيضاً منذ أن قام بإنقاذها .. يشعر دائماً بأن هناك من يراقبه

عن كتب خصوصاً في الآونة الأخيرة ، وقد نجا بفعل القدر من محاولات كثيرة دبرت له .. إلا أن حبه الجارف لـ " منى " قد دفعه دون تفكير .. أن يقع هذه المرة في شباك المؤامرة التى أتى بها القدر له على حين غرة.

ذهب إلى المكان الذى أخبروه به .. رمق رجل مسجى على جنبه وله نفس جسد العميد " مختار سعد " وعليه ثياب تشبه ما تعود " **سعيد** " أن يراها عليه .. غارقاً في دمائه ، والأخرى أشبه بمنى .. بل تكاد تكون هى .. منكفئة على وجهها .

أخذت " **سعيد** " المفاجأة عندما رأى هذا المنظر .. تجمد مكانه .. اتسعت حدقتاه .. تملكه الرعب ، كانت الضوضاء في الشارع خافتة والرياح تعصف بالأشجار المتناثرة المحيطة بالكازينو والضوء الأحمر القاتم يصبغ المكان ويشوهه ..

ظل متجمداً مكانه لحظات قبل أن يفيق من صدمته .. هرع نحو جسديهما .. قلب فيهما .. رمق مسدساً ملقى بالقرب منهما .. التقطه ووقف لحظات مبهوتاً .. طبعت بصماته عليه ، وعلى الناحية الأخرى رمق حقيبة سوداء كبيرة .. أمسك بها .

وقف والمسدس في يمينه والحقيبة في شماله متجمداً .. خامره شعور بأن هاتين الجثتين لغير " منى " وأبيها .. دنا منهما .. قلب فيهما .. أدرك أنه وقع في فخ ولسوء حظه كانت الشرطة على رأسه فلم يستطع الفرار.

صاح " **سعيد** " بكلمات أشبه بالهذيان .. من أثر ما رأى ، ولكن الحالة التي ضبطته الشرطة عليها أوحت بأن " **سعيد** " هو الفاعل ، بيد

أن الشرطة لديها معلومات بأن " **سعيد** " من رجال " حشاف ".

زجوا به في السجن .. عندئذ شعر أنه هوى لا محالة .. كانت كل الأدلة ضده والذى أكدها هو صديق عمره " شحاتة " الذى شهد أمام القاضى بأنه رأى " **سعيد** " وهو ينفذ جريمته الشنعاء .. عندئذ شعر " حشاف " بأنه قد أطفأ جمرة الحقد تجاه " **سعيد** " ، ولم يبق أمامه سوى " مختار سعد " و ابنته " منى " .

رمق الحاجب رئيس المحكمة وهو يخرج من غرفة المداولة متوجهاً إلى مقعده وسط المنصة ، ويتبعه مستشاروه .

انتفخت أوداجه وهو يصيح :

- محكمة .

اهتزت جدران القاعة العالية .. انتفض الجالسون وقوفاً .. تلاشت الدغدغات والغمغمات .. انصبت العيون على مقعد القاضى.. لحظات مرت كأنها دهر إلى أن استقر القاضى في مكانه .. عندئذ ترنحت الأجساد الخائرة على مقاعدها .. كأن على رءوسهم الطير.

جلس " الحاج حسن " مطبقاً على عصاه بيده المرتعشة .. لا يقوى على لم شتاته المبعثر وجلس عن شماله " فرج " يعضده و " **سعيد** " قابع في القفص الحديدى كما لو كان تحت تأثير مخدر استعدادا لإجراء عملية جراحية له .. مضطرب الحواس .. خواطره تطوف هنا وهناك .. تهيم روحه بين الجدران الصامتة .. لا يرى من بين القضبان الحديدية إلا رءوساً ترتدي اقنعة مطموسة الملامح .

جلس أبوه في صدرهم مدثراً بعباءته السوداء .. متوشحاً بشاله الأبيض .. حَوَّل وجهه حائراً .. له شارب كثيف دب فيه الشيب ،

وأكتاف متهدلة كالأسد الجريح يجوب بعينيه الذابلتين القاعة الصفراء الباهتة والنوافذ الحمراء العتيقة .

شعر " سعيد " بأن صقره يقف على إحدى الأشجار المواجهة للنافذة مراقباً لما يحدث في القاعة .. تمتم " سعيد " بإحساس متبلد.

محدثاً نفسه :

- إنى لم أفعل أى شىء يستحق كل هذا !!

الصحفيون يتزاحمون وآلات التصوير معلقة في أكتافهم .. عاد ثانية إلى نفسه يحدثها :

- من يفعل خيراً .. هو فقط الذى تنصب له المحاكمة ؟
- من لم يتأخر عن مساعدة محتاج تنصب له المحاكمة ؟
- من يحترق من أجل غيره تنصب له المحاكمة ؟
- من ضحى بكل ما يملك ووهب نفسه لغيره تنصب له المحاكمة ؟
- من يتألم ويشقى من أجل راحة وسعادة غيره تنصب له المحاكمة ؟
- هل يحاكم من لا يقول .. أنا ؟ هذا مستحيل .
- كل من أراد فعل شىء .. فعله دونما تردد أو خوف.. مادام هذا الشىء فيه نفع له ، وإذا كان فيه ضرر لغيره فعله أيضاً دون تردد .. لا رقيب مادام ضميره أخذ إجازة مفتوحة .. الله وحده يعلم متى ستنتهى هذه الإجازة .. الجميع يعلم جيداً أن " الرقيب " .. هذا الشىء الخفى .. هو الجواب الشافى للأسئلة التى حيرت الكثيرين أهمها .. ما هو الضمير ؟

كـانت أشـعة الشمـس تنسـاب مـن النوافـذ العاليـة علـى رءوس الجالسيـن داخـل القاعـة .. رمـق " **سعيد** " القاضـى فى جلسـته المهيبـة وسـط مستشـاريه ، وهـو يمحـص فى الأوراق التـى أمامـه علـى المنصـة الخشبية العالية .

خـامر " **سعيد** " شعور عجيب ومجنـون .. هـو أنـه قـد تمنـى الجلـوس مكان القاضى على هذه المنصة المهيبة ولو للحظات .

سكن مستسلماً للخيالات والأوهام الجامحة .. ذهنه مشوش .

ذهـب بـه خيالـه الذى تسـرب منـه خـارج القفـص الحديـدى وأجلسـه مكان القاضـى فعلاً ، وحدث نفسه :

- .. فبكلمـة تنشـب الحـروب ، وبكلمـة يعـم السـلام ، وبكلمـة تفرق بين الحق والباطل ، وبها عرفنا تاريخ ماذا أفعل الآن بعد أن صرت أنا القاضى ؟

أول شـىء سأفعله هـو اننـى لـن أحـاكم الفاشـل الـذى تـولى منصبـاً قياديـاً .. بـل سـأحاكم مـن ولاه هـذا المنصـب ، وذلـك لأنـه قـد ثبـت بالتجربة أنه لو أردت تفتيت أمة متماسكة .. فاجعل مصائرها فى أيدى فاشليها ، ولو أردت انهيار هذه الأمة تماماً .. فاجعل حاميها حرامهيا ، واخنـق الكلمـة فى مهـدها .. لأنهـا لـو خرجـت إلى النـور فلـن تسـتطع السيطرة عليها ثانياً لأنها ستجعل الفاشـل فى مـأزق كـبير أجدادنا ، وبها ندون التاريخ لأولادنا ، وبها هبط الوحى ، وبها نزلـت الشـرائع مـن السماء .. قامت عليها القوانين المنظمة لحياة البشر ، وبها تستطيع أن تعبر عن مكنونـك ، وبهـا ترقـى الأذواق ، وبهـا تـنحط الأذواق ، والفشـل ليس ذنب الفاشلين وحدهم بل ذنب من شجع هـذا الفشـل فيهم .. لذا

نرجوهم أن يفسحوا الطريق لغيرهم .. وإلا زججت بهم داخل هذا القفص كي يرحمونا من العواقب الوخيمة لفشلهم .

حملق " **سعيد** " بعينيه السوداوين فوجد نفسه داخل القفص الحديدى مثل الصقر الذى خلفه في " **البجامون** ".

مازال الجميع جالسين على مقاعدهم متراصين مبهوتين في انتظار سماع الحكم الذى نطق به القاضى قائلاً :

- بعد الاطلاع والمداولة .. وسماع الشهود .. حكمت المحكمة حضوريا على المتهم " **سعيد حسن سليمان عبد البر**" بإحالة أوراقه إلى فضيلة المفتى .. رفعت الجلسة.

جاء سماع النطق بالحكم .. كالصاعقة أطاحت بالحاج " حسن" الذي غفل أن الدنيا ما هى إلا لحظات قليلة .. يريد امتلاكها جميعاً ، ولا يعلم أنها ستضحى سراباً بعدما فاجأه القدر بالحكم على ولده كالصاعقة أطاحت به وبعثرت هذا الأمل على دروب اليأس .. شعر أنه يهوي في بئر مظلمة عميقة أو كمطرقة هوى بها القاضي على رأسه ، وكانت الطامة الكبرى لأهالي " **البجامون** " .. خسارتهم الفادحة في هذا الشاب الذي كان قد وهب نفسه لهم .

شعر المحامي الذي أحضره " فرج " بخيبة الأمل بعد المجهود المضني الذي قام به .

لملم أوراقه وانصرف .. تبعه " فرج " مهرولاً .. وقال له بلهفة شديدة:

- إيه اللي حصل ده يا أستاذ ؟

هز " المحامي " راسه حائراً وقال :

- فيه قدامنا فرصة كمان .

ثم بدا يائساً وأردف :

- ربنا يسهل !!

وتسلل خارجاً وترك القاعة مشتعلة بالبرق الذي تصدره آلات التصوير في أيادى الصحفيين .

عاد " فرج " إلى " حماه " مسرعاً وتأبطه من ذراعه ونهض به عن المقعد ثم لحق بهم " خروع " متوجهين نحو السيارة القابعة بجوار الرصيف المواجه لمبنى المحكمة الصامتة بعد أن ودعوا " **سعيد** " بنظرات ملؤها الحسرة .

خرج بعض من أهالي البلد كالطوفان مترنحين يجرجرون أذيالهم بعد أن تجرعوا كأس الحكم المر .

أخرج العسكر " **سعيد** " من قفصه مصفداً وتوجهوا به تحت حراسة مشددة خارج القاعة ثم نفذوا به عبر باب خلفي واجتازوا الردهة الضيقة ومنها مباشرة إلى العربة الكبيرة حيث صعدوا به درجات السلم الحديدية الصغيرة .. تخطى الجزء المكشوف في مؤخرة العربة عبر مقعدي حراس العربة .. زجوا به داخلها .

انحشر " **سعيد** " وسط أجساد تشع حرارة أجسامهم الملتهبة من خلال ملابسهم .. مبهوتين .. عيونهم زائغة .. اليأس والتجهم يرتسم بوضوح على وجوههم الشاحبة .. يتشبثون في قضبان حديدية مثبتة في سقف وجوانب العربة ، وفي كل جهة من السيارة يوجد أربعة نوافذ ضيقة يمر من خلالها بعض من أشعة الضوء وبعض من الهواء متخللين القضبان الحديدية وشبكة السلك السميك التي تغطيها من الخارج .

تحرك السائق بالعربة .. بجانبه يجلس الضابط المسئول عن ترحيل المسجونين .. في الخلف جلس اثنان من العسكر .

وقف " **سعيد** " مطبقاً بيده على قضيب الحديد متشبثاً كي يحميه من المطبات التي لم يبال بها السائق الأرعن .. كما لو كان يحمل معه "طماطم" مثلاً .. نعم .. يدرك أن هؤلاء الشرذمة هم بشر ولكن لا يرتقون إلى حسن المعاملة .. وكل من تطأ قدمه هذا المكان فهو آثم إلى أن يحدد موقفه .

اتكأ " **سعيد** " بظهره على جسد السيارة الأخرس ، وترك القضيب الحديدي بعد أن شعر بالنمل يسري في عروقه المتجمدة واضعاً كف يده على حائط العربة أسفل ظهره وأعلى مؤخرته وضغط بثقل جسمه عليها يواري الألم الذي يسري في أعصابه الملتهبة .

نظر من خلال النافذة عبر الوجوه الشاحبة فوجد بصيصاً يرمق من خلاله العمارات والبلكونات البعيدة وأعمدة الكهرباء التي تنصرم من جانب العربة مسرعة .

كان يحدق في وجوه المارة بالشارع المزدحم ويحدث نفسه :

- كل منهم يمشي كصندوق مغلق لا أحداً يعلم ما بداخله .. منهم من هو ذاهب إلى عمله ، ومنهم من يراقب إحدى الشقق ولا تدري إن كان يخطط لسرقتها أو دخولها ، ومنهم من يقف متطلعاً لأعلى يريد أن يحظى بنظرة من محبوبته ، ومنهم من يمشي متتبعاً امرأة يراقب مؤخرتها ، ومنهم من يحوم حول عربة ساكنة .

خرجت العربة إلى الخلاء وضوء الشمس ينساب من النوافذ المواجهة لها مختلطاً بذرات الغبار .. رمق النخيل والأشجار المتناثرة في

الأفق الملفوف بالسحب الرمادية يمر من أمامه ببطء كما لو كان يشاهد صندوق الدنيا من خلال إطار النافذة المواجهة له .. الكل معه داخل العربة خانعين في صمت ، وهي تنطلق كالسهم تزمجر مخلفه وراءها سحابة كبيرة من التراب على الطريق تحجب الرؤية .

لا يزال " **سعيد** " ينظر من النافذة ، والانفعال محبوس بداخله وجمرة الغضب محشورة في حلقه .. حتى تدلى أمامه من خارج النافذة حبل المشنقة .

خر مغشياً عليه في قاع العربة .. مطبقاً على رقبته ثائراً بعنف صائحاً :

- معملتش حاجة .. معملتش حاجة .

أفسح رفقاؤه المكان .. لينفذ الهواء إليه .. بالكاد يسمع غمغمات لا يميزها ، ووجوها شاحبة تحدق فيه .. ويسمع طرقات تصاحبها أصوات استغاثة على هيكل العربة الأخرس ، وطرقات أخرى تصدر من الخلف يتبعها صوت أجش محذراً :

- اخرس يا مسجون أنت وهو !!

زعق أحد رفقاء " **سعيد** " مستغيثاً :

- حرام عليكم .. الراجل سقطت روحه !!

ثم جلس هذا الرجل على قاع العربة وربع رجليه ورفع رأس "**سعيد**" عليها حتى توقفت العربة داخل السجن .

قام الحراس بأمر من الضابط بفتح الباب بحذر .. تسرب الهواء متدفقاً .. لفح وجه " **سعيد** " فأفاق .. نهض واقفاً على رجليه مطوقاً بذراعه رقبة أحدهم حتى هبط وسط رفقائه من المساجين الذين اصطفوا في طابور حتى تنتهي إجراءات توزيعهم على العنابر .

- ١١ -

أخذ الموظف متعلقاتهم .. ليودعها أمانات .. تم توزيع الملابس المرقمة عليهم .. زُج بـ " **سعيد** " داخل عنبره وصفق من خلفه الباب الحديدي .. التفت " **سعيد** " وراءه فرمق الحارس الذي زج به يزعق مقتضباً :

- عندك الجردل أهوه يا مسجون .. زمايلك ها يعرفوك كل حاجة .. ياله .. افرش البطانية واترزع في مكانك .

رمق " **سعيد** " شخصين أحدهما مستلق على ظهره في جانب من الغرفة الضيقة وكلتا يداه متشابكتان على جبهته كأنه نائم ، والآخر يجلس متكئاً بظهره على الحائط المواجه لصاحبه .. يريع رجليه ويحدق في سقف الغرفة .

وقف لحظات يتلفت حوله إلى الحوائط الصامتة المطموسة بعبارات كالطلاسم معظمها .. للذكرى .. داخل الغرفة الرطبة ثم نظر إلى اللمبة الصغيرة المدلاة من السقف وضوؤها الأحمر الباهت يصبغ الجدران المشوهة بلون لم يتعرف له على اسم بعد .

تحرك ببطء نحو الحائط الخالي المواجه للباب .. قام بفرد البطانية السوداء .. هوى بجسمه المنهك عليها من فرط الإرهاق الذي لاقاه ، وحتى هذه اللحظة يشعر بأنه يتململ داخل كابوس مزعج أو هي خيالات محمومة قد ابتلي بها أو يهذي .. لم يستوعب أنه محكوم عليه بالإعدام بعد .

شعر أن الهلوسة والحمى الباردة بدأتا تزحفان نحوه ببطء لابتلاعه .. استسلم لسلطان النوم في محاولة يائسة للخروج من هذا الكابوس وسحق هذه الخيالات دون أن يلقى بالاً للشخصين اللذين معه بالزنزانة سوى انطباع النظرة الأولى ، فالأول قصير ويميل إلى السمنة والآخر مربوع الجسم ويجلس كأن على رأسه الطير ، ولكنه ما لبث أن رأى فيما يراه النائم " جده سيلمان " بهيئته المعهودة يربت على كتفه حانياً ويقول :

- ماتخافش يا بني .. انت ها تخرج !!

ثم يختفي ويظهر الشيخ " معتمد " بوقاره المعهود وابتسامته الرقيقة العذبة ويقول :

- الخير الكثير اللي رميته في البحر هايرجعلك كله يا " سعيد " !! ثم يختفي أيضاً ويظهر " شحاتة " بحدقتين واسعتين وقرونٍ كالشيطان .. يحوم حوله ولا يتكلم .. ممسكاً بيده حبل المشنقة يدنيه من رقبته .

أطبق " سعيد " بقوة على رقبته وهو يتلوى وينازع ..

صرخ بصوت عالٍ :

- أنا بريء !! ..

انتبه رفقاؤه في الزنزانة وتضجر النائم وصاح متبرماً :

- يووه .. عاوزين ننام .. !!

رمقه الشخص الجالس بابتسامة ساخرة وقال :

- تنام ؟ .. مشبعتش نوم !!

رق قلبـه وهـو يتلفـت صـوب "سـعيد " .. توجـه نحـوه ليوقظـه مـن كابوسه برفق :

- يا أخ .. يا أخ .. اصحى!!

افاق " سعيد " من كابوسه يهذي :

- منى .. منى .. أنا عطشان .. مقتلتهاش .. مقتلتهاش .

اتى أحدهما بإناء صغير به ماء شرب منه " سعيد " وسأله :

- أنت مين ؟

- أنا " فاروق "

وأشار إلى الآخر النائم :

- وده اسمه " فوزي" ، وأنت اسمك إيه ؟

رد عليه وهو مختنق :

- أنا " سعيد " .

ثم أدرك الآن معنى السعادة وتبسم ساخراً :

- سعيد جداً !

أشعل الرجل سيجارة وأعطاها إلى " سعيد " قائلاً :

- حكايتك إيه يا سي " سعيد" .. فضفض .. فضفض .. ما عندناش هنا أكتر من الوقت .

تلفـت " سـعيد " وهـو يخـرج الزفـرات المشـتعلة مـن جوفـه .. رمـق كلمـات مكتوبـة علـى الحـائط .. منهـا " الصبر يـا رب " ، وفي الـركن البعيد رمق صورة ملصقة على الحائط لامـراه عاريـة وغيرهـا مـن صـور المجلات ملصقة بعناية .. ثم التفت ناحيـة فـاروق وبـدأ في سـرد حكايتـه وهو مثقل مهموم ، و " فاروق " مصغ باهتمام بـالغ لأن حكايـة " سـعيد "

قد مست وجدانه وتفاعل معها .

وصل في حكايته عند غدر "شحاتة" به .. وهو صديق عمره.. عندئذ اهتز كيان " فاروق " وتغيرت ملامحه .. كان وقع الكلام ذا أثر سيء عليه .. بدا هذا ينجلي ملياً لـ " **سعيد** " .

تعجب من أمر هذا الرجل وتملكه تأثير سيء بدا على ملامحه .. توقف " **سعيد** " عن الحكي مستفسراً .. عن هذا التغيير الذي اعترى " فاروق " .

انتفض " فوزي " الذي ترامى الحكي إلى مسامعه عنوة ، لكنه يسمع كلاماً ولا يفهم معناه .. كما لو كان في حلم .. لحظات .. ثم أفاق تماما من سباته وأجاب عن سؤال " **سعيد** " بتضجر وصاح ملوحاً بيده نحو " فاروق " :

- لأنك دوستله على الوتر الحساس يا خويا .. !

تظاهر " **سعيد** " بأنه متماسك ولاحت على وجهه ابتسامة مصطنعة وقال :

- أهلاً .. !!

- رد عليه " فوزي " : أهلاً بيك .. !!

التفت " **سعيد**" نحو " فاروق " مستفسراً عن سبب دخوله السجن .

أردف " فوزي " متضجراً :

- داحنا شكلنا مش ها نام الليلة دي بقى .. يووه !!

بدا على" **سعيد** الاستياء منه ولكنه ظل على تماسكه وقال ممازحاً :

- معلش يا سيدي أدي احنا بنتعرف !!

شعر " فوزي " بالحرج والتفت ناحية " فاروق " ملوحاً بيده وقال :

- طب احكيله يا سيدي !!

عندئذ شعر " فاروق " بارتياح لعثوره على شريك ثالث يزيح عن كاهله العبء الثقيل وبدأ في سرد حكايته باهتمام وتأني قائلاً :

- حكايتي قريبه من حكايتك .. الخيانة أتت من أعز صديق .. يعني الصديق الخائن هو العامل المشترك بيننا .. كان ليل نهار معي ، وأهل بلدنا يضربون بصداقتنا المثل.

كنت أضحي بالكثير من أجله .. وهو أيضاً كذلك .. كانت أحلامنا المشتركة ممزوجة بأمل تحقيقها .. حتى لعب الشيطان برأسه وغوى .. دخل بيتي كأخي ودخلت بيته كأخيه ولكن حيائي كان أكثر .. فعندما أسأل زوجته عنه ولم أجده كنت أعود أدراجي مطأطئ الرأس خجلاً منها .. كنت أتعجب عندما كان يأتي ويسأل زوجتي عني وعندما لا يجدني يرفع عن وجهه غطاء الحياء ويهم دافعاً بجسمه إلى الدخول من الباب الذي يقف متوسطاً إطاره .

صمت لحظات ثم زفر وأردف :

- كانت زوجتي تلوح له باستيائها من هذا التصرف المشين ، ولكنه يبتسم ببلاهة ويدلف إلى الداخل دونما حياء .. تتركه جالساً بمفرده ثم تذهب تحضر الشاي تضعه أمامه وتنصرف .. يرتشفه متلذذاً ثم يثني على زوجتي الغراء ويشعرها بأنه لم يذق شاياً في حياته بهذا الجمال ،

وابـني ذو التسـع سـنوات جـالس معـه يحملـق فيـه وهـو لا يبـالي بـه .. اعتقـاداً منـه بأنـه مجـرد طفـل صـغير أبلـه لا يفقـه شـيئاً ، ويظـل يثرثـر معـه بغبـاء .. في البدايـة بـدأت زوجـتي تحكـي لـي عـن هـذه التصـرفات الحمقـاء وأنـا بصراحة كنت أخجـل مـن أن أتكلم معه في هـذا الشـأن .. تكـررت زيـارات صـديقي المبجـل في أوقـات عـدم وجـودي في البيـت وبـدأت عينـاه تسـيلان منهمـا الرقـة والحنـان علـى زوجتـى الغـراء .. أفـرط في سـرد الكـلام المعسـول لهـا ، وقـد اسـتغل صـديقى المبجـل أوقـات صـفائنا معـاً في الأيـام الخـوالى وبوحنـا بأسـرارنا لبعضـنا الـبعض عنـدما كنـا نحكى مشاكلنا الزوجية ، وبـالرغم مـن أننـى كنـت أعلـم عنـه أدق أسـراره إلا أننـى كنـت أصـونها لـه وخصوصـاً لحظات الجمود العاطفى التى تحدث كثيراً بين الأزواج .

بدأت زوجتى المصون تلين معه بعد صراع مرير مع نفسها ، وباتـت لا تخبرنـى بشـىء عنـه بيـد أنـه أظهـر لهـا مـا كنـت أظـن بـه عليهـا فشـعرت زوجتـى أن الفـراغ العـاطفى بـدأ يمتلئ ويسرى في جسمها الواهن .

وفي أحـد الأيـام عـدت مـن عملـى في الثالثـة بعـد الظهـر كـدأبى .. لقينـى ابنـى معانقـاً .. قبلتـه وأمسكته مـن يـده ودلفنا معاً إلى غرفة نومى بينمـا زوجتـى تعـد لنـا الطعـام في المطـبخ ، وفي أثنـاء تبـديل ملابسـى إذ بـالولـد يفـاجئنـى ويقول لى :

- إنت عارف يا بابا ؟
- عارف إيه يا حبيبى ؟
- عمو " رءوف " كان هنا النهاردة .. وباس ماما !!
- تجمد الدم في عروقى ، وانحشر الكلام في حلقى .. بدأت تأخذ الولد العبرة وترقرقت عيناه بالدموع .. فقد شعر الولد بأن أمه آثمة .. تظاهرت بأنى لم أصغ جيداً إلى كلامه وسألته :
- عمو مين يا حبيبى ؟
- عمو " رءوف " يا بابا !!
- اكتملت حلقة الذهول وكبلتنى ثم أمسكت ابنى من كتفه وأمرته ألا يخبر أحداً بما رأى بينما زوجتى لاتزال تعد الطعام وترصه على الطبيلة .
- صاحت علينا .
- أطبقت بيدى المرتعشة على كتف ابنى النحيل وخرجنا لتناول الطعام المر الذى أعدته لنا زوجتى المصون في الصالة ذات الجدران الباهتة وصورة عرسنا معلقة على الحائط الذى تساقط عنه الجير الأزرق المقشور .

جلسنا حول الطبلية المبرقطه بقطع العجين اليابس ونقط الدهون الجافة وتظاهرت بالتماسك بينما هى تأتى لنا بالملاحة التى نسيتها .. سألتها بغتة عن " رءوف" وسؤاله عنى :

تسمرت في مكانها لحظات .. اتسعت حدقتاها وبرز خطا

الكحل الأسود ولمعت عيناها وزاغت ورفعت حاجبيها كهلالين وهزت كتفيها كالعاهرات وقالت :

- لأ .. من زمان ما جاش !!!

كاد الولد أن يتكلم فلكزته فسكت ولشدة غبائها أنها لم تعبأ بالولد هى الأخرى .. أو هى مشيئة الله كى يفضح أمرهما .

فكرت بالرغم من هذا .. الا اقطع بكلام الولد وآخذ كلامه أمراً مسلماً به .. وبدأت أرقب الموضوع بنفسى بحذر وعن كثب .

في بداية الأمر وجدت " رءوف " يتغير في تعامله معى مما آثار حنقى وجعلنى اسعى ملياً لأتأكد من هذه العلاقة الآثمة ، وفي هذه الأثناء كنت حريصاً الا اثير حفيظة زوجتى .

تملكنى الغضب الجارف وشعرت أنه لا سبيل سوى التخلص من هذه الزوجة الخائنة وهذا الصديق الغادر .. بدأت حواسى تضطرب ، وصار الموقف رهيباً حقاً .. فكرت في طريقة للخلاص منهما معاً ، وكثيراً ما تمنيت أن يكون ما حدث هو مجرد وهم صنعه خيال طفل ولكنى بت متأكداً عندما رمقت العاشق الولهان يخرج متسللاً من بيتى .. وبسؤالها .. أنكرت .

استبد بى الغيظ واستفحل .

مازال "**سعيد**" مصغياً باهتمام بالغ يحدوه الشوق لمعرفة نهاية هذه الحكاية المريرة وبالرغم من تعاطفه مع " فاروق " هذا الزوج المقهور إلا أن جمرات الغضب بداخله بدأت تخمد نوعاً .. وتلح الأسئلة بداخله بحثاً عن أجوبة باتت عقيمة .. وتتكرر الأسئلة بخلده :

- ما هو المقياس الحقيقى للصداقة ؟
- هل تزيد الصداقة وتنقص على قدر المنفعة المتبادلة ؟
- والشخص الذى يتحطم سريعاً هو الأقل منفعة من الآخر أم هو من يؤثر صديقه على نفسه ولو كان به خصاصة؟

ثم التفت " **سعيد** " ناحية " فوزى " فوجده قد غط في النوم .. من الجائز أنه متبلد الحس ، أو أنه قد مل من سماع حكاية " فاروق " مراراً وتكراراً ومن الجائز أيضاً أنه مثقل بهمه ولا يحتمل هماً فوق طاقته أو يمتلك قدرة عالية على كبت مشاعره بالرغم من أن النار قد تكون تأكل في أحشائه على ذنب قد اقترفه ومنعه الحياء من البوح به لأحد وآثر أن يكوى بذنبه وحده .

قفز إلى ذهن " **سعيد** " السؤال الذى أجاب عليه مسبقاً :

- ما هو الضمير ؟
- هل هناك من نستطيع أن نسأله هذا السؤال ؟

ضلت الإجابة طريقها ، وامتزجت مع سرد " فاروق " لحكايته فأردف قائلاً :

- كان ابنى يحوم حولى يلهو ويلعب .. غير مدرك مدى فداحة ما اقترفته أمه الغراء التى كانت يوماً ما حبيبتى، وولدى هذا هو ثمرة هذا الحب المشوه الأليم .

- نزع ابنى عباءة الشيطان عن جسمى لأننى لو ظللت مرتديها سأترك ولدى وحيداً يجابه حياة الخزى والحرمان لذلك قررت أن أطرد هذه الزوجة الخائنة من بيتى ، وأن أجعل الأمور طبيعية حتى لا يتلوث شرف ابنى، وودت لو استطعت تطليقها دون إثارة للمشاكل ، وعندما اعتزمت الخروج في عصر احد الأيام اتخذت أحد القمصان المتسخة ذريعة صفعتها على وجهها فانتابها الذهول وصرت في حالة من الهذيان وأنا اقول لها :

- انتى مهملة .. يلا على دار أبوكى .

أردت اصطناع مشكلة على إثرها أطلقها وفي الوقت نفسه أحافظ على كرامة ابنى التى لم تعر لها أى اهتمام، وانجرفت وراء متعة مسروقة .

كان رد الفعل من أهلها لم يتوقع .. فقد جاءوا متذمرين ومتطاولين بالقول والفعل ، وأضحت المشكلة ضخمة وقد علم أهلى بهذا التطاول وقرروا الانتقام ، ولكنى كبحت جماحهم وأرسلت لحماى بأننى سأحضر وحدى ومعى ابنى فقط لحل المشكلة في بيتكم ، ولكن لى شرط واحد وهو أن يكون الأستاذ " رءوف " حاضراً معكم في هذه الجلسة العرفية .

وكان مساء يوم الثلاثاء عندما أخذت ابنى الصغير وذهبت دون إخبار احد من أهلى حتى لا اثير المشاكل .. قررت أن أنتقم لنفسى دون تدخل من أحد .

أدخلونا المندرة وكانت واسعة وخالية والليل قد هبط على القرية والكل ركن في داره .

جلست على الكنبة وبجوارى ابنى ثم دخل علينا أبوها وأخوها .. لحظات .. ودخل أعمامها وأخوالها وامتلأت المندرة بعائلتها .. جلسوا يحدقون بى وبابنى وهم متحفزون ، ثم دخلت أمها بالشاى وضعته وخرجت تسترق السمع كعادتها واقفة في صدغ الباب .. متحفزة للتدخل في الوقت اللازم بلسانها اللاذع .

مرت اللحظات ثقيلة ثم سمعت صوت " رءوف " .. العاشق الولهان.. يصيح ويتنحنح من الخارج متبجحاً :

- يا ساتر .. ثم دلف إلى داخل المندره

صافحنا .. وجدت في عينيه الخبيثتين مكراً ورياء ثم جلس ، وأنا أهاب العاقبة .. شعرت بأن صدرى يضيق واختنق من أثر السم الذى مزجه بالعسل .. وبدأ يحكى في كلام سمج .. لا يسر الأذن سماعه ، وأنا أتميز غيظاً وحنقاً لكنى حاولت أن أكبح جماح غيظى ، وأسيطر على نفسى وما لبث أن ثار بعض من أعمامها وأقاربها المتربصين بى وبأهلى الذين لم أحضرهم معي لذا جلسوا مخذولين عندما قذفونى بالقول ولم أعقب عليهم .. بدأ حماى يحكى عما حدث .

حدقت في وجه " رءوف " بنظرة عميقة لكى أقرأ أى انطباع على ملامحه الباردة .

شعرت بأنه يحاول ان يهم بالانصراف .. منعته بمكر .. بدأ النقاش يحتدم وهم يرفعون راية الشرف على رءوسهم ويضيق الخناق من حولى كما لو كانوا قد أوقعونى في فخ .

وجدت الجميع يحملقون بى وبابنى وهم متحفزون ، وكادوا يحملونى كل الأخطاء وحدى ويفتكون بى . وبدا على ملامحهم جميعاً زهو المنتصرين .

عندئذ قررت أن افجر الموقف وأشعل فتيل المفاجأة . بعد أن حثونى على الكلام مراراً .. سألت ابنى وأنا أشير بأصبعى لكل الموجودين قائلاً :

- مين يا حبيبى من الناس إلى قاعدين دول كان بيجى عندنا كتير وأنا مش موجود في البيت ؟
- عمو " رءوف " يا بابا !!!
- وكان بيعمل إيه في بيتنا ؟
- كان بيبوس ماما .. !!

أجاب الولد ببراءة الطفولة الصافية ، وتركناهم مكبلين جميعاً من هول الصفعة ثم بادرتهم قبل أن يفيقوا وطرحت عن رءوسهم جميعاً راية الشرف أرضاً .. ونزعت الفتيل وألقيت يمين الطلاق .. وعند خروجنا من الباب رمقت زوجة " رءوف " مع حماتى تسترق السمع ونعالها في يدها .. اتجهت به مباشرة وهوت على رأس زوجها وصرخت:

- آه يا وسخ .

وعندما وصلتهم ورقة الطلاق جاء أخوها رافعاً راية الشرف ثانياً وحاول إهانتى مرة أخرى في دارى فلقنته درساً موجعاً أخذت على إثره " شهر حبس " .

رد فوزي ببلاهة وقال :

- احمد ربنا يا " فاروق " إنه مامتش .. كان زمانك أخذت إعدام دلوقتي .

أدرك " فوزي " أن كلمته لها وقعها السيئ .. عندما حدجه " فاروق " بنظرة معاتبة .

حاول " **سعيد** " أن يشعره بعدم غضبه وسأله مداعباً :

- طيب أنت يا " فوزي " حكايتك إيه ؟

وعندئذ راح " فاروق " في نوبة من الضحك المجنون ، وعندما سأله " **سعيد** " مستفسراً عن سبب هذا الضحك .. حاول " فاروق " أن يسيطر على نفسه من نوبة الضحك التي انتابته مشيراً إلى " فوزي " وقال :

- أصله حرامي معيز .

انفجر ثلاثتهم بالضحك المحموم حتى أخذهم النوم .

كان " **سعيد** " يلاقي صعوبة عندما يخلد إلى النوم ، ويمكث نصف ساعة بين النوم واللانوم قبل أن يأخذه السلطان الأسطوري بالقوة ، وبينما هو نائم على شقه الأيمن سمع الهرج والمرج يملأن أرجاء السجن .. ظن أن هذا حلم أو تهيؤات غالباً ما تحدث لمن كان في مثل حالته ، ولكنه أدرك أن الصبح قد تنفس .. ومن النافذة الضيقة بالباب الخديدي أطلت رأس آدمية تثير الحنق ، قال صاحب هذا الرأس بصوت أجش :

- ياله يا واد أنت وهو .. علشان الفطار .

وفي أول صباح يراه " سعيد " داخل السجن .. الجدران مرتفعة يعلوها سياج من " السلك الشائك " مدعوم بقضبان حديدية وفي جميع الأركان أكشاك عالية بها كشافات إضاءة كبيرة وأفراد مدججون بالسلاح حول السجن الكبير الذي يكتظ حوشه بالأفراد ذوي الأزياء الموحدة والطواقي .

هؤلاء إذن هم المذنبون وكل من بالخارج صالحون ؟

كيف نعرف الطالح إذا كان يرتدي قناع الصالح ؟

فبهذا القناع يستطيع الإنسان أن يرتكب أفظع الأشياء ولا أحداً يعلم شيئاً عنه .. في زمن .. كل من أراد فعل شيء .. فعله .. إلا إذا أجاب عن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح :

- ما هو الضمير ؟

وقف المسجونون طابوراً بعد أن تلقوا الأمر بذلك .

دلفوا في هرج إلى غرفة واسعة جدرانها عالية .. تتوسطها منضدة سوداء كبيرة .. ومضاءة بالنيون المعلق على الحوائط .. جلس كلّ منهم أمامه وعاء للطعام وبعض الخبز .

صعق " سعيد " عندما رآهم ينقضون على الطعام بشراسة تقشعر لها الأبدان وبعد أن فرغوا من تناول إفطارهم.. تفرقوا.. شكل بعضهم شراذم.

انتحى " سعيد " مكاناً قصياً مشمساً شعر فيه أن حرارة الشمس تقهر البرودة في عروقه المتجمدة .. نفث في كفيه .. جلس على دكة خشبية .. رمقه " فاروق " فسعى نحوه .. جلسا معاً يبحران بنظريهما

في الأفق .. كانت الطيور تصدح أعلى الأشجار وتنتقل من غصن إلى غصن بحرية.. كان بداخله شيء ما يهتف بأن سجنه مؤقت .. لأنه بريء .. وكيف يحاكم بريء ؟ ووهم الأمل بداخله .. ينمو .. ولا يريد أن يبلغ الانفعال بداخله أقصاه حتى لا يودي به .

التفت إلى " فاروق " بشيء من الأدب والحياء راجياً منه أن يتركه وحده .. على الفور امتثل " فاروق " ، وربت على كتفه واحتواه بنظرة ملؤها الشفقة .. تغمره مشاعر الرأفة بهذا البريء المغبون .. لكي يسبح في أوهامه وحده .

اتكأ " **سعيد** " بظهره على جذع الشجرة العتيقة .. عقد يديه حول ركبتيه ثم اعتدل في جلسته ولف ساعديه واضعاً راحتيه تحت إبطيه .. سبح في الأفق .. كانت السماء صافية زرقاء بلون البحر .. ما لبث أن لملم أطراف بصره ونظر أمامه على النجيل الأخضر الذي يكسو أجزاء من الأرض السوداء .. تملكه قلق أسود ، جعله يشعر بعروقه وهي تنتفض وقلبه يخفق مسرعاً وجسده يتململ فجأة وهو يسأل نفسه :

- ماذا فعلت حتى يحدث لي هذا ؟ لماذا فعلوا بي هذا ؟

شعر " **سعيد** " بميلاد وحش بداخله يهتف بالانتقام .. مما جعله يفكر في الهرب والجرح لا زال ينزف بداخله .. بيد أنه قد علم بالعلاقة التي توطدت بين رجال "حشاف " و" شحاتة " وساعد على ذلك " العمدة " الذي كان يعلم أن " حشاف " هذا .. هو ابن "شنشانة" .. بعد أن زجوا بـ "شحاتة " ليزرع بذور الشك في قلب العميد " مختار سعد " وتملكه شك كبير في أمر " **سعيد** " .. فقد أكدوا له بأن " **سعيد** " هذا ضمن رجال " حشاف " ووقع في غرام " منى " مما جعله يقوم بتهريبها

ويهرب أيضاً معها من براثن "حشاف " لأنه حظي بمكنون قلبها مما دفع " مختار سعد " بزرع الشك في قلب ابنته .. بأن " **سعيد** " مجرم آثم قبله ولا يستحق هذا الحب الكبير وأن " وحيد " ابن عمتها هو أولى منه بهذا الحب الكبير ثم خططوا بعد ذلك لقتل " منى " ، ولكن أباها بحسه الأمني استطاع أن يحافظ على ابنته وعندما عجز " حشاف " عن أن تطال يده " منى " استبدلها براقصة كانت على علاقة آثمة بابنه " جابر " وتريد الزواج منه لذا قرر " حشاف " أن يضرب " عصفورين " بحجر واحد وضحى بأحد رجاله كانت له هيئة العميد " مختار سعد " .. لتكتمل أركان جريمة من تخطيط شيطان.. مُنى بها " **سعيد** " الذي دفعته شهامته إلى الانزلاق في طريق " حشاف " الذي تملأ صوره الجرائد والمجلات كرجل للبر والخير .

تملك الشطط من " **سعيد** " وظهرت عليه دلائل الحيرة والجزع وأضحى يتلظى شوقاً إلى رؤية منى .. التي تطارده في أحلامه ويقظته.. كانت الشمس قد أفلت وتركت بداخله الظلام يتكاثف حينما سعى إليه " فاروق" عندما شعر أن الخوف قد استولى عليه ورمقه وهو يرتجف .. هدأ من روعه .. عندئذ زعق الحارس يحثهم على دخول العنابر .. جلس " **سعيد** " ، وخلع " الطاقية الحمراء " وألقاها بجانبه وهو يظهر تماسكه .

مرت على " **سعيد** " الأيام والليالي بطيئة باردة بعد أن خرج الاثنان اللذان كانا يخففان عنه .. مكث وحده في الغرفة الكئيبة .. في صمت قاتل .. كان عزاؤه الوحيد هو الزيارات التي كان يتلقاها من أهله .. فقد رأى أبويه هذا الصباح ومعهم " فاطمة " وزوجها " فرج " وابنهما " **سعيد**" .

جده " سليمان " دائم السؤال عنه مثلما يسأل دائماً عن عمه " همام " ، وهو على يقين تام بعودتهما .

ما شغل بال " **سعيد** " بضراوة هو همس " فرج " في أذنه بأنه سينقذه وهو على " طبلية الإعدام " .

- كيف .. ؟!

جلس " **سعيد** " القرفصاء في ركن الغرفة الرطبة .. استغرق في تفكير مرير .. أخذ يحدث نفسه بصوت مسموع تارة ، ويهمس لنفسه مشيراً بيده وملوحاً تارة أخرى ، إذا رمقه أحد سيعتقد أن الخبل قد ألم به أو مسه طيف من أطياف الجنون .

قفز إلى ذهنه الحلم الذي رآه ولم يغب عن باله لحظة .. الأغرب من هذا هو أنه رآه مجسداً أمامه .

ودار بخلده سؤال :

- ما علاقة هذا الحلم بـ " فرج " ؟

فقد كان " فرج " هو الرجل الملثم في الحلم وهو الذي استقبله عندما عاد "**سعيد**" ومعه الصقر بعد مقابلته مع " صفية " ابنة خالته .

استغرق " **سعيد** " في التفكير ، وبداخله إحساس ينمو وهذا الإحساس لا يخضع لقوانين أو منطق .. مكث محدثاً نفسه :

- انساق العميد " مختار سعد " وراء هواجس من المؤكد أنها آلمته ولن يقتنع بسهولة أني بريء .. إلا إذا جاءه القدر بالمفاجأة التي بثها " فرج " في وجداني .

فكر ملياً في كلام الشيخ " معتمد " إمام الجامع الكبير :

- هل يمكن أن يكون الخير الملقى في أعماق البحر مدخراً لي ؟

- هل يمكن أن يعود مع أرباحه وينقذ الجسد المحموم ؟

نهض من الركن القابع فيه .

انتصب واقفاً .. الملل والقلق يفترسانه .

أشاح ببصره صوب السقف متخيلاً النجوم وهي تتلألأ في كبد السماء الصافية .. وضع كلتا يديه في جيوب البنطال الأحمر وحرك قدميه الثقيلتين وهو يتمايل بكتفيه النحيلين ثم أخرج لفافة التبغ وأشعل منها واحدة وأخذ ينفث الدخان من أنفه رافعاً رأسه صوب الأفق المحبوس ..

سمع أصواتاً لا يستطيع تمييزها .. من الجائز أنها تصدر من داخله المظلم أو أنها حضرت من عالم آخر لا أحد يعلم شيئاً عنه .

نفث زفراته الملتهبة .. متأوهاً بمرارة :

- حقاً إن " فرج " رجل ذكي جداً ومخلص أيضاً .

- نعم .

- " الاستعداد هو بذرة قابلة للنمو بداخلنا " .

وما أثاره " فرج " هو عبارة عن بضع كلمات .. جعلت الأمل يتجسد أمامي الآن .. من الجائز أن بعض هذا الأمل قد تسرب إلى أفراد عائلة " عبد البر " .

قفزت ملامح " صفية " البريئة الجميلة إلى لب تفكيره .

وسأل نفسه :

- " هل شعورنا بالشيء ذاته من الممكن أن يتغير من آن لآخر " ؟

-١٢-

أحدث الجد " سليمان " - صاحب الجرم النحيل والطول الفارع الذي أحناه الدهر- جلبة في صباح هذا اليوم ، وأثار زوبعة في الدوار .. بعد أن صلى الفجر وهو ممسك بعصاه التي يدق بها الأرض مهمهماً بكلمات غير مفهومة وزعق بصوته المبحوح:

- يا واد يا " حسن " .. يا " حسن " .. أخوك " همام " رجع ولا لسه ؟

تبسمت " إجلال " ودار بخلدها المثل القائل :

- " يا مَكْبَرهم .. يا مَصْغَرهم " !!

وقالت برثاء وهي تعدل طرف " طرحتها التولي " السوداء على كتفها :

- " همام " عند ربنا مستريح يا با .

هز الجد رأسه غير مقتنع بكلام " إجلال " مغمغماً :

- " إجلال " باين عليها خرفت ولا إيه ؟

ثم سألها :

- " حسن " فين ؟

- " حسن " في مصر من إمبارح .. راح عند المحامي .

هز رأسه ثانية وسألها :

- " سعيد " فين ؟

لم تستطع " إجلال " حبس شلال الدموع المحبوس بحدقتيها ، وأجهشت بالبكاء قائلة :

- هاروح أعملك الفطار يا با الحاج .

وتركته ودلفت إلى المطبخ وهو يهمهم :

- ما تزعليش يا " إجلال " .. هايرجعوا كلهم .

كانت " إجلال " قد لاحظت أن زوجها قد تغيرت أحواله من مدة طويلة .. ربطت بين هذا التغير واختفاء " حلاوتهم " ولكنها أخفت هذا الهاجس .

وعندما تملك الطمع من " حلاوتهم " ، وأدركت أن الفرصة مواتية لها للنهل من ثروة عائلة " عبد البر " بواسطة سلاح شبابها السحري ، راودها حلم الأمومة في حمل ولد من صلب الحاج " حسن " ، وبذلك تكون قد تمكنت تماماً من الثروة .. لاشيء يقف في تحقيق حلمها إلا خوفها من ظهور " همام " الأخ الأكبر لزوجها الذي ذهب إلى الجبهة وانقطعت أخباره إلى الآن ولا أحد يدري إن كان حياً أم ميتاً .. بعدما اطمأنت أن " سعيد " قد أخذ إعداما .

وفجأة أدرك الحاج " حسن " أن زواجه من " إجلال " هو مجرد أن كل ذكر له أنثاه بعدما أحيت " حلاوتهم " في الرجل شبابه الذي ولى.

نعم .

كان هذا الزواج هو طموح .. سعت لتحقيقه .. ونجحت " الظلال الرمادية بداخلنا وبلغت مداها " وأحد هذه الظلال هو طمع " حلاوتهم" في امتلاك ثروة "عائلة عبد البر " ، والظل الآخر هو طمع "الحاج حسن" في شباب " حلاوتهم " .

ظل يحظى معها ببعض الليالي .. التي بدأ يحسب عمره بها .. متذرعاً بقضاء بعض المصالح من البندر .. وهو في الحقيقة في أحضان " حلاوتهم " .

فهذه الليلة التي يعتبرها من الليالي المعدودة في العمر الكئيب .. عندما أسكرته " حلاوتهم " بفتنتها وشبابها الساحر ، واشتهاء الرجل العنيف لجسدها المذهل .. جعله في حالة من الجنون الدائم بها .. كان الضوء في الغرفة أحمر خافتاً وهي تتوسط السرير .. دنا منها متحسساً شعرها الحالك المنثور على رقبتها الطويلة الملساء .. شعر بالثمالة بلغت مداها عندما غاص بين نهديها الفائرين وهو يقبل رقبتها الحارة .. ذهب بين ثناياها .. ملبياً النداء الخالد الذي أطفأ لهيب جسمه المحموم عندئذ راح الرجل في سبات عميق .

اضطجعت " حلاوتهم " بجانبه .. شعرها منكوش على صفحة وجهها الحمراء ورقبتها وصدرها اللذان تبرقطا بتجمعات دموية داكنة .. ثم جذبت عليه الغطاء وربتت على كتفه وشردت .

❖ ❖ ❖

لاحظت " فاطمة " أن زوجها " فرج " في حالة متقدمة من التوتر والقلق المستمرين .. كلما سألته مستفسرة عن سبب لهذا كله أجابها متضجراً :

- لا شيء !!

وضعت وجهها في الأرض يائسة .. بيد أنها شعرت بأن سبب هذا التوتر الذي افترس زوجها انما هو بسبب أخيها " **سعيد** " .. مما جعلها تلتمس له العذر دائماً ، وتبتلع ألمها المر وتسكت .. كان ابنهما " **سعيد** "

نائماً كالملاك في غرفته .. يحيط به على السرير بعض الدمى التي تستهويه ويلهو بها .

عندما دلفت " فاطمة " إلى غرفة ابنها " سعيد " .. وجدته نائماً .

جلست بجواره .. جذبت عليه الغطاء .. رتبت له الدمى .. تنهدت وهي ترقب الصور الملصقة على الحائط الوردي .. وقفت حائرة تدور حول نفسها مرتدية ملابس شفافة .. بينما " فرج " مضطجع على شقه الأيمن على السرير .. شارد الذهن .. تسللت أنامل " فاطمة " إلى " قابس " النور .. أطفأته .. ثم صفقت الباب من خلفها .. خرجت متوجهة إلى غرفة نومها وهي مترددة .

وقفت في الصالة برهة قبل أن تجتازها .. كان الضوء ساطعاً فيها وينساب عبر باب غرفة النوم على السجادة الحمراء .. تملكتها الحيرة ودار بخلدها : إذا كان زوجها يريدها الآن أم لا ؟

ولكنها ما لبثت أن طردت هذه الفكرة الحمقاء من رأسها .. لأنه مأزوم مثلها .. ولا زال كما هو شارد الذهن .. اجتازت الغرفة نحو النافذة كي تغلقها .

أطلت برأسها من الإطار الخشبى على السماء الداكنة والنجوم المنثورة فيها .. كانت الغيوم تتحرك ببطء خاملة .. شعرت بالحنق.. ضاق صدرها وهي ترمق " فرج " الذي مازال شارد الذهن .. زائغ العينين ، بداخلها شيء ما يهتف .. بأن هناك شيئاً ما سيحدث .. صوتها أشبه بهديل الحمام وهي تقول لزوجها بالحذر المشوب بضعف أنثوي جميل :

- مالك يا " فرج " .. فيه إيه يا حبيبي ؟

زفر " فرج " زفرة عميقة وأجابها :

- مافيش حاجة ماتشغليش بالك !

بدت " فاطمة " كالمستغيثة :

- فيه إيه يا " فرج " ؟ أرجوك ماتخبيش عليا .

هز رأسه وتملكته الشفقة عندما رمق ملامحها الجميلة ترجوه وكان ضوء الغرفة خافتاً وينعكس على شعرها الناعم المسدول على كتفيها النحيلتين .. شعر بأنه لو أطلعها على سره .. يمكن أن تطمئن .. أو على الأقل تشعر بوجود أمل في إمكانية نجاة أخيها من حبل المشنقة .

اعتدل في جلسته لحظات .. نهض عن السرير ووقف منتصباً ومشى بخطوات ثقيلة يجوب الغرفة قلقاً .. كان الوقت قد دنا من الفجر ، و" فاطمة " لاتزال تراقبه عن كثب .

سحب مقعداً .. وضعه أمام الدولاب الأبيض العالي وصعد عليه .. .. مد يده فوق ظهره .. أحضر حقيبة سوداء صغيرة .. هبط ثانية بحذر.

جلس بجوار زوجته على طرف السرير .. لحظات مرت في صمت عميق .. استخدمت ذكاءها وآثرت السكوت .. حتى لا يشعر زوجها بالضغط على أعصابه فيثور .. تركته ينهي ما بدأه ، وكل ما عليها هو الانتظار في الفراغ الأجوف المغلف بالسكون القاتل الذي أطبق عليها بشراسة .. عدا النباح المتقطع الذي يصدر من الكلاب الضالة التي تجوب الأزقة والشوارع القريبة .

وضع الحقيبة السوداء بهدوء على السرير بينهما .. انتابه إحساس بأن هناك من يراقبهم .. نهض ثانية .. توجه نحو النافذة المطلة على الشارع ليتأكد من إغلاقها .. بالرغم من أن زوجته قد أغلقتها .. عبث بالمزلاج وفتحه .. أطل برأسه منها كالذي يفعل شيئاً ويهاب من أن يره أحد .. رمق الشارع المضاء بالنور الخافت وسط الضباب المتكاثف .. أعاد إغلاقها بإحكام .. جذب عليها الستارة الصفراء.. كل هذا يحدث وزوجته تتابعه وقلبها يخفق مسرعاً .. تملكها الذهول واصفر وجهها .

لاحظ " فرج " الذي اعترى زوجته ، وأنها سوف تذهل مما سيكشف لها عنه داخل الحقيبة السوداء .

ربت على كتفيها واحتواها بنظرة حانية ثم قال مشفقاً عليها :

- دلوقتي ها تعرفي كل حاجة ..

وهي لا تزال قابعة مكانها مترقبة في صمت .. وعيناها الجامدتان تلمعان في الضوء الخافت .

بدأ يفسر لها : كيف توصل إلى فكرته المجنونة ؟ التي بها سيحاول إنقاذ " أخيها " من " حبل المشنقة " .. وأنه قد طبق هذا الشيء عملياً ونجح .. دس يده في " الحقيبة السوداء " وأخرج منها حبلاً سميكاً ومعقوداً على شكل خية.. تماماً مثل " حبل المشنقة " .

جذب " المقعد " .. صعد عليه .. ثبت طرف الحبل في " الهلب " الذي يتوسط سقف " الغرفة " ، و" فاطمة " تتابع ما يفعل زوجها بعينيها الجامدتين مذهولة .. جلس بجوارها ثانية ودس يده في الحقيبة .. بينما هي ترمق الحبل المدلى من السقف في ضوء الغرفة وظله يتأرجح على الحائط المصبوغ باللون الأحمر.. أخرج صندوقاً

صغيراً في حجم " علبة التبغ " .. وفتحه .. وهنا انفجرت زوجته وسألته بهلع :

- إنت ها تعمل إيه يا " فرج " ؟ .. عاوز تموتني ؟

اقشعر بدنه .. دنا منها برفق .. التقط أناملها الباردة وأبحر في عينيها الواسعتين الحالمتين .. تحسس شعرها الكثيف المنثور على رقبتها وجبينها .. انحنى عليها بينما هي ترجف بين يديه .. تسللت يداها الصغيرتان المرتعشتان .. أطبقت على الصندوق ونزعت غطاءه أخرجت منه قطعة معدنية برقت في ضوء الغرفة ، وهي عبارة عن شرائح معدنية صغيرة جداً فضية اللون ومتراكبة بدقة بالغة .. مد يده ولقفها منها جذب طرفيها بكلتا يديه .. فإذا بالقطعة المتراكبة تتحول في يده إلى طوق ، وذلك بفعل يايات صغيرة قوية جداً مثبتة بين تلك الشرائح الفولاذية اللامعة ، وفي طرفها السفلي توجد حلقة صغيرة جداً .. وهي لازالت تتابعه جامدة في مكانها .. ثم مد " فرج " يده مرة أخرى داخل الحقيبة وأخرج منها سلكاً رفيعاً كالشعرة مطوياً ثلاث طيات به مفصلات دقيقة جداً .. وضع طرف السلك في الحلقة الصغيرة الموجودة بظرف الطوق وضغط عليها فأحدثت طقطقة بسيطة وقام بفرد السلك .. فإذا به يجاوز نصف المتر ، والطرف الآخر للسلك معقوص للخارج ثم قام بعد ذلك بضغطةٍ على الطوق بإبهامه على الجهة العكسية للحلقة فإذا بالطوق ينفرج إلى نصفين على شكل هلالين مثبتين بمفصلة بجوار الحلقة المثبت بها السلك .. وضع "فرج " الطوق حول رقبته وقام بضم الهلالين فصار يلف رقبته محدثاً طقطقة بسيطة جداً نتيجة تثبيت طرفي الهلالين بدخول نتوء أحدهما في تجويف الآخر ، وصار حول رقبته كما لو كان سواراً أو

حلية يتزين بها .. سُمْكه في حجم إصبع اليد والسلك مدلى من تحت سترته على ظهره وهو مثبت بالطوق ويصل أسفل مؤخرته ، وبعد هذا جذب الحقيبة وأخرج منها حبلاً رفيعاً وقطعة من القماش كان قد أعدها لباساً للراس وكبسها في رأسه ورقبته كما هو الحال لمن يعدونه لتنفيذ حكم الإعدام ثم طلب من زوجته أن تقيد يديه من خلاف .. أصابتها الدهشة وعجزت قدماها عن حمل جسمها النحيل وهي تصيح:

- إنت ممكن تموت مني يا " فرج " وأنا خايفة مقدرش أنقذك !!

قال لها وهو يلملم خوفه وهلعه :

- أنا جربتها قبل كده متخافيش .
- جربتها على مين ؟
- على الواد " عراقيب " صبي الورشة .

شعرت بنبرة ضيق في صوته المخنوق وهي حذرة في انتقاء كلامها معه حتى لا يغضب ولا يثور ويتشتت فكره ، ويحدث شيء غير متوقع يودي بحياة زوجها لذا استجمعت قواها الخائرة.. أطبقت على الحبل وقيدته من خلاف .

صعد على " المقعد " الذي وضعه مباشرة تحت الحبل المدلى من السقف .

طلب منها أن تضع " الخية " حول رقبته. فكرت برهة في الرفض ولكنها سرعان ما حدثت نفسها بأنه لا يوجد مجال الآن للتراجع ، وعلى الفور طوقت عنق زوجها وهو واقف في منتصف الغرفة .. لحظات ثقيلة مرت عليهما كالدهر .. قام بتحسس السلك المدلى على ظهره

حتى مؤخرته وأطبق على طرفه المعقوص وجذبه برفق فانفرج الطوق وصار عريضاً عما كان عليه وانبعج منه جزء مبطن " بالفلين " على شكل " وسادتين صغيرتين " أسفل عظمتي الفك البارزتين والتصقتا بهما وبينهما فجوة صغيرة تحمي الحنجرة .. في هذه اللحظة جال بخاطره أن يطلب من زوجته سحب المقعد من تحت قدميه .. لكنه تراجع رأفة بها وقام هو بإزاحته بقدميه بعيداً وتعلق " فرج " بالسقف .

رمقته " فاطمة " .. لم تقو على تحمل رؤيته هكذا .. صاحت عليه .. انتابتها حالة من الهستيريا العارمة فألقت بجرمها النحيل على حرف السرير وهو أمامها يتأرجح في السقف وظله على الحائط الأحمر يتأرجح معه .. لحظات .. ثم طلب منها وضع الكرسي تحته ثانية .. قامت بوضعه مسرعة وهبط كمن بعث من جديد .

أسرعت فاطمة برفع الطاقية عن رأسه ونزع الحبل الكئيب من رقبته ثم فكت وثاقه وظل الحبل يتأرجح في سقف الغرفة .

قام على الفور باحتوائها بين ذراعيه بعدما أضحت كالطائر الذبيح الذي يتقافز .. قبلها من رقبتها الناعمة وقطرات العرق الباردة منثورة كحبات الماس تلمع على صدرها الأبيض تحسس جسمه بين نهديها المرتعشين وهي مستسلمة لحالة النشوة التي بدأت تعتريها .. تكاد لا تشعر بجسدها الثقيل الذي تجمد وما لبث أن انصهر هذا الجليد عندما دنا " فرج " بوجهه من شفتيها الممتلئتين المنفرجتين .. طوقته بذراعيها عندما ضمها إليه وهي تتراجع بجرمها للخلف حيث السرير الذي هوت بظهرها عليه وهي لا تزال متشبثة برقبته ملبين نداء الأجسام المستعرة بلهيب النشوة الجارف .

- ١٣ -

مـازال " شـحاتة " يبحـث عـن " حلاوتهـم " في كـل مكـان .. لم يعثـر لهـا علـى أثـر .. سـاءت حالتـه .. كـان أغلب ظنه أن " الحاج حسن " وراء اختفائها لكنه لم يكن يمتلك الدليل على ذلك .

لازال يحتفظ بشريط التسجيل الذي يفضح تعاملات " حشاف " المشبوهة وفيه البراءة الكاملة التي يلهث وراءها " **سعيد** " وكل " عائلة عبد البر " .. قد أخفى " شحاتة " هذا الشريط الذي لا أحد غيره يعلم شيئاً عنه .. فقد لفه في كيس من البلاستيك ووضعه في " جرة المش " أعلى سطح داره وأخفي الجرة في الحطب وما من أحد يعلم مكانها .. كان لا يتوقع أن شهادته الزور هذه ستودي بـ "**سعيد** " إلى الشنق بل كان يظن أنها فترة سجن قليلة .. تشفي غله .. وبعدها يخرج " **سعيد** " ، وبعد أن أدى دوره وتمت العملية كما يريد لها " حشاف " الذي قام بإهماله وازدرائه بعد ذلك .. كان يريده فقط مجرد أداة للانتقام من "**سعيد**" .. ماتت أم " شحاتة " سلواه الوحيدة الباقية بعدما طلق زوجته ..

بات مذموماً من أهل البلد .. صار وحيداً بدأت حالته تسوء شيئاً فشيئاً بعد أن نفدت نقوده ، وبدأ عقله في الذهاب إلى غياهب الشتات الأسود .. أهمل في منظره وصار رثاً .. يجوب البلد .. ثيابه مهترئة حافي القدمين .. أشعث .. أغبر .. طويل شعر الراس والذقن .. جلبابه متسخ على لحم جسمه القذر .. حتى ولو في " عز البرد " .. السيجارة لا تخرج من فيه .. اسودت شفتاه .. صبغت أسنانه باللون البني

الداكن ، وأحياناً يمسك بين أنامله عصا صغيرة يستخدمها بدلاً من السيجارة .. يدخلها في فمه ويخرجها وينفث بعدها الهواء ، وعندما يرمق أحداً في يده سيجارة ينقض عليه ويخطفها من فمه ويلتهم جمرها بشراهة .. كان الوقت عصراً والجو به لفحة هواء باردة والأشجار المتناثرة في البلد حبلى بالعصافير التي تزقزق فرحة لأنها عادت بطانا .. عندما توجه نحو دوار " العمدة " وهو يقفز بهبل على رجل ونصف ثم يقف ويركل الهواء بقدمه .

يشاكس الحمير والماعز والكلاب التي يقابلها علي الطريق .. تسمر مكانه عندما رمق " الخفير " واقفاً أمامه مطبقاً على حزام البندقية البالي .. حدقتاه مفتوحتان وشاربه المنكوش يغطي شفتيه الغليظتين .. لحظات ثم صاح والسائل الأبيض يسيل من جانبي فمه:

- يا جناب " العمدة " الحرامي .. خربتها ولا لسه ؟

نهره الخفير باسماً لأن " شحاتة " قد قال ما يجيش في صدره.

وصار "شحاته" يقول ما لا أحد غيره يجرؤ على قوله ، وعندما سمع " العمدة " صياح " شحاتة " قال بغضب فيه شيء من الرياء :

- عاوز إيه يا واد يا " شحاتة " ؟ إمشي من هنا .. غور ياله امال .. أنا نقصك أنت كمان ؟ جاتك الهم واد فضحي !!

أخرج " شحاتة " لسانه " للعمدة " وهرول بعيداً عنه وخلفه سيل من الأطفال يزفونه مهللين :

- يا " شحاتة " قول الحق .. طير البر راجع ولا لأ .

كان أهالي البلد يعتبرون ما حدث لـ " شحاتة " هو انتقام من الله "عز وجل " لما اقترفه في حق "**سعيد** " ومن الأهالي من حاول طرده من

البلد ومنهم من عارض مكتفين بالانتقام الإلهي منه .. ليكون عظة أمامهم وبات مضرب الأمثال لمن غدر .. يمصمصون بشفاههم عندما يرمقونه .

عندما رمقه الشيخ " معتمد " قال بلسان أهل الحكمة :

- ربنا " سبحانه وتعالى " مش ممكن يسيب "سعيد" في محنته دي .. أكيد هايرجع .. إزاي ؟ دي قدرته " سبحانه وتعالى " بقى .. له "سبحانه" جنود من عباده يسخرهم لخدمة عباده المخلصين رافعاً يديه للسماء داعياً متضرعاً لله " عز وجل " :

- يارب فك ضيقته .

وبالرغم من أن " شحاتة " قد أطبق عليه الخبل بشدة فإن بداخله شعرة دقيقة من العقل لازالت تراوده من آن لآخر حسب الظروف .. كانت تلوح هذه الشعرة بوضوح عندما يذهب لدوار " العمدة " الذي بدأ يضيق به ذرعاً .

يريد " العمدة " أن يزيح هذا التوتر وهذه الفضائح التي سببها له هذا المخبول ، وفي هذه الليلة كان القمر بدراً والسماء صافية و "شحاته" كدأبه يجوب البلد والأطفال يزفونه ماراً بدوار " عائلة عبد البر " ثم عرج على " الطاحونة " وعندما سمعهم " ميلص " وهم يصيحون بصوت طفولي حاد يسري في ليل البلد الحزين :

- يا " شحاتة " قول الحق .. " طير البر " راجع ولا لأ ؟ وقف متعجباً وهو يراقبهم عن كثب ثم ضرب كفاً بكف وقال بصوت متحشرج وهو يجهش بالبكاء :

- ارحم عبيدك يا رب .. عبيدك كلوا عبيدك يا رب !!

تواري " شحاتة " والأطفال من خلفه يزفونه في حواري القرية وأزقتها الظلماء حتى تلاشى صياحهم وذاب في الفضاء ، وفي أثناء ذلك رمق "خروع " وهو يتجه نحوه فوقف يتنظره ودلفا معاً إلى غرفة " ميلص " خلف " الطاحونة " .. يهمهمون بكلام متداخل غير مفهوم .

كانت زفة " شحاتة قد دنت من دوار " العمدة " ثانية عندما رمقهم الخفير وقف متربصاً بهم ومتحفزاً وهو مندهش ومرتبك ثم وقف " شحاتة " في مواجهته وقال :

- ازيك يا خفير الغبرة .. سيدك " العمدة " الحرامي فين؟

قال الخفير يرجوه :

- روح يا " شحاتة " .. روح .. أحسن جناب " العمدة" مرارته حاتنفقع منك .
- ليه ؟ علشان مص دم العالم وخلى البلد كلها قريت تشحت ؟
- لأ .. علشان انت فضحتوا في البد كلتها .. والناس بتمشي تتأوز عليه !!

ترامى الكلام إلى مسامع " العمدة " فخرج غاضباً وأمر الخفير أن يجرجر " شحاتة " من قفاه ، وعلى الفور هبط " الخفير " درجات السلم الأمامية للدوار وانطلق يعدو خلف " شحاتة " وأطبق على قفاه وجرجره وزج به وسط " المندرة " الواسعة .. فانكب على وجهه ثم اعتدل وجلس مربعاً رجليه وهو يضحك بصوت عال ويشير بإصبعه نحو العمدة الجالس على الدكة الخشبية يدخن الشيشة والشرر يتطاير من عينيه .. بدأ الحديث مع " شحاتة " ملاطفاً بمكر كدابه وزعق

على " الخفير " كي يحضر له الطعام .. أحضر له رغيفين من خبز الذرة الجاف وعليه قطعة من الجبن الأبيض .

حدج " شحاتة " في الخفير وقال ثائراً :

- أنا عاوز فرخة يا حمار !! أبوك " العمدة " على قلبه فلوس أد كده مصها من دم الغلابة !!

برطم الخفير ولم يجب وقال "العمدة " بدهاء :

- بكرة .. بكرة يا " شحاتة " ابقى تعال بكرة !!

وترك من يده " الشيشة " ووقف برهة ثم تحرك خطوتين و" شحاتة " يرقبه و يلوك الطعام في فيه .

ثم استدار " العمدة " صوبه وقال :

- بلاش يا " شحاتة " تجيب سيرتي .. عمال على بطال .. لأن الناس كرهتني بسببك !

نظر إليه " شحاتة " فاغراً فاه وقال :

- الناس كرهاك من زمان يا " عمدة " .. بسبب عمايلك السودة فيهم..

بدأ الغيظ يتملك من " العمدة " :

- يا واد أنا أقدر أوديك مستشفى المجانين وأقول مسبب إزعاج للأهالي .

استمر " شحاتة " في تناول الطعام وكأنه لم يعقل ما قاله " العمدة " .

ثم أردف " العمدة " قائلاً بلهجة فيها إثارة للشعور وتأنيب الضمير:

- أنت نسيت يا " شحاتة " شهادتك الزور ضد " سعيد " ؟

- دا إنت يا راجل جبت له إعدام وهو كان أعز أصحابك وخيره مغرقك .

كان وقع هذا الكلام على " شحاتة " له أثره السيء .

ألقى من يده كسرة الخبز وانتبه " للعمدة " محدقاً فيه بذهول وتحركت شعرة العقل بداخله وتذكر " الشريط " الذي أخفاه عندما كان معافى من الخبل ، وأن هذا " الشريط " به براءة " **سعيد** " وإدانة " حشاف " ومعه " العمدة " وعلى الفور انتفض واقفاً وانطلق كالسهم صوب داره ، وترك " العمدة " حائراً في أمره ضارباً كفاً بكف ، وعندما رمقه الأطفال وهو يجري في الشارع حاولوا اللحاق به ولكنهم لم يستطيعوا فتركوه ووقفوا مكانهم مذهولين .

دفع " شحاتة " باب داره الضخم الذي أحدث صريراً ثم دلف إلى الدهليز واجتازه مهرولاً ثم ارتقى درجات السلم الطيني المؤدي إلى السطح .

كان القمر قد توسط السماء وغمر البلد بنوره الساطع .. وقف حائراً بين " الجرار " السليمة والمهشمة والأحطاب المتراكمة على السطح وأخذ يدفع الأشياء هنا وهناك في حالة من الهستريا محدثاً سحابة من الغبار حتى توصل إلى " الجرة " المدفونة في القش .. دس يده فيها وأخرج منها اللفافة المنغمسة في المش ثم نقلها إلى يده الأخرى ووقف يلعق المش ويمص أصابعه ثم التفت وهبط السلم الطيني ونزع الكيس الغارق في المش وأخرج من داخله " الشريط " ودسه في جيبه وحدقتاه متسعتان .. وتلفت حوله هلعاً كما لو كان هناك أحد يراقبه.

- ١٤ -

كان الوقت فجراً عندما تسلل الحلم الكئيب إلى جسد " سعيد " المحموم وهو مستلق على ظهره في الزنزانة مدثراً بغطائه يتقلب على جنبيه كالراقد على قطع من الجمر تأكل جسمه أو كالمحشور في شق بأعماق الأرض يمتد جسده في هذا الشق ويتلوى كالثعبان .. ولا يستطيع التملص منه .. يحلم بالانزلاق صوب الأرض البراح الملفوفة في الفراغ الأبدي .. تلسع مخه ومضات كهربية كالبرق تلهب خياله وتجعل جسده ينتفض .. أضحى هذا المخ محلاً للذكريات الأليمة التي اختزنته في خلاياه ، وخصوصاً هذه الفجيعة التي ألمت به .

دلائل ملحة جعلت وحش الانتقام بداخله يثور ، وإما أن تدفع به من هذا الشق إلى مجهول يهابه .. أو تجعل هذه الدلائل الملحة من هذا الوحش مطية إلى عالم أخر .

- عالم ليس به النفاق سمة، والغدر طبيعة والمداهنة ذكاء.
- عالم لا يعق فيه الابن أباه ، ولا يظلم الأب ابنه ، ولا يأكل الأخ لحم أخيه .
- عالم ليس به مقهور أو مغبون ، ولا يشعر أهله بمرارة الظلم .
- عالم لا يشعر حامل القيم النبيلة فيه بالغربة ، ولا يشار إليه بالخبل والعبط .
- عالم الحب فيه يعطينا الخلود .

- عالم لا تضيع حدوده ولا تشوه ملامحه .. حتى لا ينهار بالقوي والضعيف معاً .

تلاشت هذه العوالم من ذهنه المشوش عندما بدأ يشعر بأنه في حالة برزخية بين النوم واليقظة وقفزت الذكريات المؤلمة في خلايا اللاوعي .. تحولت إلى صور مشوهة وباهتة .

حينما كان طفلاً في المدرسة الابتدائية ، يجلس على مقعده الصغير في الفصل وكانوا ثلاثتهم متلازمين **سعيد** وفرج وشحاته إلا أن "شحاتة" كان يشعر بالغيرة منهم ، بذلك لما لقيه من حرمان ، وفي إحدى المرات أخذ قلماً من حقيبة " **سعيد** " في أثناء الفسحة وعندما رمقه مع " شحاتة " آثر السكوت ولم يأخذه منه .. بل كان دائماً يعطيه مما معه وهو لا يعلم أن بذور الإحسان ستنبت في الأرض البور كل هذا الشر وأن هذا الشر سينمو في أحشاء " شحاتة " ويكون جزاء الإحسان شراً .

وسأل نفسه :

- ما هي الوسيلة التي تحميك من شر من أحسنت إليه ؟

كان " فرج " ظله بين رجله عندما توجه مع حماه لإحضار تصريح لزيارة ابنه " **سعيد** " في السجن .. قد أعده لهم المحامي مسبقاً .. أصر المحامي على الذهاب معهم في هذه الزيارة.

وعند الباب الرئيسي لسجن الرجال .. أبرز المحامي تصريح الزيارة وقام الحراس بتفتيش الحقيبة ثم سمحوا لهم بالدخول .. اجتازوا حوش السجن ثم ارتقوا درجات السلم المؤدي إلى الردهة الطويلة حيث مكتب " مأمور السجن " الذي اطلع بدوره على التصريح ثم سمح لهم

بالجلوس .. أمر أحد الحراس بإحضار " **سعيد** " من زنزانته .

وقف " **سعيد** " وسط غرفة المأمور فوق السجادة الحمراء الباهتة .. مطبقاً بيده على " الطاقية الحمراء " .. يحملق في وجه أبيه وعيناه تلمعان مترقرقة بالدموع وعلى وجهه ابتسامة هزيلة .

انتفض أبوه واقفاً ساعدته عصاه على النهوض .. ابتلع حسرته داخل أحشائه وهو يتفرس جسد ابنه النحيل .. طأطأ " **سعيد** " راسه محدقاً في الطاقية بيده .. أخذ يفرك فيها ويعبث تفادياً لنظرة الحسرة التي لمحها في عيني أبيه ثم تحرك الأب نحو ابنه رافعاً ذراعيه والعصا معلقه في يمينه وعيناه تسيلان حناناً .

ارتمى " **سعيد** " على صدر أبيه وراحا في عناق طويل .. سمع أنفاسه الثقيلة وخفقان قلبه السريع عندئذ تسلل المأمور خارجاً .

جلس " **سعيد** " إلى جوار أبيه بعد أن سلم على " فرج " والمحامي ثم سأل عن جده " سليمان " وأمه وأخته و " **سعيد**" ابنها .. جلسوا جميعاً يلفهم الصمت .

كانت الكلمات الحزينة تخرج محشورة من فم " الحاج " .

تملكته حالة عصبية جعلت يديه تهتزان بعدما دار بخلده أن الزيارة سوف تنتهي ويخلف وراءه ابنه وحده يلقى مصيره .. هذا هو " **سعيد** " الذي مكثت أمه سبع سنوات حتى أنجبته .. ذهبت خلالها إلى جميع الأطباء والمشعوذين .. إلى أن أذن الله "سبحانه وتعالى" وحملت به .. كان يومها عيد الضحية الكبير .. وفرح جده " سليمان " أيما فرح بقدومه.. فرح فرحة الطفل بهطول المطر .. قدم لحم الذبائح لجميع

أهل " **البجامون** " .. جاء بالمنشدين والمقرئين .. صار ملازماً له لدرجة أنه كان عندما يصيح عليه يقول :

- يا واد يا " همام " .

يجيبه " **سعيد** " كما لو كان هو " همام " فعلاً .

حتى دخل المدرسة وأدرك أن اسمه " **سعيد**" وأن " همام " هذا هو عمه الغائب .

الآن هو في " **البجامون** " يتململ بعد أن ابيضت عيناه على ابنه " همام " الذي مازال يحيا في عقله وعلى " **سعيد** " حفيده الذي لم يحب أحداً مثله .

أخبره المحامي مؤكداً أنه قد قدم الطعن وقُبل ولكن أين الدليل؟ إنه بمثابة القشة بالنسبة للغريق .

التفت " فرج " إلى المحامي حائراً محدثاً نفسه أن الدليل الوحيد المتاح الآن هو " شحاتة " الذي ألم به الخبل ولن تأخذ المحكمة بشهادته ثانياً . نظر " **سعيد** " إلى " فرج " كما لو كان قد شعر بأنه يحدث نفسه بل يعلم ما يدور بخلده ثم سأله عن " شحاتة " .. أجاب " فرج " :

- بأنه قد حصل له خبل ومخه راح .

اتكأ " **سعيد** " بظهره على الكرسي وزفر ثم رفع رأسه ينظر إلى المروحة التي تتوسط سقف الغرفة والهواء البارد يلفح وجوههم الملتهبة.. يهز الستائر الخضراء على النافذة .. قال بابتسامة يائسة :

- سبحان الله .. يعني يشهد عليا زور وبعدين يتجنن .. يعني القضية لبساني لبساني .

أحس " فرج " .. حين سمع " سعيد " وقد تملك اليأس منه .. بقيمة ما معه ، إن القدر قد اتخذه سبيلاً للخلاص .. نظر إلى الحقيبة الموضوعة بجانب المقعد الذي يجلس عليه بابتسامة خفيفة ممزوجة بالفخر ونشوة الفرسان وشرد ذهنه .

لاحظوا هذا الشرود على وجه " فرج " ولم يتكلموا .. نظراته توحي بشيء ما يجهلونه .. عدا " سعيد " الذي رآه في حلمه .

أخذ يحدق فيه عن كثب وعيناه فيهما أسئلة كثيرة .. دنا " فرج" من "سعيد " وبيده الحقيبة وقال له ممازحاً ومهوناً عليه:

- أما أختك " بطة " عملالك حتة بطة .. إنما إيه هتاكل صوابعك وراها .. ثم ضحك ممازحاً :

- يعني إنت يا " سعيد " هتاكل أختك .

حدق فيه " حماه" مقتضباً .. سكت " فرج " على الفور .. همس في أذن " سعيد " وذكره بالحلم .. ثم أشار وقال له هامساً :

- بأن تفسير هذا الحلم داخل هذه البطة .

تملكه الذهول وهو يمعن النظر في وجه " فرج " ثم جال بخاطره أن " فرج " قد ذهب عقله أيضاً مثلما حدث لـ " شحاتة ".

لاحظ " الحاج " هذا الهمس بينهما ولكنه لم يفهم معناه وأدرك أن في الأمر سراً ما .. لكن قلبه كان مطمئناً .

بدا على " سعيد " الشرود في أمر " شحاتة " محدثاً نفسه :

- إننا نظلم المجانين عندما نتهمهم بالجنون .. لأنهم لم يجنوا من تلقاء أنفسهم أو قاموا بشراء جرعات من الجنون ليعاقبوا بها أنفسهم .. هناك بالتأكيد من دفع

بهم إلى الهاوية .. فعندما يكون هناك صاحب رأي مستنير وسط جاهلين .. يكون عندئذ شاذاً لو انه لاقى صعوبة في جرهم من مستنقع جهلهم أو لاقى الجاهلون صعوبة في جره إلى هذا المستنقع .. حينئذ يكون صاحبنا هذا منبوذاً .. ينزوي بعلمه إلى أن يجن فعلاً .

- أو يكون صاحبنا هذا جريئاً ويستطيع أن يقول " لا " في وجه المخطئ .. عند إذن يبحثون له عن صفة تبرر أفعالهم الدنيئة ويلبسونها ثوب الشرعية .. فلا يجدون أمامهم إلا أن يصبغوه بالتخلف العقلي .

شعروا أن الوقت قد انفلت بين أيديهم عندما سمعوا صوتاً يزعق :

- الزيارة انتهت .

نظر " **سعيد** " نحو " فرج " وطلب منه أن يطلق سراح صقره.

شعر " الحاج حسن " حينئذ أن الشمس تدنو من رأسه لتجذبه كي تصهره بداخلها .

أمسك " فرج " الحقيبة .. أخرج منها لفافة بها السجائر والطعام.. أعطاها لـ " **سعيد** " .. وَدَّعوه والألم ينهش في أجسامهم الخائرة ، العرق البارد يتصبب من جباههم ، جاء الحارس ، أخذ " **سعيد** " ، أعاده إلى زنزانته .

خرج " الحاج حسن " مخلفاً وراءه قطعة من جسده المتهالك .. كان " فرج " هو الذي يقود العربة .. حينما طلب منه " حماه " توصيل المحامي إلى منزله بالقرب من ميدان التحرير .

طلب منه أن يعرج بعد ذلك على مسجد " سيدنا الحسين " كي يصلي العصر ويدعو الله أن يكشف عنهم الكرب .. تنفس " الحاج " الصعداء عندما وصلوا أمام جامع الإمام " الحسين " .. صلوا معاً ، انتحى " الحاج " ركناً من أركان المسجد ، جلس متدثراً بعباءته السوداء ، رفع يديه تضرعاً لله "سبحانه وتعالى " ، ترقرقت عيونه بالدموع .

" فرج " يرقبه وعلى ملامحه دلائل التأثر والشفقة بالرجل الذي يوشك أن يفقد ابنه الوحيد .. كان المسجد فسيحاً فيه طراوة منعشة .. تأتي من كل اتجاه .. فيه الأعمدة ملساء مزركشة بالنقش الإسلامي ، الثريات الكبيرة المعلقة تتلألأ في الضوء الأبيض .. الجو يبعث على السكينة .. تجمعات متناثرة .. منهم من يستمعون إلى درس يلقيه أحد الشيوخ ، ومنهم من يقرأ "الذكر الحكيم " ومنهم من هو قائم يصلي .. كانت الأضواء تريح العيون .

أدركوا أن الليل قد عسعس عندما سمعوا أذان المغرب يدوي في أرجاء المسجد .. بل كان الأذان يتسرب إلى داخل المسجد من المساجد الأخرى المحيطة ، كانت مفردات الأذان المتلاحقة تأتي من كل اتجاه .

بعد انقضاء الصلاة خرج " الحاج " وزوج ابنته صوب العربة وسط الجموع التي تخرج محشورة من باب المسجد .. الخانات والمحلات الصغيرة بجوار المسجد تبعث روائح العطر والمسك التي تلاطف الأنوف.. سمع " الحاج حسن " أصواتاً تعلو بالشجار خلفه .. التفت يستطلع الأمر ، رمق جمهرة من الناس يفرقون بين اثنين يتبادلان

الشتائم واللعنات ، علم من أصواتهم المتطايرة أن أحدهم قد دفع بالآخر رغماً عنه فسقط على الأرض فقال له صائحاً :

- ما تفتح .. هو انت عميت ؟

رد عليه الأول بأدب جم :

- أنا آسف يا أخي غصب عني !!

- وأنا أخذت إيه من أسفك .. وكادا يفتك بعضهما بالآخر.

نظر " فرج " إلى " حماه " يحثه على المضي قدماً نحو العربة .. لملم الرجل طرف عباءته وركب العربة .. صفق الباب بضيق .

تحرك " فرج " يقود العربة وسط طوفان من العربات .. لا يكاد يرى البازلت أمامه .. فوق الأرصفة موجات من البشر يعبرون الشارع متخللين العربات في غوغائية .. أضحى الشارع المضاء بالنيون الأصفر خليطا من البشر والسيارات يتحركون كالسلحفاة في ضيق وحنق .. " الحاج " يهز رأسه مستنفراً .. مطبقاً على عصاه بين رجليه .. محملقاً في الأضواء الزاهية والإعلانات المبهرة أمامه .

ظلوا هكذا ثلاث ساعات ثقيلة إلى أن وصلوا ميدان رمسيس ثم عرجوا على الطريق السريع .

عندئذ تنفسوا الصعداء .. أضحى الطريق أمامهم مفتوحاً والأسفلت الأسود مترامياً .. انطلق " فرج " بالعربة يطوي الطريق كانت الرؤية خافتة داخل العربة .. لا تتضح سوى في الأماكن المتراصة بأعمدة النور الأصفر ، أو عندما تسلط إحدى العربات المواجهة لهم بضوئها العالي المجنون.

بدأ " الحاج " يسترجع ما حدث بين الرجلين المتشاجرين .. من الجائز أنهما كانا يصليان معاً داخل المسجد وتعاركا خارجه .. هز رأسه متعجباً من هذه المفارقة ودار برأسه هذا السؤال :

- لما صار الناس لا يطيقون بعضهم البعض ؟ بل لماذا لا يطيقون أنفسهم ؟

- إنهم ينهشون بعضهم البعض بكلمات لا تسر الأذن سماعها ولا يقر أحد بقبولها، وعجب العجاب أن المساجد مليئة ومكتظة بالمصلين .. هم أنفسهم الذين يسيرون في الشارع .. هم من يتشاجرون ويتعاركون ويسبون ويلعنون ويكذبون ويسرقون بل يشهدون الزور أيضاً .. هم أنفسهم الذين يشتكون من ضيق في الأرزاق والمعايش ورفع البركة من الصدور وحقد في القلوب المريضة وفرقة في الصفوف .. معنى هذا كله أننا أعلنا العصيان والتمرد وعدم الإذعان لأوامر الله " عز وجل " ومخالفته والسير في الممنوع وترك الصراط المستقيم الذي حدده لنا الله " عز وجل " ، والعلاج مما نحن فيه هو تحري الطريق المستقيم مرة أخرى والبحث بإخلاص عن الخلاص ونحن نجيب عن السؤال الذي يكرر نفسه دائماً :

- ما هو الضمير ؟

كانت أعمدة الإنارة تنفلت مسرعة من جانب العربة و " فرج " يركز ببصره على خط الأسفلت الأسود الممدود أمامه في ضوء العربة المختلط بذرات الضباب الهابط عليه .. تنبه لذلك " الحاج حسن " ..

حث " فرج " على تقليل سرعة العربة .. وصلوا إلى مشارف البلد حيث توجد لافتة صغيرة على الطريق السريع وبها سهم يشير نحو الطريق الحاصب الفرعي.. مكتوب عليها بالفسفور " **البجامون** " .. عرجوا بالعربة على هذا الطريق وكان الليل قد انتصف والبلدة الصامتة قد التحفت بالظلام الحالك السواد كالكفن .. تترامى الأصوات الباعثة على الفزع كنباح الكلاب وعواء الذئاب التي تعس تحت جنح الظلام .. تبحث لها عن فريسة .

وما أكثر الذئاب الطامعة في هذا البلد !

استقرت العربة في الجرن الواسع أمام دوار عائلة " عبد البر " وبالرغم من أن الليل قد انتصف فإن جميع آل " عبد البر " لايزالون مستيقظين .. قابعين وعلى وجوههم مسحة من الحزن والألم وعند سماعهم هدير السيارة وصفق أبوابها .. انتبهوا .

انتفض " خروع " .. خرج مهرولاً كالثور الهائج صوب السيارة ملاقياً إياهم .. دلفوا إلى الصالة الكبيرة .. الست " إجلال" لم تجف دموعها .. تبكي بحرقة وهي تمسح السائل الأبيض المتساقط من أنفها الأحمر بطرف " طرحتها التولي " السوداء .

همست بصوت مرتعش :

- خير يا " حاج " ؟ أراد " الحاج " أن يدخل على زوجته بعض الأمل المفقود .. حرصاً منه على صحتها.

قال بلهجة فيها شيء من الشفقة :

- خير يا حاجة .. " **سعيد** " كويس وصحته عال العال .. المحامي طمنا وقاللنا المحكمة قبلت الطعن .. "**سعيد**" هايطلع إن شاء الله .

الجد " سليمان " ملفوفاً في عباءته .. قابعاً على الكنبة في صدر الصالة المضاءة بالنيون الأبيض الساطع .. يريع رجليه وعلى رأسه وشاحه الأبيض مدلى على جبهته موارياً عينيه الذابلتين .

حدجه بنظرة باهتة وعيناه مليئتان بالماء وقال :

- " **سعيد** " ابنك هايرجع يا " حسن " .. وأخوك " همام " كمان هايرجع !!

- يا با " همام " هايرجع إزاي .. " همام " في ذمة الله دلوقتي .. ارتاح يابا من زمان .. يا بخته !! قوم يابا خش نام .

غضب " الجد سليمان " وزعق بصوت مبحوح :

- أنا مش هانام .. هانتظر لحد ما يرجعوا !!

وهوى برأسه على مسند الكنبة مستسلماً لسلطان النوم القوي.

قامت " إجلال " بغطائه وزوجها يذرف الدمع بغزارة .

ـ ١٥ ـ

ما إن دلف " **سعيد** " إلى زنزانته .. بعد انتهاء زيارة أبيه و " فرج " والمحامي له حتى عاد ذهنه ثانية إلى البحث والتنقيب .. الأمل الذي بثه المحامي له أحيا جزءاً من روحه وأخمد بعضا من جمرات الغضب المتأججة بداخله .

كان الوقت قد اقترب من العصر عندما رحلوا عنه .. وقتئذ لمح " **سعيد** " من شباك المأمور أن النهار لا يزال متفتحاً .. شغل كل تفكيره الكلام الغريب والهمس الذي بدا من " فرج " زوج أخته وحالة النشوى التي اعترته .. كان الضوء في الزنزانة أصفر يصبغ الحيطان بلون داكن يزيد من كآبتها .

وقف يتوسط الغرفة لحظات .. خلع نعليه وجلس عاقداً يديه حول ركبتيه والكيس الذي أعطاه له زوج أخته لايزال أمامه .. يحملق فيه متمنياً أن يكون المستحيل بداخله كما أوحى إليه " فرج" .

تسللت يداه المرتعشة إلي الكيس .. حدقتاه مفتوحتان .. متوجساً .. قلقاً .. حتى فتحه .. وجد لفة سجائر .. وضعها جانباً وهو يحملق فيها ظناً منه باحتوائها على شيء أسطوري آخر مع السجائر .. لكنه نحى هذا الخاطر جانباً واستمر في تفريغ محتويات الكيس من خبز وخلافه .. إلى أن تحسست يده لفة أخيرة في قاع الكيس .. أخرجها .

مزق الكيس الذي يلفها .. فإذا هي " البطة " التي أعدتها له أخته " بطة ".

نظر إليها وفي صدره شيء ما غامض تجاهها ، ومزاح " فرج " معه حينما قال :

- يعني أنت هاتآكل أختك بطة !!

قام على الفور بفسخها إلى نصفين .. وجد في أحشائها كيساً صغيراً ملفوفاً ومحبوكاً بعناية بالغة .. أخرج ما فيه .. وجد قطعة معدنية صغيرة ومعها ورقة مطوية .. على الفور أخرج الورقة من كيسها الصغير.. قرأها .. وما إن انتهي من قراءتها حتى أعاد قراءتها ثانية وثالثة .. أطبق عليها وتسمرت عيناه في محجريهما محدقاً في الحائط المشوه أمامه.. تجمد جسده .. فغر فاه .. اتسعت حدقتاه من هول ما قرأه .. تراجع للخلف قليلاً .. اتكأ بظهره على الحائط وهو لا يشعر أن تنفسه صار ثقيلاً .. ظل كالمبهوت يشير بأصبعه إلى الوهم أمامه .. يحرك رأسه .. يلوح بكلتا يديه .. تحسبه يكلم أحداً .. ولكنه كان يحاول ترويض وحش الانتقام بداخله .. بأنينه الأخرس وانفعالاته المحبوسة .. هو يعمد إلى هذا الترويض مجاهداً نفسه .. تفتق ذهنه عن تساؤلات كثيرة صامتة تتصارع بداخله .. إجاباتها مشوهة .. حدث نفسه .

- هل يمكن أن يكون قد جاء القدر بالمستحيل .. ؟
- أيمكن أن يكون قد اتخذ القدر "فرج " أداة للخلاص ..؟
- هل يمكن أن يتجسد معنى الصداقة إلى هذا الحد ويضحى هذا المعنى إنساناً .. ؟
- " فرج " .. ؟

يوم أن كنا معاً في المركز .. لزيارة صديقنا المريض .. كان الليل قد تكاثف على البنايات الصامتة حين دلف " فرج " إلى أحد المحلات ليبتاع سجائر وانتظرته أنا بالخارج .

حضرت عربة الشرطة وأنا واقف أنتظره .

توقفت العربة أمامي وهبط منها الضابط مهرولاً وقال لي متغطرساً :

- انت واقف كده ليه يا وله ؟

- منتظر واحد صاحبي يا باشا !!

- صاحبك مين يا روح أمك ؟

رمقت " فرج " يقف في إطار الباب يراقب ما يحدث فتجاهلته حتى لا يأخذوه معي (تحري) .

قلت له بأدب جم :

- لو سمحت حسن ملافظك شوية .

تملك منه الغضب وقال ثائراً :

- بتقول إيه يا خويا ؟ طب اركب .. هاتوه .

انقض علي اثنان كالثيران .. أطبقا بأيديهما على كتفي وزجا بي داخل العربة المعتقة بالكثيرين غيري .. لفت نظري ثلاث فتيات شبه عاريات كن أيضاً محشورات داخل العربة .

انطلقت العربة تعوي في الظلام وتزمجر وأذني كانت بجانب النافذة تجعلني استمع لأزيز الهواء كالسهم .. فجأة كُبحت العربة .. كل من بالخلف زحف إلى الأمام منكباً على وجهه .. تكدسنا فوق بعضنا البعض كالغنم .. سمعت أحدهم يعبث بمزلاج الباب الخلفي يريد فتحه .

زعق علينا كما يزعق الخولي على "أنفار الدودة" في الغيط قائلاً:

- انزل يا واد أنت وهو ياله .. بسرعة يا خويا .. ماشي على قشر بيض يا روح أمك .

عندئذ أدركت أنهم يعلمون قدر حب أمي لي !!

وما إن دلفت إلى ردهة مركز الشرطة حتى شعرت بأني قد ارتكبت للتو جريمة شنعاء .

التفت خلفي.. رمقت "فرج" يتحدث مع أحد الموظفين"بالمركز " ، وما لفت نظري وتعجبت له هو أنهم يضحكون معاً .

أمعنت النظر ثانياً فرمقت " فرج " يدس شيئاً ما في جيب الرجل.. ظننت أنها ورقة .. بعدها أعطاه سيجارة وأشعلها له وهو يهمس بشيء ما في أذنه .

انتابتني ريبة من هذا التصرف .. تظاهرت بأني لا القى بالاً لما رأيت.. من الجائز انهم معرفة قديمة .

لفت نظري رجل نحيل وضعيف البنية كان يتوسل إلى الموظف الجالس أمامي في نفس الغرفة .. كان هذا الموظف ضخم البنية له كرش كبير ووجهه أسمر ممتلئ مبرقط بألوان داكنة وجبهته صغيرة وبارزة والرجل النحيل يقول مستغيثاً :

- أنا يا أستاذ " رزة " مامعاييش إلا خمسين جنيها !

رد عليه المدعو " رزة " :

- أقل من ميتين جنية مش هاخد .. متعطلنيش !

تبين أن هذا الرجل المسكين قد حصل على حكم بتمكينه من عشرة " قراريط " كانت مغتصبة منه والأستاذ " رزة " هذا هو المسئول عن إتمام إجراءات تنفيذ الحكم لكي يتسلم الرجل أرضه من المغتصب .. الغريب أن الأستاذ " رزة " يفعل هذا دونما خوف وأمام زملائه وتعجبت لأن هذا المكان بالذات .. من المفترض أنه هو الذي يحارب المنحرفين .

عندئذ أدركت أن الأستاذ " رزة " هذا قد ورث هذا المكان عن عائلته التي لم تحسن تربيته .. وأنجبت لنا مرتشياً وحرامياً يقف في طابور طويل من الحرامية والمرتشين ليس له آخر .

فجأة سمعت الرجل يصيح .. بعد أن فاض به الكيل :

- والله لأخش للبيه المأمور .. ده انا على ما خلصت الورق من المحكمة كان الموظفين اللي هناك نفضوني.

التفت إليه " رزة " .. هز رأسه ولم يعقب .

همس أحدهم في أذني قائلاً :

- أن الأستاذ " رزة " كان يعمل في مكان آخر وبعد أن استفحل في الرشوة وتفشى أمره .. عاقبوه بنقله إلى هنا .

زعق الضابط علينا مشيراً تجاهنا بحنق :

- تعال يا خويا أنت وهو .

بدأ يسألنا واحدا تلو الآخر وعندما أتى الدور عندي .

زعق :

- اسمك إيه يا له .. ؟

شعرت بعد سؤاله أن اسمي هو الجريمة التي ارتكبتها أو أن هناك شيئاً ما في شكلي لا يعجبه .

ما كدت أفصح له عن اسمي .. حتى تدخل أحدهم كأنه يعرفني معرفة جيدة وقال :

- يا خبر أسود .. انت بتعمل إيه هنا يا " **سعيد** " .. لو الباشا خالك مدير الأمن عرف اللي حصل ده.. حاتبقى مشكلة!

يحدثني متجاهلاً الضابط والكلام كله موجه نحوي .. عندئذ شعرت أن هناك زلزالاً قد حدث ..كل الضباط قد لبسوا أقنعة الرأس وهم يحملقون في " العسكري " الذي قال هذا الكلام .. تذكرت بأن خالي الوحيد قد مات وأنا الآن بلا أخوال .

سأله أحدهم وهو يرجف :

- هو أنت تعرف الأستاذ يا عسكري .. ؟

- أيوه يا أفندم .. ده ابن " الحاج حسن عبد البر " عين أعيان " **البجامون** " .. ولم يتم العسكري كلامه حتى قال له الضابط :

- طب خده من هنا بسرعة وامش ..

أخذني من يدي وخرجنا إلى الشارع حيث وجدت " فرج" ينتظرني.. وعندما رمقني استغرق في الضحك وهو يدس للعسكري ورقه مالية أخرى في جيبه وقال له :

- شكراً يا بلدينا .

تبسم " **سعيد** " .. اعتلت ملامحه فرحة حزينة وهو ينظر إلى سقف الزنزانة باحثاً عن الجمال بداخلها .. قد بلغ منه الجوع مبلغه والبطة السمينة المحمرة ما زالت مشطورة إلى نصفين أمامه .. انقض عليها مسيطراً على هدوئه ورباطة جأشه .. يلوك الطعام وهو يراقب عن كثب القطعة المعدنية الملقاة بجانبه على الأرض .. بالرغم من أن ضوء الزنزانة خافت فإن هذه القطعة كانت تضوي وتبعث أثراً مفزعاً في نفسه .. ألقى الطعام من يديه .. تلفت حوله نحو الجدران السوداء .. حاول أن يظهر نفسه بمظهر القوي المتماسك بالرغم من

فرائصه التي ترتعد وبالرغم من قراءته للورقة المرفقة مع هذه القطعة المعدنية ، وثقته البالغة بـ " فرج " فإنه شعر ـ لكي يتأكد ـ أنه لابد أن يجربها بنفسه .

على الفور أعاد قراءة الورقة التي كانت بمثابة كتالوج لهذه القطعة المعدنية .. أخذ يدرسها بإمعان وتركيز ، وبعد أن انتهى من قراءتها مرات ومرات .

تسللت يده إلى هذه القطعة وبدأ ينفذ ما قراه حرفياً .

كان القلق ملازماً له .. إلا أنه يجيد السيطرة على أعصابه .. لحظة أن يشعر بالفزع أو القلق يعتريانه .. بيد أن وحش الانتقام بداخله بدأ يترنح .. اعتقاداً راسخاً بداخله بأنه :

- "على المرء دائماً أن يبدأ من جديد وأن ندرك أثر التغير بأنفسنا " .

عدل وسادته واستلقى على ظهره وبصره موجه للسقف واضعاً رجلاً على رجل .. يداه متشابكتان تحت رأسه .. تراوده أسئلة أخرى كثيرة .. وكلها عن المستقبل المجهول الذي يؤرق نومه ، هو لا يعلم بأن " فرج " قد مني بالإحباط وخيبة الأمل عندما خاب مسعاه هو والمحامي لأنهما كانا يريدان بإلحاح إثبات براءة " سعيد" .. لكنهم لا يمتلكون الأدلة على ذلك .. سوى هذا المخبول المدعو " شحاتة " ولكنه لا يفيد بعد أن أصيب بالخبل ..

تم تأكيد الحكم في جلسة الطعن .. تلاشى الأمل .. وحدد موعد تنفيذ الحكم .

أبلغ المحامي " فرج " بأنه قد قضى الأمر .. أدرك " فرج " أن المنجى الوحيد أمام " **سعيد** " الآن هو أن يكون قد قرأ الورقة وتدرب جيداً على ما فيها !!

توجه " فرج " نحو دوار " حماه " حائراً لا يدري .

كيف سيبلغه بما قاله المحامي ؟

- هل سيقول له إن ابنك " **سعيد** " سيعدم بعد أيام قلائل ؟

كان الوقت عصراً عندما توجه " الحاج حسن " لأداء الصلاة .. جلس " فرج " متوتراً لأن عليه وحده عبء إبلاغ عائلة " عبد البر " بهذا الخبر المشئوم .. بينما هو جالس يفكر فيما سيحدث .. دخل عليه الجد " سليمان " بعد أن صلى العصر ووقف مواجهاً لـ " فرج " .. يعلوه الوقار والخشوع يقول بثقة :

- ما تقلقش يا "فرج" "**سعيد**" هايرجع و " همام " هايرجع!!

وتركه ودلف إلى غرفته وهو يكلم نفسه :

- لا يمكن الخير يموت .. هه .. يموت إزاي ؟ والشر اللي يعيش ؟

مازال " فرج " جالساً مستغرقاً فيما قاله الجد " سليمان " .. دخل عليه حماه والشيخ " معتمد " .. كانت "صفية " مع " بطة " منهمكتين في إعداد الطعام والدموع تنهمر من حدقتيهما بغزارة .

سألت " إجلال " ابنتها أن تسرع في إعداد الطعام ثم أخذت " صفية " ودلفتا إلى المطبخ وهي تلف رأسها بالطرحة التلي السوداء وتربط رأسها برباط آخر أسود وعيناها حمراوان من كثرة البكاء والنحيب على ولدها الوحيد " **سعيد** " و " فاطمة " تراقب زوجها .

التفتت نحوهم وقالت بصوت مبحوح :

- الغدا جاهز يابه .. لم يرد عليها أحد !!

أدركهم الشيخ " معتمد " مهوناً من المسألة .

حثهم على النهوض لتناول الطعام وهو معهم .. كان " فرج " يلوك الطعام المر على مضض .. ذهنه شارد يختلس النظرات لحماه ولا يدري .. كيف سيبلغه هذا الخبر ؟

جال بخاطره أن ينتظر يومين آخرين ثم يبلغه .. عدل عن هذه الفكرة وفكر ملياً ألا يبلغهم مطلقاً .. خوفاً على حماته .. فاجأه وسأله " حماه " مستفسراً عما فعله مع المحامي؟!

ارتبك " فرج " واهتزت يده وقال :

- خير إن شاء الله يا عم " الحاج " .. خير .. وشرد .

شعر " حماه " بهذا الارتباك .. الح عليه ـ ولولا خوف " فرج" الشديد على صحة " حماته " التي ستروعها الفجيعة بعدما شفيت ومن الجائز أن " فرج " يثق في اختراعه لأبلغهم بما قاله المحامي ـ لكنه سيطر على نفسه ودار بخلده أن معرفتهم لن تقدم ولن تؤخر وقال لهم:

- مافيش جديد .

هز " حماه " رأسه غير مقتنع ولاحظ أن هناك شيئاً ما يخفيه " فرج " التفت نحو " الشيخ معتمد " وحث " فرج " على إتمام طعامه ثم زعق على ابنته " فاطمة "ليسألها إن كان جدها تناول طعامه أو لا ؟

تسلل " فرج " يجرر قدميه .. منهكاً .. رجلاه لا تقويان على حمله .

أخذ ابنه " سعيد " الذي كان يلهو ودلف إلى غرفة " سعيد "

..استلقى على السرير و "**سعيد**" ابنه في حضنه .. عندما دلفت عليه زوجته " فاطمة " وفي يدها كوب الشاي .. وجدته يغط في النوم و" **سعيد** " مازال مستيقظاً يلهو بجوار أبيه .. أخذته وخرجت .. كانت في هذه الأثناء حاملاً وبطنها كبيرة .. وضعت يدها على خصرها وخرجت متوجعة من آلام الحمل .

- ١٦ -

ارتدى " **سعيد** " لباس الصبر .. استعداداً لرحلة الخلود الأبدي في زمن يموت فيه كل شيء جميل .. خضع لحكم القدر الذي لا أحد يفلت منه أبداً .

توضأ .. وصلى تضرعاً لله أن يغفر له .. ظل ينهل من بئر الصبر المحفورة بين ضلوعه وهو متشبث بالأمل المنتحر ..

كان الجو صحواً والشمس ساطعة عندما سمع صوت المزلاج الحديدي يدوي والباب الضيق يفتح محدثاً صريراً مؤلماً .

دلف إلى الزنزانة جمهرة ، أحدهم على كتفيه نسر وعدد من النجوم التي تبرق اتسعت حدقتا " **سعيد** " .. أصابه الذهول عندما أدرك أن الوقت قد حان .

وقف محدقاً فيهم ثم سار من خلال أجسامهم المتبلدة .. مر على باله شريط سينما .. محملا عليه كل ذكريات الطفولة وكل من عرفهم طوال حياته المنصرمة .

شعر بحفيف أجنحة " الصقر " .. حلقت بذهنه صورة جده " سليمان " .. صاحب الدور الأكبر في نشأته .. كان يؤكد دائماً عودة عمه " همام " الذي راح في عام سبعة وستين ولا أحد يعلم إن كان حياً أو ميتاً .. على الرغم من تسرب بعض الأخبار بأن " همام " قد شوهد أيضاً في حرب ثلاثة وسبعين وطوال هذه السنوات والجد " سليمان " يردد بأنه سيعود .. من الجائز أن يكون هذا بفعل الشيخوخة أو هي أمنية اب عجوز .. سمع الضابط وهو يقول :

- نفسك في حاجة يا " **سعيد** " .

التفت نحوه وهز رأسه ولم يتكلم .

تقدم الشيخ بجبته وقفطانه يحثه بشدة على نطق الشهادتين بينما " **سعيد** " يجوب ببصره أرجاء المكان الكئيب .. تقدم اثنان يطبقان عليه في وسطهم وكتفاه في صدورهم .. شواربهم كثيفه تغطي شفاههم الغلاظ .. قام أحدهم بوضع الطاقية الحمراء على رأس " **سعيد**" ، وقبل أن يبدأ الآخر في تقييده من خلاف .. كان قد جذب السلك المدلى على مؤخرته فانفرج الطوق حول رقبته .

وعندما جاءت الإشارة .. شعر بأن شيئاً قوياً مؤلماً جذبه من رقبته.. التى آلمته بشدة كما لو انها قد خلعت .. لحظات وصارت رقبته هي مركز الثقل في جسده الذي يتأرجح .

قد توقف الزمن وأضحى عند الصفر .. كل شيء ثبت على ما هو عليه .

توقف شريط السينما براسه .. أضحت صوره أشباحاً وتماثيل جامدة لا حياة فيها .

انقطع إحساسه بالعالم الخارجي .. راح في غيبوبة الوهم .. بأنه فارق الحياة الدنيا .. عندما تحررت رقبته من الألم .. بدأ يشعر بتوازن جسده المترنح .. بدأ الوهم يتلاشى .. دبت الحياة في جسده ثانية .. هل هي الحياة الدنيا ؟ أم هي حياة أخرى ؟ أم ..

بدأ يحاور نفسه ثانيةً .. صدع في رأسه كلام الشيخ " معتمد " وكلام جده " سليمان " ومغامراته مع الصقر .

بدأت ذاكرته تعود ببطء ثم نشط وتساءل :

- هل جاء البحر بكل الخيرات الملقاة في أحشائه .. ؟

- نعم .

- " سعيد " راجع ؟

- نعم .

كان هذا كلام الجد " سليمان " الذي ردده دائماً .

- هل تمكن من قتل وحش الانتقام بداخله ؟

- نعم .

انطلقت العربة تزمجر في طريقها إلى المشرحة .. كان " فرج" منتظراً هناك .. الهلع يعصره حتى رمقهم يهبطون من العربة .. " سعيد " مستلق على ظهره فوق الترولي الصدئ الذي تتراقص عجلاته وتحدث صريراً مثل صراخ الفئران .

ارتقوا به الدرجات المهشمة اجتازوا الردهة المظلمة .. ازداد صراخ العجلات المتراقصة على البلاط المكسور وصار المستشفى مليئاً بالفئران.. رفرفت جفونه تحت الغطاء الأبيض .. أبصر من خلفه صوراً مشوهة .. توقف الترولي أمام باب المشرحة .. كان الباب موارياً عندما تسلل " فرج " وتوارى تحت المنضدة الكبيرة في وسط الغرفة الباردة المعتمة .. المصفوف على حوائطها أرفف بها أدراج طويلة صفراء تصدر منها روائح كيماوية تزكم الأنوف .. بقع الدم الجاف تصبغ البلاط حول المنضدة .. ارتجف جسده من شدة البرد .. من شدة الهلع .. من الترقب المشوب بالحذر .

دلفا بالجثة النابضة بالحياة إلى غرفة المشرحة .. تبعهم رجل يرتدي بالطو أبيض .. همس في أذن أحدهم مشيراً نحو الجثة :

- هي دى ؟

- أيوه يا دكتور .. لسة طازة اختار منها اللي يعجبك !!

خرجا من المشرحة .

وقف الطبيب يعبث في أغراضه بانفعال .. كان " فرج " قد استأجر رجلين للإلهاء .. افتعلا مشاجرة في الردهة أمام باب المشرحة .. علا صياحهما .

ترك الطبيب أدواته .. هرع يستطلع الأمر .

تجمع الموجودون وصارت جمهرة وقبل أن يعود الطبيب إلى المشرحة كان " فرج " قد نبه " **سعيد** " وساعده في تبديل ملابسه.

تسللا من المشرحة مهرولين إلى الخارج .. حيث العربة .. انطلقا كطائرين تحررا للتو .

شعر " **سعيد** " بلذع الشمس على ظهره .. انطلقت العربة تأكل في الطريق نحو " **البجامون** " .. يراقب ملامح " فرج " المتهللة .. بينما يحس اضطراباً بداخله .

حدق فيه " فرج " بنظرة ممزوجة بالفخر بما أنجزه .

هدأت العربة وتوقفت أمام أحد المطاعم وهبطا منها معاً .. تعانقا عناقاً طويلاً يلفهم الفراغ الأبدي .. أجهشا بالبكاء الممزوج بنشوة الفرح .

دلف " فرج " إلى داخل المطعم وخلفه " **سعيد** " متوجهين نحو منضدة في ركن قصي بجوار ستارة حمراء مسدولة على الزجاج الأسود .. كانت رائحته الكيماوية لازالت عالقة به .. أتى إليه النادل .. ظن " فرج " أنه سيلتهم كل ما يقع في طريقه ولكنه لم يطلب إلا

فنجاناً من القهوة مع الماء البارد .. انطلقا ثانية قبل أن يرخي الليل سدوله .. كان " **سعيد** " يرى الأشياء حوله .. كما لو أنه لم يرها من قبل .. كلها جميلة بعد أن تمكن تماماً من قهر وحش الانتقام الذي كان يثور بداخله .. " فقد وفيَّ البحر بوعده " .. رد إليه كل ثمار الطيبات التي كان قد ألقاها بأحشائه .. مالت الشمس للمغيب .. بدأت أعمدة الطريق تبعث ضوءها الأصفر المشتت في الفراغ .. شعر بأن النجوم تتراقص في السماء فرحة بقدومه .. كل الأشياء فرحت وهللت .. هتفت منتشية بقدومه .. حتى الجمادات تفرح إذا لمسها أو وطئها رجل صالح .. الكون له حسه ولغته التي لا نألفها .. أصحاب الأفئدة الرقيقة هم فقط من يشعرون بنبض الجمادات وهمسها .

تنفس هواء الحرية ثانية .. انشرح صدره .. تحركت بداخله القيم النبيلة الخاملة .. ارتسمت على ملامحه الابتسامة الضائعة .

عرج " فرج " بالعربة على الطريق الحاصب المؤدي لـ " **البجامون** " .. وجد نفسه مفعماً بالهم الثقيل .. فكر في مدى تأثير هذه المفاجأة الغريبة .. عندما يرون "**سعيد** " يحلق في البلد من جديد .. رمق " **سعيد** " من نافذة العربة " القصر المهجور " الذي أنقذ منه منى.. التفت إلى " فرج " بلهفة العاشقين وقبل أن يستفسر منه عن شيء .. فهم " فرج " وبادره :

- منى اتجوزت يا " **سعيد** " !!

تملكه الوجوم وتخدر جسمه من هول الصدمة .

أردف " فرج " يتلمس لها العذر .. مخففاً عن " **سعيد** " واضعاً أمها في مأزق كبير وحملها المسئولية لإصرارها على زواج ابنتها من آخر .

تنهد " **سعيد** " دون كلام .. قلبه تمزق من سماعه هذا الخبر .

أشعل سيجارة وأخذ ينفث سمها الملتهب بعنف .. استقرت العربة أمام " دوار عائلة عبد البر " .. بينما " ميلص " ومعه " خروع " يتريضان على قارعة الطريق كانت عندئذ الرؤية ضعيفة بسبب تكاثف الظلام .. إلا من ضوء خافت ينبعث من الفراغ متخللاً الأشجار الكثيفة الموحشة .. ارتعد " خروع " عندما رمق " **سعيد** " واقفاً في الجرن .. تجمد وهو يمسك بيده على مرفق " ميلص" .

تملكه الذعر وصاح :

- عفريت .. عفريت .

قفز " ميلص " من مكانه متشنجاً :

- فين .. فين ؟

تذكر " خروع " الماضي .. عندما سأل " **سعيد** " عن الجن العفاريت .. وقال له " **سعيد** " حينذاك :

- بلاش تخاريف ..

ثم اكتشف " خروع " حينها أن " **سعيد** " هو العفريت أبو رجل خشب ويومها انتابته حالة من الهذيان لمدة أسبوع ظل خلال هذه الفترة كالممسوس .

دنا منه .. يرقب رجليه وهو يسمع خفقان قلبه السريع .

تبعه " مليص " كالمأخوذ .

أخذ "خروع" يحدق في رجليه سائلاً نفسه :

- يا ترى له رجل خشب .. ولا لأ ؟ .. إذا كانت رجله خشب .. يكون هو الجن بعينه .. أما إذا كانت رجليه من لحم ودم .. يبقى هو " **سعيد** " !

لم يتأكد بعد .. هل هذا هو " **سعيد** " فعلاً ؟ أم عفريته .. وقف " **سعيد** " وسط الجرن .. مواجهاً لباب الدوار وسط الضباب الهابط عليه بكثافة كالدخان .. ملابسه تواري رجليه .

انطلق " خروع " يعدو صوب الدوار وخلفه " ميلص " صائحين :

- يابا الحاج .. يابا الحاج .. عفريت " **سعيد** " .

خرج الحاج مذعوراً .

رمق ابنه قادماً نحوه باسماً .. تعانقا عناقاً طويلاً .

بعثت الحياة من جديد في جسديهما .

هرعت " إجلال " وابنتها " فاطمة " .. باكيتين .. ضاحكتين .. ولايزال " خروع " يراقب رجليه مذعوراً ، وعندما شعر " **سعيد**" بذلك زعق عليه .. هرول إليه " خروع " معانقاً والدموع تنهمر من حدقتيه كالشلال على وجهه الممتلئ وبالمثل فعل مع " ميلص " .

وقف " خروع " متوجساً .. لايزال يحاول التأكد من رجل " **سعيد** " الخشبية .. بالرغم من أنه قد سلم عليه وعانقه .

أحس به "**سعيد** " .. رمق عصا جده بجواره .. استلها ببطء .. أخفاها بجانبه وسأل " خروع " :

- أنت لسه فاكر الرجل الخشب يا " خروع " ؟ .

أجاب " خروع " واثقاً :

- أنا متأكد المرة دي إنك " **سعيد** " لكن " **سعيد** " الثاني رجله كانت خشب !

وضع " **سعيد** " عصا جده مكان إحدى رجليه ورفعها في وجه " خروع " قائلاً :

- خشب إزاي .زي دي ؟

صاح الجد " سليمان " من الداخل وهو في طريقه إلى الصالة:

- العصا بتاعتي فين يا ولاد ؟

عندما رمق الجد " حفيده " بالنور الخافت المتبقي في عينيه .. ضحك فظهر فمه الخالي المتقلص وقال :

- مش قلتلكوا " **سعيد** " حايرجع ؟

وراحا معاً في عناق طويل امتزجت فيه حرارة جسديهما .

قام " فرج " بغلق الباب .

حذر بشدة من أن يعلم أحد بخبر خروج " **سعيد** " .

تسلل الشك إلى قلب الحاج " حسن " .. تملكه القلق .. نظر إلى " فرج" نظرة ملؤها التساؤلات .. لم يستطع لسانه أن ينطق بها .. قرر أن يرجئ أي استفسار مؤقتاً حتى يزول أثر المفاجأة .. سكت وفي نفسه شيء ما .. شعر " فرج " وقرأ انفعالاته المحبوسة التي ارتسمت على ملامحه بينما ظل " **سعيد** " يجيل النظر في أرجاء الدوار الواسع كما لو كان قد عثر على شيء مفقود منه .. و " فرج " يتابعه باسماً .

دلف " **سعيد** " إلى غرفته ضغط علي قابس الإضاءه .. امتلأ صدره بالشهيق وهو يحملق في الحيطان والسقف حتى وقع بصره على " القفص " الفارغ الملقى في ركن الغرفة .. تقدم صوب النافذة .. أطل منها برأسه.. لم يجد أي أثر " لغيط الكرنب " .. وجد الأرض خالية سوداء .. توجه نحو خزانة ملابسه .. أخرج منها ملابس نظيفة .. ذهب إلى الحمام .. زالت منه الرائحة الكيماوية .. توجه حيث السرير الذي

وحشه ، اضطجع على شقه الأيسر .. غرس كوعه في الوسادة اللينة .. قام بإشعال سيجارة ونفث دخانها إلى أعلى .

قفز إلى ذهنه الحلم الذي رآه في " غيط الكرنب " .. رغماً عنه بدأ يعصر ذهنه في هذا الحلم .. ثم تذكر أيضاً عندما كان يتريض ساعة الغروب ووجد نفسه على الناحية الأخرى من (الغيط) عندما لمحته " صفية " ولحقت به .. هنا .. وفي نفس اليوم .. أفصحت له عن مكنون قلبها الذي تجاهله حينذاك .

شعر برجفة عندما تذكر حلمه وهو يتجسد أمام عينيه .. تذكر الصقر الطليق .. بعدما سافر " **سعيد** " داخل هذا الحلم بسرعة الضوء .. حيث توقف الزمن .. وخرج من هذا الحلم ومعه الصقر القادم من زمن المستحيل .. هذا الحارس الغائب الذى لا يعلم بعودة " **سعيد** " أو من الجائز أنه يقوم بمهمة ما في مكان ما أو في زمن ما .. زمن لا يكون فيه فقط مجرد شعار ، أو صورة على ورقة بالية ، أو مجرد رمز للانقضاض والقنص .. بل زمن تقترن فيه الصفة بالموصوف .. لم يطرأ على بال " **سعيد** " أن يكون هو " صقر قريش " مثلاً .. لأن هذا الصقر قد ذهب بعد أن أدى دوره على أكمل وجه ولا يعلم ماذا حدث بعده .. صقر واحد لن يكفي بل يجب أن يقف صقر على كل باب .. يكون هو الحارس الأمين .. هو الآن حر يذهب إلى أي مكان شاءه .

قام بإطفاء سيجارته استلقى على ظهره وضع يديه متشابكتين على صدره بينما هو ممدد .

بدأ القلق يزحف نحوه ببطء .. شعر أن ثمة شيئاً ما ناقصاً .

لماذا لا تتم الأشياء دائماً على أكمل وجه ؟ هناك دائماً شيء ناقص .

نعم .

فالكمال لله وحده .

اعتلت ملامحه ابتسامة ممزوجة بالمرارة .

حاور نفسه :

- أنا الآن لا أملك حرية الصقر الطليق !!
- لماذا يكون الماضي الأليم له القدرة على سحق الجمال وتدمير الأمل ؟
- هناك خطأ ما .. حلقة مفقودة وغالباً ما تكون هناك أخطاء وحلقات مفقودة .. فلولا أن القدر قد تدخل واتخذ " فرج " أداة للخلاص .. لكنت الآن في طريقي إلى العالم الأبدي .. عالم السكون والهدوء .. ليس فيه خداع ولا غش ولا خيانة .
- عالم ندم فيه من عمل الخير ولم يزد منه ، وندم فيه من عمل الشر ولم يتب عنه .
- عالم كلنا ذاهبون إليه رضينا أم أبينا .. " ولا أحد يتعظ حتى يأتيه قدره بما يستحق " ، ويعيش حالته بنفسه فأنا الآن بالرغم من أني أشعر بحريتي فإن وجودي ناقص .
- فأنا الميت الحي .. أحيا بين الموت والحياة .. أو أموت بين الحياة والموت .. هي أشبه بحياة برزخية ولكنها محسوسة.

- لا شك أن هذا محض اضطراب في حواسي .. بل في أعماقي بدليل :
- أني أشعر برغبة مفرطة في البكاء ولكني لا أستطيع .
- هل هو كبرياء الرجل ؟ أم تحجرت الدموع ؟
- محظوظ من وُهب القدرة والسيطرة على ضبط نفسه عند الضرورة..

اعتدل في جلسته .. عقد يديه حول ركبتيه .. أدرك أن ليله سرمدي .. بدأ خياله يهيم رغماً عنه .. يتخبط في قطع الليل السوداء يبحث عن نفسه داخل نفسه .. عن غاية يستطيع أن يعيش من أجلها .. ظل هكذا حتى أتى إليه من أنقذه من حالته الأثيرية المؤلمة .

- ١٧ -

تنبه على صوت العصا التي يتوكأ عليها جده وهي تضرب الأرض بانتظام .. يدنو طرقها رويداً رويداً من الغرفة .. حملق في الباب المغلق.. في انتظار من يدفع به .. سكن الضرب أمام باب الغرفة .. لحظات وسمع الطرق بعنف يدوي على الباب .. انتفض واقفاً .. هرول صوب الباب .. قام بفتحه باسماً .. منشرح الصدر .

دلف " الجد " إلى غرفة " حفيده " متهللاً .. عاونه حتى استقر على المقعد بين السرير والنافذة .. وهو يلهث .. يده ترتعش بالعصا .. لقفتها يده الأخرى .. عدل شاله الأبيض الذي يتوشح به .. أدرك " **سعيد** " أن هناك أمراً جللاً يريده فيه " جده " لأنه كان دائماً الأقرب لديه .. حدق فيه " الجد " بالنور المتبقي في عينيه ثم أشاح بوجهه عنه ولم يتكلم .

- مالك يا " جدي " ؟

قال الجد بحكمة العقلاء :

- شوف يا " **سعيد** " .. فيه ناس ربنا بيخصهم بأشياء دون غيرهم .. قلوبهم رقيقة شفافة .. لا يعرفون الكره .. قلوبهم مخازن للحب .. يرون علامات معينة .. ممكن في الحلم وممكن في الحقيقة .

وهو جالس أمام " جده " على حرف السرير في أدب جم .. على ملامحه علامات الترقب .. حدقتاه متسعتان .. بدا عليه الذهول عندما شعر أن " جده " يدنو من أشياء يشعر بها .. لكنه لا يستطيع أن

يميزها ، وكلما تكلم الجد كلما اقترب " **سعيد** " من فك الرموز .

هكذا أوحى إليه الجد .. بدا عليه الارتياح وهو مصغٍ إلى الكلام الذي يخرج من فم جده المتقلص .

أرهف له أذنيه .

شعر به يدنو كثيراً من الحلم وليس مجرد وهم صنعه خيال جده الطليق .. بيد أن هذا الكهل يحمل بداخله التاريخ طولاً وعرضاً .. برغم أن هناك أجزاءً كثيرة من هذا التاريخ لا نعلم حقيقتها .

هل ما دون لنا هو التاريخ على حقيقته ؟

أم هو الحد المسموح به فقط ؟

سكت الجد لحظات يلملم فيها قواه .

احتوى " **سعيد** " ببصيص النور في عينيه الباهتتين .

استطرد بهدوء يبعث على الملل واضعاً كلتا يديه أعلى عصاه :

أنا قلت " **سعيد** " هايرجع .. وأديك رجعت .

ثم سكت ثانياً لحظات وأردف :

- أبوك فاكرني .. كبرت وخرفت .. بياخدني على قد عقلي .. ثم بدا الجد نافراً :

- طول عمره أبوك عايش لمزاجه .. يحب نفسه فقط .. ومن يوم عمك " همام " ما راح الحرب وهو افتكر نفسه بقي الكبير وخايف من رجوعه من أجل الميراث !!

شعر " **سعيد** " أن جده خرج عن الموضوع ، ولا يعلم عن " عمه " شيئاً أكثر من صورته الكبيرة المعلقة في غرفة جده ، وأن هذا "العم" قد ذهب إلى الحرب ولم يعد .

- هايرجع ازاي يا جدي ؟

- زي أنا ما رجعت من ثمانية واربعين بأعجوبة !!

وأزاح الجد جسده الخائر للخلف ورفع عصاه وضرب بها الأرض وقال:

- ولو ما كانش السلاح الفاسد .. كان حالنا دلوقتي بقي غير الحال .

شعر " **سعيد** " بالمرارة والألم يعتصران جده .. أراد أن يداعبه مخففاً ومسرياً .

لكن الجد نظر إليه شذراً ولم يبال .. لحظات قليلة مرت .. حرص على مشاعر حفيده .

ابتسم له ابتسامة باهته كشفت عن فمه الخالي المتقلص .

تنهد وقال :

- فيه ناس شافوه وقت العبور ، وناس شافوه بيرفع العلم على الضفة الشرقية وناس شافوه في قلب سيناء وناس .

- بس يا جدي الحرب خلصت من زمان .. مرجعش ليه ؟

- الغايب حجته معاه .. يا ابني .

أطبق الجد على عصاه بشدة وأراح عليها رأسه الثقيل مرتكزاً بذقنه على راحتيه :

- مش أنا قلت لك إن ربنا بيخص ناس بأشياء أو إشارات عن غيرهم.. زي الحلم اللي أنت شوفته !!

عندئذ تجمد " **سعيد** " مكانه من هول المفاجأة التي فجرها الجد.

فلم يدن من حلمه فقط بل اقتحمه ايضاً :

- أنت عرفت إزاي يا جدي ؟ .. " فرج " اللي قال لك ؟

تشبث الجد بالعصا ومسند المقعد كي ينتصب واقفاً .. أسرع وأمسك بيده ليساعده على صلب طوله وهو يكرر السؤال إلى جده.

خرج الجد من الغرفة بخطوات ثقيلة .. وهو يتفرس وجه حفيده كأنه يودعه .

توجه إلى غرفته ولم يجب على سؤال " **سعيد** " وأبى أن يساعده حفيده في الوصول إلى الغرفة بشيء من عزة النفس .. ليؤكد لحفيده أن صحته مازالت شديدة .

تركه " **سعيد** " مرغماً وعلى وجهه كل علامات الاستفهام وهو يتابع جده يضرب الأرض بعصاه مهمهماً : هه .. هه .. يا رب .

دلف الجد إلى غرفته .

عندئذ رجع " **سعيد** " يجرجر رجليه مستشعراً الصبح وهو يتنفس والحياة التي بدأت تدب في الكائنات خارج غرفته .

" اختفاء جثة من المشرحة في ظروف غامضة " .. كان هذا هو عنوان الخبر في جريدة " الأهرام " وبجانب هذا الخبر صورة " **سعيد** " وهو في القفص الحديدي .

قرأ " ميلص " الخبر في الجريدة التي أتى بها من المزلقان بعد أن تنفس الصبح ودبت الحياة في البلد .

على عجل أخذ الجريدة وتوجه إلى دوار " الحاج حسن " .. وعلى الباب رمق " خروع " وهو يهرول .. منهمكاً في بعض الأعمال .

فسأله عن " **سعيد** " .

أجاب " خروع " :

- بأنه لايزال نائما .. تفحصه بنظره حائرة وعاد منطلقاً يعدو صوب الطاحونة .

بدت على ملامح " خروع " الكبيرة علامات تعجب واستغراب وهو يغمغم :

- عليا النعمة الواد ده ملطوط .. أه العفاريت لبساه !!

ثم دلف إلى الدوار ليوقظ الحاج " حسن " كعادته .

قعد " ميلص " على الحرف الخشبي المواجه " لقادوس الطاحونة " يؤرجح رجليه في الهواء وفي يده الجريدة يطالع الخبر وهو يرجف :

- في ظروف غامضة اختفت جثة " **سعيد حسن عبد البر** " وذلك بعد تنفيذ حكم الإعدام فيه وكان متهماً بقتل اثنين وعثر بحوزته على حقيبة مليئة بالمخدرات وعقب وصول جثته إلى المشرحة " الطب الشرعي " ، وبسؤال القائمين على إيداعها المشرحة .. اقروا بأنهم بعد أن استلموها تم إيداعها بالفعل في المكان المخصص لها ، وبعد لحظات سمعوا مشاجرة خارج الغرفة تركوها على الطاولة الكبيرة وخرجوا صوب الردهة لاستطلاع ما يجري ، وعندما عادوا لم يعثروا عليها .. اختفت كما لو أنها قد تبخرت في الهواء .. وتم الإبلاغ .

- وبسؤال السيد " رئيس المباحث " قرر صحة هذه الأقوال وافاد بأنه تلقى بلاغاً من المستشفى يفيد اختفاء الجثة ، وأنه جاري الآن كشف غموض الحادث.

ظل " ميلص " كالمأخوذ وهو لا يزال قابعاً في مكانه على الحرف الخشبي المواجه " لقادوس الطاحونة ".

أخذ يعبث بشعره المنكوش في ذهول .. وعيناه زائغتان حتى دلفت من باب الطاحونة امرأة تجرجر ثوبها الأسود وتحمل على رأسها " قفة " .. صاحت عليه :

- مالك سرحان كده ليه يا مدهول ؟ قوم شغل لطاحونة!!

عندئذ تنبه " ميلص " .

نهض والجريدة بيده وضعها على المكتب الخشبي العتيق الذي يجلس عليه أحياناً في عدم وجود الحاج " حسن " .

حركاته تفتقد التركيز .. قال :

- حاضر يا ستي .. ثواني وأشغل الطاحونة .

ولا يزال شارداً يحدث نفسه :

- " سعيد " اتشنق ومات ؟

- يبقى مين اللي في دوار " الحاج حسن " ده ؟

- هي الجرايد عمرها تكذب ..

- وما دام الحكومة قالت مات .. يبقى أكيد مات !

بدا الأمر مثيراً أمام عينيه ، وتمكنت الأوهام من رأسه .. بينما هو مستغرق في أوهامه .. أتى إليه " خروع " مهرولاً .. مستفسراً عن سبب سؤاله عن " سعيد " .. لم يجبه " ميلص " ولكنه أشار بأصبعه نحو المكتب الخشبي .

لم يفهم " خروع " شيئاً وبدت عليه البلاهة وساوره الشك بأن " ميلص " هذا " ملطوط " وأطبق عليه الخبل .

جفل إلى الخلف مذعوراً .

تعجب " ميلص " من هذا التصرف الأحمق واتهمه " بالعبط" .. نهض من مكانه .. أحضر الجريدة .. أعطاها له " اعتقاداً منه بأن " خروع " يعرف القراءة .

أمسك " خروع " الجريدة وأخذ يعبث فيها ببلاهة :

- ماله الجرنان ده ؟ .. آه ورقه كتير ومليان صور .

أدرك " ميلص " بأنه لا يعرف القراءة .

جذب منه الجريدة بغيظ .

فتحها على الصفحة التي يوجد بها صورة " **سعيد** " ، وعندما رمق " خروع " الصورة هلل :

- مش دي صورة سي " **سعيد** " ؟

نظر إليه " ميلص " باستياء ثم هز راسه وقال :

- ده موش " **سعيد** " !

- يعني إيه موش فاهم .. ؟

- " **سعيد** " ابن أبوك الحاج " حسن " .. شنقوه !!

وهنا بدأ يتأكد " خروع " بأن الجنون قد أطبق على " ميلص" بضراوة وأن الجن قد تمكن منه .. وأنه فعلاً " ملطوط " .. حملق فيه مذعوراً وهو يحاول الهرب من أمامه ولكن " ميلص " أدركه قائلاً :

- افهم يا أبو مخ تخين .. الجريدة قالت إن " **سعيد** " اتشنق !
وجثته اتسرقت !

تملك الغضب من " خروع وصاح ثائراً :

- الجريدة تقول اللي تقوله .. " **سعيد** " نايم في الدوار .

- يا أخي افهم .. مادام الحكومة قالت مات يبقى مات !

بدت على " خروع " علامات الذهول ووقف متجمداً فاغراً فاه من هول المفاجأة ثم خطف الجريدة من يد " ميلص " وفر بها .. يواريها داخل جلبابه الواسع .

كان الجو عصراً عندما استيقظ " **سعيد** " من نومه وقد استغرق فيه طويلاً ، وأهل الدار كانوا قد تركوه حتى يأخذ حظه منه بوفرة .. تقلب على جنبيه بكسل ثم على ظهره ثم دس رأسه تحت الوسادة .. كان الضوء المتسلل من النافذة قد أجلى الظلام من الغرفة .. ثم سمع صوت خربشة ونقر على النافذة من الخارج .

رفرفت جفونه برهة .. ثم فتحها وهو يرهف أذنيه .. رفع الوسادة عن رأسه .. نهض مسرعاً .. فتح النافذة .. رمق " صقره" حائراً بالخارج يريد الدخول إلى الغرفة كما لو كان قد شم رائحة "**سعيد**" بداخلها .

تبسم " **سعيد** " وبدا عليه الانشراح وهو يمد له ذراعه من خلال النافذة .. ليأتي الصقر ويقف عليها منكمشاً ورأسه غائر بين جناحيه و" **سعيد** " يتحسس ريشه برقة وحنان ثم صاح على " خروع " لكي يأتي له بقطعة من اللحم .. ترحيباً بعودة الصديق الغائب .

جاء إليه "خروع " ووقف يحدق فيه بذهول .. جال بخاطره الكلام الذي سمعه من " ميلص".. وقف يرجف أمام " **سعيد** " ويده ممتدة بقطعة اللحم والجريدة تحت إبطه .

اقتحمت رأسه ثانية حكاية " نوفل والعفاريت " التي حكى له عنها .. وحينذاك جعله " **سعيد** " يرجف بل أفقده الثقة بنفسه .

وضع " خروع " قطعة اللحم على حرف المنضدة .. يده ترتعش .. قلبه يخفق بسرعة .

لاحظ " **سعيد** " هذا التغير على " خروع " وفوجئ عندما قال له " خروع " :

- هو أنت مين يا سي " **سعيد** " بالضبط ؟

هز " **سعيد** " رأسه متعجباً :

- ماذا حدث " لخروع " ؟ هل أصيب بالعمى ؟ أم بالخبل؟

- أنت اتجننت يا " خروع " ؟

- هو أنت عفريت سي " **سعيد** " .. أبو رجل خشب ؟ " بسم الله الرحمن الرحيم " .

ألقى بالجريدة على السرير وهرع " كالفيل " المذعور خارجاً .. لقد خلط " خروع " بين الإنس والجن .. بين الملاك والشيطان .. اقتنع بوجود مخلوقات غيبية تعيش في عقله هو ، وهو الوحيد الذي يراها وقتما شاء .

دنا " **سعيد** " من قطعة اللحم .. أمسكها بين أصابعه .. وضعها للصقر في قفصه المعلق في ركن من الغرفة .

أخذ الصقر في نهشها .. ابتسم " **سعيد** " من تصرف " خروع" الذي هرول من أمامه .. التفت نحو الجريدة التي خلفها على السرير وخرج .. ساوره شك بأن لهذه الجريدة علاقة لما حدث لـ "خروع " الذي لم يره ممسكاً قصاصة ورق من قبل .

أخذ يقلب صفحاتها حتى وقع بصره على صورته في صفحة الحوادث .. تغيرت ملامحه وهوى على المقعد خائراً .. شعر أن الغرفة تدور به ، وما إن انتهى من قراءة الخبر حتى تفككت أوصاله وتملكه الهلع.. أضحى لا يستطيع السيطرة على جسمه الهامد .. كان الخبر قد شاع بين أهل " **البجامون** " جميعاً .. عن موت " **سعيد طير البر** " شنقاً .. صار مثار الحديث بينهم .. بعد معرفة الخبر من الجرائد .

ما أسهل تفشي الأخبار .. فالخبر السيء يتفشى كالعدوى بين الناس.. ما إن خرج من في أحد حتى يضحى كالأثير ، كانت مضيفة " العمدة " هي محطة الإرسال والاستقبال الأرضية في البلد .. حاشدة بالناس من أهل البلد .. يتحدثون في هذا الأمر .

بدأت القصص الأسطورية تستعيد مجدها في دوار " العمدة " .

ما أسهل أن نخسف بالأبطال الأرض ! وما أسهل من أن نجعل من القرود أبطالاً !

تملك الغضب من " الشيخ معتمد " وثار عليهم بحدة :

- الخير لا يمكن يموت أبداً يا بشر ! حتى لو " **سعيد** " مات " الخير اللي عمله مع الناس " .

وأشار بيده في وجوههم الشاحبة .

وأردف :

- لا يمكن يموت أبداً .

شعر العمدة " السباعي صالح " بالحرج وقال مراوغاً للشيخ " معتمد " بمكر :

- يا مولانا .. مش أنا اللي بقول الكلام ده .. الحكومة اللي

بتقول .. ولما الحكومة تقول شيء لازم نصدقها .

- لأ مش لازم !

- لأ لازم .

هز" الشيخ " رأسه مقتضباً ولملم طرف عباءته بانفعال وانصرف دون كلام .. متجهاً صوب دوار " الحاج حسن " .

كان الظلام قد هبط وغمر البلد وأذان العشاء يسري في أرجائها مخترقاً البيوت الجامدة والناس يسعون مهرولين صوب الجامع الكبير وسط البلد .. خلف الإمام " الشيخ معتمد " .

وبينما الشيخ في دوار " الحاج حسن " بعد صلاة العشاء .. كان شعبان البقال بديل شحاتة لدى العمدة في القهوة .. في أثناء تجمع الناس وهم يشاهدون المسلسل العربي ونشرة الأخبار .. وضوء النيون ينعكس على وجوه الجالسين السمراء .. بعض منهم يلعب " الدومنا " .. وقف " شعبان" في إطار الباب يرقبهم ثم تلفت حوله وسحب مقعداً واندس بين جمهرة ممن يعرفونه جيداً تفرسهم بمكر وعيون زائغة .. وضع الجريدة على المنضدة .. أبرز صورة " **سعيد** " لبعضهم .. بينما بقيتهم منهمكين في متابعة التلفاز، وإذ بأحدهم يرمق صورته في الضوء الباهت فقال بهبل :

- مش هي دي صورة " سي **سعيد** " ؟

رد " شعبان " بمكر :

- لأ يا أخي ده واحد تاني .. بينما يزج بيده الجريدة كأنه يقول لهم .

- هلموا اقرءوا الخبر العجيب !!

وبالفعل تطاولت الأيادي لتأخذ الجريدة .. خطفها أحدهم .. أخذ يقرأ الخبر في سره ثم جاهر به عندما نهره الباقون .. وبعد أن علم بالخبر كل أهل البلد تملك بعضهم حزن شديد لفترة قصيرة ثم ما لبثوا أن تراجعوا بعد أن تفشت الإشاعات التي بثها " العمدة " في نفوسهم المريضة .. ذاع الخبر ووصل إلى " الحاج حسن " بعد أن أكده له " الشيخ معتمد " وصارت البلدة في ثورة عارمة بعد أن تسرب خبر ظهور " **سعيد** " في البلد .. بدءوا يستنكرونه .. بل رفضه بعضهم .. وآخرون أرادوا التبرك به بعدما أطلقوا عليه " سيدنا الولي " الذي شنق ولم يمت !!

اضطر "**سعيد** " أن يحمل على عاتقه إثبات مولده من جديد واستخراج شهادة ميلاد له .

خرج يجوب القرية مع جمهرة من أصحابه ومن أفراد عائلته .. الذين صدقت منهم نبرة الإخلاص والعرفان بالجميل الذي أسداه إليهم " **سعيد** " في يوم من الأيام .. كثيرون يصرون على موته وهو حي بينهم. أضحوا أجساماً تحوي في جوفها قلوباً متحجرة .. لا يعرفون ولا يصدقون إلا ما تهواه أنفسهم في الأشياء التي ينالون منها منفعة .

يشيحون بوجوههم العابثة عن الأشياء التي فيها منفعة لغيرهم ولم يصيبوا منها شيئاً ، وإذا أصاب أحد ما خيرا لا يتركونه في حال سبيله.. بل يحسدونه وتنصب عليه الأبصار ناقمة.. حاقدة بل ساخطة:

- من أين له بكل هذا ؟
- يستكثرون الخير على أهله !!

دلف " **سعيد** إلى غرفة " جده " .. وجده ممدد على سريره .. وجهه مصفرٌ يعلوه الشحوب .. شعر أن هذه هي النهاية ، وأن شبح الموت يحوم في الغرفة .. رفع " الجد " يده بتثاقل مشيراً نحو " **سعيد** " .. أطبق " **سعيد** " عليها راحتيه .. أخذ يقبلها حتى دخل عليهم الطبيب وقام بفحصه .

شعر " **سعيد** " أن ملامح الطبيب قد تغيرت بعد الكشف .

كتب الروشتة .. أخذها " الحاج حسن " .. طلب من " خروع" أن يأتي بالعلاج .

أشاح " الجد " بوجهه عنهم في ضيق وبدا عليه الاستياء وقال :

- هات يا " حسن " الروشتة دي !!

- ليه يا ابويا ؟

- هات يا " حسن " !!

أمسكها " الجد " بيده المرتعشة .. دسها في جيب " الصديري" .

وأردف :

- بعد شوية ابقوا خدوها واصرفوها ... إنتوا ليه مستعجلين ؟

أخذ يتفرس وجوههم ببشاشة لم يعهدوها .. صارت بشرته ناصعة البياض وهو يجوب ببصره نحوهم واحداً تلو الآخر .

يبصر أشياء أخرى بينهم .. هو وحده الذي يراها .

تبسم وقال :

- " اشهد ان لا إله إلا الله واشهد ان محمداً رسول الله ".

وشهق .

شعر " سعيد " أن الحياة قد توقفت بموت جده .. وهو يتذكر كلامه :

- أنا قلت إن " سعيد " هايرجع .. وأهو رجع .

كان الوقت ظهراً عندما شيعت الجنازة من الجامع الكبير .. كان يسير فيها جمع خفير من المشيعين يتحركون في موجات خلف " النعش " المغطى بقطعة من القماش الأخضر ومزركشة " بالذكر الحكيم " .

وصلوا إلى المدافن في طرف البلد من الجهة الغربية ، وكان آخر المشيعين لا يزالون في وسط البلد .. يتحركون صوب المدافن.. " الحاج حسن " وابنه " سعيد " و " فرج " يتقدمونهم.. وفي أثناء ذلك كان " السرادق " قد نصب في " الجرن " الواسع أمام " الدوار " وفرشت الأرض بالسجاد الأحمر .. علقت الثريات التي تتلألأ في ضوء الشمس الساطع .. نصبت مكبرات الصوت التي بدأت تغمر البلد بآيات " الذكر الحكيم " .. يقف " سعيد " بجوار أبيه ومعه " فرج " في استقبال المعزيين من أهل البلد والبلاد المجاورة .. كانت الصدمة المروعة لـ " سعيد" عندما رمق " حشاف " يدلف إلى السرادق وسط لفيف من رجاله .. شعر بدوار بسيط في رأسه .. كما تملكت " حشاف " دهشة كبيرة :

- هل هذا هو " سعيد " فعلاً ؟ أم اخ له ؟ أم شبيه له ؟ أم ماذا .. ؟

جلس على مقعده داخل " السرادق " ينظر نحو " سعيد " بطرف خفي خلسة وهو منهمك في استقبال " المعزيين " .. همس في اذن أحد رجاله الذين يرتدون حللاً سوداً .. مكث لحظات كما لو كان يجلس على قطعة جمر .. انتفض والغضب قد تملك منه .. خرج يتبعه

رجاله .. وقف بجوار العربة السوداء الفارهة يكلم نفسه ويبرطم .. لعن رجاله .. توجه بعد ذلك إلى دار أمه " شنشانة " التي طردته شر طردة .. خرج من عندها صوب دوار " العمدة السباعي صالح " الذي فرغ للتو من قضاء واجب العزاء، أثار غضب " حشاف " بشدة تأكيد " العمدة " له بأن الذي رآه إنما هو " سعيد " بشحمه ولحمه ، وأن بعض أهل البلد ينكرونه وبعضهم الآخر يتبركون به .. بعد أن أطلقوا عليه "سيدنا الولي ".

صمت " حشاف " قليلاً ثم قال وهو يحاول أن يكظم غيظه :

- فلت إزاي من حبل المشنقة ؟ الموضوع فيه سر كبير ولازم أعرفه .

فغر " العمدة " فاه ببلاهة وقال :

- أيوه .. الموضوع كبير قوي وفيه سر كبير ولازم نعرفه !!

نهض " حشاف " مستأذناً وهو يعدل من رابطة عنقه وقال :

- اسمع يا " عمدة " في حاجة غريبة بتحصل .. كلنا متراقبين ويظهر العميد " مختار سعد " ناوي يفتح ملف القضية تاني .. باين عليه عنده دليل على براءة " سعيد " .

كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما تسلل " سعيد " يراقب " حشاف " .. تأكد أنه ابن " شنشانة " الذي تركها وهو صغير .. ثم رمقه يتوجه نحو دوار " العمدة " .. عندئذ شعر أن الصراع المرير مع " حشاف " لم ينته بعد .

وبعد انتهاء العزاء بدا مهموماً وهو يحكي لزوج أخته .. أخبره بإحساسه المريع تجاه هذا الأمر .. لكن " فرج " هدأ من روعه مهوناً من الأمر ثم أشار عليه بأن يذهب إلى أي مكان .. يغير فيه جو ، وترتاح فيه أعصابه كالإسكندرية مثلاً ، وفي هذه الأثناء كانت " صفية " حائرة تريد التحدث معه ، ولكنها لم تستطع لأن الفرصة لم تسنح لها ، كان " **سعيد** " يشعر بهذه الحيرة في عيونها .. عندما يرمقها وهي تتحدث مع أخته " فاطمة " أو أمه" إجلال " .. كانت نظراتها له تحرك شيئاً ساكناً بداخله .

- ١٨ -

قرر الذهاب إلى " الفيوم " لقضاء بعض الأيام يلملم فيها شتات نفسه ويعيد ترتيب أوراقه .. خطرت "الفيوم " على باله فجأة لأن شيئاً ما بداخله هتف له بالتغيير إلى مكان جديد .

كان الوقت عصراً والجو صحواً عندما وصل إلى الفيوم .. بينما هو يمشي في أحد شوارع المدينة الرئيسية رمق لافتة مكتوب عليها " فندق اليوم السعيد " .

عرج على هذا الفندق بعدما قرأ اللافتة التي أدخلت السرور في نفسه .

قام بحجز غرفة .. لاحظ استقبالهم له بالمبالغة الزائدة .. كما لو كان وزيراً أو أميراً .. صعد خادم أمامه على السلالم وبيده مفتاح الغرفة وآخر خلفه يحمل عنه الحقيبة ، وبعد أن دلف إلى الغرفة دس يده في جيبه وأعطى كليهما بقشيشاً كبيراً يليق بأمير .

انصرفا من أمامه مغتبطين .

أوصد الباب وجلس على مقعد كبير مواجه لمرآة في وسط الحائط وبطوله وبجانبه مقعد آخر وأمامه منضدة زجاجية .. كانت الغرفة نظيفة ومرتبة وكل شيء فيها يلمع .. يفوح منها بقايا روائح عطرية داعبت أنفه.. جعلته يشعر بالنشوة وحركت بداخله المشاعر والرغبات المدفونة في أعماقه .

أخذ حماماً منعشاً .. بدل ملابسه .. دفع بجسمه إلى السرير الوثير وراح في نوم عميق .. لم يفق إلا عندما دق جرس الهاتف وأبلغوه بأن العشاء جاهز بالمطعم .

بدل ملابسه .. هبط السلالم متوجهاً نحو المطعم .. سعى إليه النادل ممسكاً بيده قائمة بأنواع الطعام .. اختار منها ما شاء .. تناول وجبة عشاء دسمة قوامها البط والأرز بالخلطة ثم توجه إلى كافيتيريا الفندق .

كانت الأضواء مبهرة وخافتة .. والموسيقى " السوفت " تنساب من أرجاء الفندق .. دلف إلى الكافيتيريا .. وقف يتلفت باحثاً عن منضدة خالية .

رمق إحداها على الطرف الآخر بجوار النافذة المغطاة بستارة صفراء.. جلس .. أتاه النادل بقميصه الأبيض ورابطة عنقه الحمراء.. طلب منه " قهوة مضبوطة " وجلس يراقب الجالسين .

كان معظمهم .. شبان وشابات .. يجلسون أمام نضد مفروشة باللون الأحمر .. بعضهم يتكلم همساً وبعضهم بعينيه والبعض أياديهم متشابكة على النضد وهم هائمون في بحور العشق والهيام، والبعض يجلس في صمت مطبق .

بينما هو يرتشف قهوته رمق ثلاث فتيات يجلسن وعيونهن الزائغة تجوب أرجاء الكافيتيريا .. يرتدين ثياباً لافتة للنظر .. إحداهن تجلس في مواجهته مباشرة والثانية لا يرى منها سوى صفحة من وجهها ، والثالثة ظهرها له والتي في مواجهته .. وجهها أشبه بوجه القطة ملامحها صغيرة منمقة نحيلة الجسم شعرها بني داكن وناعم.

كن منهمكات في الكلام همساً بطريقة توحي بالريبة والشك ورغماً عنه أخذ يحملق في وجه القطة .

شعر بأنها لاحظت .. لأنها تبسمت وهمست للأخريات ، وجدهن يلتفتن نحوه ضاحكات .

أدرك عندئذ بأنها قد حدثتهن بشيء ما عنه .. شعر بالخجل .. أشاح بوجهه عنهن .. لحظات ولم يستطع أن يقاوم الرغبة التي داهمته .. أقبل عليهن ببصره ثانية .. فهذه القطة خداها مدوران ناعمان .. شعرها الناعم يلامس جبهتها .. ابتسمت له عن قصد .. لم يجد بداً من مبادلتها الابتسامة ولكن بخجل .. حركت رأسها للخلف وهي تتحسس شعرها الداكن في خيلاء .

شعر أن حالته المزاجية مستقرة ، ويمكن أن يخوض غمار التجربة حتى النهاية ..

" من الجائز أنه قد أدرك أثر التغيير بداخله " ..

أخذ يقاوم الشعور المر الذي يعصره وهو يسمع خفقان قلبه حين أبصرها وهي تنتقل إلى منضدة قريبة منه .. ابتسمت .. تملكه الخوف.. تغلبت عليه رغبته الجامحة في محاولة لاكتشاف الجمال بنفسه .

هو كغيره يزعم بأن الشعور بالجمال مسألة نسبية .. تجرأ وهو يومئ برأسه باسماً .. بادلته التحية التي شملتها الإشارة بالانتقال إليها .

سكت لحظات حائراً ثم سألها عن اسمها أجابته بحياء مصطنع:

- " شيماء " .

لم يتوقع في البداية أنهن ينصبن شباكهن حوله من أجل حفنة جنيهات .

شعر أنها لاتزال طفلة صغيرة وأن عمره ضعف عمرها تقريباً .. تنبه لزميلاتها فلم يجدهن في أمكنتهن .. أخذ يجوب ببصره أرجاء الكافيتيريا .. كن قد اختفين .. بدأ يتوجس منهن :

فمن الجائز أن تكون هذه الطفلة هي طعم لصيد كبير !!.

انتقلَت إلى المقعد الملاصق له.. شعر برجفة خفيفة وهي تلتقط أنامله بأصابعها الصغيرة تتحسسها .. استسلم رغماً عنه :

- بدات السمكة تلتقم الطعم .. انتقلت حرارة جسمها إلى جسمه المتبلد.. أحس برغبة عارمة تشتهيها :

- هل يستخدم معها أحد الظلال الرمادية التي بلغت ذروتها ؟

تأملته .. ابتسمت .. اومأ برأسه في صمت .

تجمعت حوله شياطين الإنس والجن .. تفرس رقبتها الناعمة وصدرها الأملس العاري وشعرها المهدول بكثافة على صفحة وجهها وجبهتها .. غاص بداخلها .. شعر بخفقان قلبها .

اقتحم بخياله الأسرار وفتش عن المحظورات .. دفعه شيء غامض سيطر عليه .. فكر أن يقبل الشفتين المتلئتين المنفرجتين .. أشاح برأسه عنها حتى لا يفقد السيطرة على نفسه .. لحظات ثم رمق صديقتيها تدلفان إلى داخل الكافيتيريا وهن يضحكن بصوت عالٍ ويبرزن كل مفاتنهن .. يحركن أجسامهن كالعاهرات .. عندئذ تأكد أنه فخ .. اعتدل في جلسته .. وضع رجلاً على رجل .. احمر وجهها .. تملكها خجل أنثوي جميل .. انصرفت من أمامه مهرولة ..

تجاههن .. بالرغم من أنها بدت نحيلة فإنه اكتشف أماكن أخرى لا تبدو نحيلة .. أخذنها من يدها وخرجن .

وبينما هو في طريقه متوجها نحو غرفته .. قاطعه " الجرسون" وطلب أن يتكلم معه لحظات .. كان " الجرسون " غير راض عن تصرفاتهن في جنبات الفندق المظلمة .

أخبره بأن هذه البنت هي ضحية وأنها تدرس في المرحلة الثانوية وتعيش مع أمها المريضة وأخواتها الثلاث وهي كبراهن .. أوهموها بالكسب الوفير من هذا الطريق .. تركهم الأب وذهب مع أخرى داعبت غرائزه من أجل المال .. كان أبوها يمتلك شركة للمقاولات بالقاهرة ويعيش مع أولاده في رفاهية حتى أتت عليه هذه السكرتيرة وأغرقته في جحيم من الرغبة والديون.

ترك " الجرسون" .. توجه نحو غرفته مثقلاً بالهم الذي طُرح على كاهله .. ارتقى السلالم المؤدية لغرفته بالطابق الثاني .. كان يُجرجر قدميه وهو متوجه نحو السرير الذي ارتمى فوقه ضائق الصدر بما حوى من آلام الندم والتعاسة التي يعاني منها الناس في كل زمان ومكان .. بدأت تضغط عليه وتحمله ما لا طاقة له به .

عبثت بمشاعره وعندما عاودته كان إحساسه بها قد تغير .

بدأ يعاملها كطفلة وهذا ما أزعجها .. كان الوقت ظهراً حينما صاحبته في رحلة من الفندق إلى شلالات " وادي الريان " تلك المحمية الطبيعية في الصحراء .. كانت علامات المراهقة واضحة تماماً في كل تصرفاتها ، وفي الكافيتيريا المصنوعة من البوص والقش وسعف النخيل على شاطئ البحيرة .. جلسا ثم طلب لها عصير الليمون .. اجترعته على مرة واحدة .

طلب منها أن تحكي له عن ظروفها .. تغيرت ملامحها .. جلست واجمة .. كانت أشعة الشمس الصفراء تخترق شعرها الناعم فتبرز لوناً بنياً داكناً .. تمسك في يدها حقيبة من القماش المطرز بحبيبات الخرز الملونة اللامعة .

خمن أن يكون بداخلها كتب مدرسية .

طلب منها بإلحاح أن يتمشيا معاً على شاطئ البحيرة التي تتلألأ فيها المياه الزرقاء بلون السماء الصافية ، وتلال الرمل الصفراء التي تحيط بها من كل جانب من جوانب المدى .. بعد أن قطعا مسافة طويلة .. دنت منه .. أمسكت بيده في جراة ، تشابكت أصابعها الرقيقة مع أصابعه .. كانا قد ابتعدا كثيراً عن العيون .. صارا وسط التلال وحدهما وما إن أدرك أن هناك شيئاً ما يدور برأسها .. وأنه من السهل أن ينعم بها بين التلال الصفراء ، حتى فكر في العودة ولكنها حثته على المضي قدماً .

أحس أن طور المراهقة يضغط عليها بشدة .. ما لبث أن رمق عربة شرطة في إثرهم حتى جذبها من يدها وعادا أدراجهما وجلسا على مقعديهما .

شعرا بالجوع بعد أن داعبت أنوفهم رائحة السمك المشوي .. عنده رغبة ملحة في أن تكون واضحة معه .. ضغط عليها في الحديث.. بكت وانهارت تماماً وهي تحكي .. أخرج من جيبه منديلاً .. جفف دموعها المنهمرة بغزارة .. شعر بنبرة صدق في كلامها بعدما داهمتها تلك اللحظة التي يصدق فيها الإنسان ، ولكن ما يكون .

دفعتها قوة خفية لقول الحقيقة ، أو هي ومضات من الفطرة السليمة قبل أن تدنسها خدع البشر .

المنضدة التي يجلسان عليها قريبة من صفحة الماء .. أخذ يتابع الموجات الرقراقة التي تتراقص على صفحة البحيرة وتداعب الرمل الأصفر الكهرماني على الشاطئ الأصفر والماء الصافي ينساب من فوقه.

شرد بذهنه :

- ترى ماذا يحدث الآن في " **البجامون** " ؟

- " إن لم نسع لتحرير رقابنا بأنفسنا فنحن إذن مذنبون".

أتى الجرسون ووضع أمامهم على المنضدة أطباق السمك المشوي والسلطات .

بدأ لعاب الطفلة يسيل وهي وتحرك لسانها خارج شفتيها اللامعتين وابتهجت عيناها فرحة .. تماماً كفرحة الطفل بلعبة جديدة أو بقطعة حلوى .

خامره شعور لذيذ لم يعهده .. أو إحساس بالبنوة عكر صفو النشوة المتأججة بداخله .. هي حزمة الأحاسيس المتضاربة تصارعت بداخله .

هكذا دائماً يؤرق المرء ما يهواه !!

ساوره شك بأنها أهملته أمام ثورة بطنها العارمة نظرت إلى الطعام متحفزة .. أومأ لها برأسه .. أمسكت بالشوكة والسكين كأولاد الذوات .. لم يسعفاها .. تركتهما ويداها ترتعشان ثم استخدمت أصابعها الرفيعة التي غرقت في الدهون وصارت لامعة وبرز امتلاء شفتيها اللامعتين.

تأكد الآن أن التي أمامه هي مجرد طفلة تعبث في الطعام .

تذكر صديقتيها اللتين يلقيان بهذه الطفلة إلى الهاوية .. فإحداهما مطلقة والأخرى مر القطار من أمامها دون أن تلحق به كما أخبره الجرسون .

- ما ذنب هذه الطفلة بهذا ؟
- أمن أجل " لقمة " تفرط في نفسها ؟
- نعم إن الحياة تكمن في هذه " اللقمة " .

اقتحمت " منى " ذهنه فجأة وهذا الشيء الخرافي المسمى بالنخوة .. فقد مزقوا ثوبها وكادوا أن يفتكوا بها لولا هذا الوهم الذي أنقذها ، ولولاه.. فمن الجائز أن حياتها قد أخذت منحى آخر .. طوق بالجميل رقابهم ، وما لبثوا أن نزعوا هذا الطوق وألقوا به في وجهه ، ولولا أن "سعيد " كان منحة القدر لها .. لباتت شيئاً كئيباً .

كان يشعر بالسرور وهو ينظر إليها وهي منهمكة في بعثرة الطعام كالقطط أشار إلى " الجرسون " .. طلب منه أن يأتيه بعصير الليمون .. وضعت بداخله " الشفاط " وضمت عليه شفتيها الصغيرتين .. شعر بنبض قلبه الخفيف وهو يداعبها بكلامه .. ويبحر في عينيها العسليتين كعيون القطط .. راوده إحساس بأنها تبحث فيه عن أبيها المفقود .

أدرك حمق تفكيره المشوه تجاه هذه الطفلة التي تشعر بفتنة شبابها .

كانت السماء زرقاء بها حمرة خفيفة تتضح أكثر كلما تعانقت الشمس مع الرمل الأصفر في الأفق البعيد .. وطريق العودة إلى

الفندق يستغرق حوالي الساعة .. صعدا معاً العربة ومعهما آخرون .. اخترقت الرمال حتى صعدت طريق الفيوم الرئيسي .

الهواء المتسرب من نافذة العربة يداعب شعرها الناعم الكثيف وهي تحتضن حقيبتها .. مالت برأسها على كتفه .. ظن أنها تمارس دورها كأنثى تحاول إقناعه بأنها ناضجة .. كي تأخذ أجرها في النهاية بعد هذه النزهة ووجبة السمك الشهية .

بينما ذهنه مشغول في حل هذه المشكلة قفزت " صفية " إلى ذهنه المشوش .

هذه المخلوقة البرية الجميلة ، ورغبة أمه الملحة في أن تزوجها له .. انتابه شعور جارف بالرغبة بعدما أدرك أثر التغيير تماماً بداخله ، والحاج " حسن " الذي يعيش حياته طولاً وعرضاً .. هائماً مع " حلاوتهم" التي أنجبت له أخاً بسببه ثارت ثائرة أمه " إجلال " ولكنها ما لبثت ان خمدت ثائرتها أمام سطوة " الحاج حسن " ، سلمت أمرها لله .. رضيت بالأمر الواقع بعد أن صار زوجها ممثلاً للبلد في البرلمان وأضحى له من الأهمية ما لكبار الشخصيات المهمة .

دار بخلده أن يقابل أباها ذلك البائس الذي هرول وراء رغبته الجامحة .. بعد أن علم منها تفاصيل كل شيء .

حقاً .

بدأ ذلك الشيء الأسطوري المسمى بـ " النخوة " يتحرك بداخله ثانية.. بعدما ذهب به هذا الشيء إلى المشنقة .

وهذه المرة :

- إلى أين سيذهب به ؟

- إلى مستشفى المجاذيب ؟

- أم إلى مجهول يهابه .

فكر أن يترك هذا الأمر برمته .. كان شعرها الناعم المتطاير يداعب وجهه .. شم فيه رائحة شبابها الذي لا يرحم .

العربة غارقة في همهمات لا يفهم لها معنى .. بعد أن قضوا يوماً خلوياً جميلاً .. بالرغم من كتفيها النحيلتين فإن سيقانها طويلة وممتلئة .. وعبير أنوثتها يملأ الدنيا .. وبالرغم من أن حواسه تشتهيها بعنف فإنه لايزال يقاوم رغبة موحشة في هذا الجسد المتفتح يحاول الا يترك نفسه أداة في يد الظروف !

مد السائق يده وأدار جهاز الراديو .. كان الإرهاق يتفصد من خلاياه المرتعشة .. كانت أغنية تافهة .. مجرد ضوضاء مختلطة بثرثرة الركاب.. الظلام قد تكاثف وغمر العربة .. مد بصره من خلال رءوس الجالسين أمامه .. رمق الأسفلت الممتد المقسوم من وسطه بخطوط بيضاء متقطعة .. وضوء العربة يغمره بلون أصفر يثير الحنق ويحدث كآبة في النفس .. نظر من خلال النافذة إلى بعض المصابيح المتناثرة في الأفق .. شعرت " شيماء " بوحشة .. صار جسمها ملتصقاً بجسمه من ناحية اليمين .. يداها تغوصان في تلك المنطقة الدافئة بين ركبتيها ...

لابد أن تلك المسكينة بداخلها خوف .

شرد ذهنه .. تنهد محدثاً نفسه :

- ما أجمل إحساس الإنسان حينما يكون له بنت أو ولد في مثل هذه السن .

نتلذذ بمتعة الهروب من المسئولية وعندما تقع الكارثة نلعن الظروف ونلعن حظنا العثر .. نجعل منهما " شماعة " لتبرير فشلنا .. فقد حرمت هذه الطفلة من الحنان الذي ترنو إليه ولم تعثر عليه .

تحسس شعرها ونزل بيده على كتفها وضمها إلى صدره بشدة .. تنهدت وأخرجت من جوفها زفرة ملتهبة شعرت بعدها بالراحة .. مال برأسه ليرى ملامحها .. وجدها مغمضة العينين .

فكر أن يذهب بها إلى بيتهم .. لكنه تردد .

إنه لا يعتقد أن " العميد مختار سعد " الآن ـ وبعد أن تملك الشك منه . سيرد " الجميل " ويساعده على إثبات براءته من جريمة لم يقترفها .

هل يدرك هذا الرجل أن ما عاناه " **سعيد** " ويعانيه حتى الآن بسبب ابنته ؟ لم يحفظ له الجميل وزوجها لآخر .. نزولاً على رغبة أمها وسافرت مع زوجها إلى " الكويت " .. حاول جاهداً أن يطرد من ذهنه المشوش كل ذكرياته السوداء .. اقشعر بدنه كلما حاول تذكر أنه كان معلقاً في حبل المشنقة .

سأل نفسه :

- ماذا فعل " فرج " ؟ ومن أين له بذاك الشيء السحري الذي أنقذ حياته ؟
- نعم .
- هذا نتاج فكره جبارة تفتق عنها ذلك الشيء المسمى " بالمخ " .. هذان الفصان الخطران اللذان يحملان في ثناياهما أشياء ليس لها حدود أو نهايات .

- نعم .. هذه القطعة السحرية من الجسم هي التي تعطي إذنا بالحب وآخر بالكره .

- نعم .. فهي تجعل الدنيا إما خضرة نضرة وإما جحيماً مستعراً .

اخترقت العربة بنايات "الفيوم" .. كانت النجوم تتلألأ والسماء صافية زرقاء والشارع هادئ تغمره أضواء شاحبة صفراء .. هى قد استغرقت في النوم وأصدرت شخيراً .. عدل رأسها .. شعرت بالحنان الذي ينبعث من حنايا الجسد المحموم .. لم تلمس هذا الحنان من أحد .. آثر أن يوصلها إلى المنزل .. ودعته بقبلة شقية على خده .. ابتسمت ابتسامة عريضة ملأت الدنيا وهي تدخل المنزل ملوحة إليه بيدها الصغيرة .

ظل ماكثاً في مكانه حتى تأكد أنها دلفت إلى الداخل .

عاد إلى الفندق .. كان يجرجر رجليه عندما دلف إلى بهو الفندق والموسيقى تنبعث من أرجائه والضوء الخافت يبعث على الراحة.

أخذ مفتاح غرفته وارتقى السلم المؤدي للدور العلوي مجتازاً الردهة الموصلة لغرفته .. شعر براحة لا مثيل لها عندما دلف إلى غرفته .. أحس بأنه بمنأى عن هموم يمكن أن تصيبه .. أوصد الباب من خلفه بإحكام .. اطمأن على أهله بالتليفون .. طلب من خدمة الغرف أن يحضروا له عشاءه إلى غرفته .. خلع ثيابه وألقاها دلف إلى الحمام وما زالت تنبعث منه رائحة عطرية .. استحم .. شعر بالانتعاش .. استلقى على السرير وبيده كتاب أخذ يقرأ فيه حتى سمع الباب يدق .

دخل الجرسون وعلى يده صينية عليها العشاء .. وبالرغم من شعوره بالأمان فإنه كان يحس غربة موجعة بداخله لا يريد أن يعترف بها .. كانت شهيته مفتوحة . بعد أن رمق " البطة الفيومي المحمرة " التي تتوسط الصينية .

مكث يتفرس الطعام لحظات .. هناك بعض الذكريات المؤلمة تموج بداخله .. مد يده وأمسك بالبطة .. كان جو الغرفة حوله مغلفاً بالسكون.. عندما بدأت ذكرياته تزحف إليه .

فسخ البطة نصفين .. أخذ يتفرس أجزاءها ملياً .. تذكر البطة التي أتى له بها " فرج " زوج أخته داخل السجن .. ظل يقاوم هذا الألم ولكن.. دائما ما تقفز علينا الذكريات المؤلمة لتعكر صفو واقعنا .. لتقتل لحظات السعادة القليلة .. نربط الشيء بالذكرى .. فهذا الشيء يذكرنا بكذا .. وذاك الشيء يذكرنا بكذا وكذا .. وهذه الأغنية تذكرنا بـ ...

فما أجمل نعمة النسيان والأجمل من النسيان نفسه ان لو استطعنا أن نتحكم فيه واستخدمناه عند الضرورة .. عندئذ لن نجد على ظهر الأرض تعساء .

شعر بالوحشة داهمته .. دلف إلى الحمام .. غسل أسنانه " بالمعجون" .. نظر من جانب الستارة إلى السماء الواسعة .. النجوم تتراقص.. جذب الستارة .. استلقى على السرير .. رمق قطعة معدنية مدورة .. أمسكها وأخذ يتفرسها .. كانت فضية الإطار ذهبية من المنتصف .. مكتوب عليها " ألف ليرة إيطالية " .. وضعها بجانبه على

المنضدة وهو ينوي أن يحتفظ بها للذكرى .. شعر بأرق .. نهض ..أشعل التلفاز .. لكنه ما لبث أن شعر بالملل ثانية .

سأل نفسه :

- ماذا ستفعل " شيماء" عندما تأتي لتسأل عني ولم تجدني بعدما تعلقت بي ؟

فكر أن يترك لها رسالة .. بعدما أخذ منها كل المعلومات اللازمة له.

عزم أنه سيخوض غمار هذه المشكلة مع أبيها .

شرد ذهنه في دروب الحياة المظلمة المليئة بالأسئلة المعطلة ومنها السؤال الذي طالما سأله لنفسه مراراً وتكراراً :

- ما هو الضمير ؟

واتته الإجابة ثانية سهلة ميسورة وفي كلمة واحدة الا وهو " الرقيب".

كتب لها رسالة كان فحواها الوعد بحل مشكلتها وبث الأمل المشرق في المستقبل ، وقبل أن يفترسه القلق ثانيةً كان يغط في نوم ثقيل .

ـ ١٩ ـ

شعر بأن هناك شيئاً يدعو للتواصل بينها وبين عالمه المجهول المعالم .. دفع الحساب .. غادر الفندق بعد أن ترك لها الرسالة .

خرج يخالجه شعور بأنه يُنتزع من هذا المكان .. من الجائز أنه تعلق به بسبب ذكرياته الجميلة التي عاشها فيه .

ما هو السر في تعلقنا الشديد ببعض الأماكن ؟ وما مدى ما يتركه هذا السر من أثر الفراق في النفس .. ؟

كانت الشمس ساطعة والهواء مشبعاً بحرارة خفيفة لفحت وجهه .. عندما ركب العربة .. " أحس بسخونة على المقعد " .. امتلأت السيارة بالركاب ثم انطلقت تطوي الطريق المحاط بالصحراوات الشاسعة في طريقها إلى القاهرة وأشعة الشمس تنعكس على الرمال الصفراء الممتدة في الأفق وهو ينظر من النافذة .. شعر بزغللة في عينيه .. من الجائز أنها بسبب الحساسية .. جذب الستارة على النافذة وأراح رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه وهو يرى اطيافاً وردية فوق السراب .

توجه إلى حي " عين شمس " حيث يقطن أبوها مع زوجته الثانية.. دلف إلى عمارة هالكة .. عليها لافته زرقاء صغيرة مكتوب عليها الرقم باللون الأبيض .. المدخل الرئيسي لها ليس به ما يمنع أحداً من الدخول إليها .

ارتقى السلالم المعتمة إلا من أجزاء قليلة يتسلل إليها الضوء من فتحات ضيقة على الشارع .. يحمل بداخله التزاماً يؤرقه .

أخذ يتلفت حوله وظلال من الخوف تحيط به .. وقف أمام باب الشقة حائراً .. شعر بالامتعاض عندما رأى القطط وهي تبعثر عظام الدجاج والخبز والأرز المعجون بالصلصة الحمراء في أكياس القمامة على درجات السلالم المكسورة وبعد تردد قصير .. عقص يده ونقر بظهرها على باب الشقة القذر .. فُتح الباب وهو يقف منتحياً في جانب منه .

وقفت في إطار الباب امرأة منزوعة تقاسيم الجسم .. خصرها يشبه كتفيها .. ترتدي ثوباً شفافاً تبرز منه طيات اللحم الكبيرة على جنبيها .. وجهها مهدول وملطخ بالألوان الفاقعة .. شعرها قصير مجعد ومنكوش .. لا يوجد لها رقبة .. يبرز من صدرها كرتان كبيرتان ومهدولتان إلى أسفل .. تتشدق بعلكة تبرز فماً واسعاً مطموساً بالأحمر .. وضعت يدها في منتصفها واتكأت بكتفها العريض على الإطار الخشبى وهي تتقصع وصاحت :

- نعم .. ! عاوز إيه .. ؟
- الأستاذ " مهدي " موجود ؟
- أستاذ !! عاوز إيه يا خويا من الأستاذ ؟
- عاوزه في شغل .
- شغل ؟ هو الموكوس ده بتاع شغل ! خش يا خويا أهو قاعد عندك أهه .. عن إذنك .. آل شغل آل .. !

شـتان مـا بـين هـذه الدبـة المسـعورة والعمـل في مجـال العلاقـات العامة.. وقف يحدق في الرجل الذي يجلس ككومة على مقعد أنتريه عتيق مبرقط بألوان قاتمة تترك في النفس أثراً سيئاً .. عيناه تغوصان في وجه نحيل يحيط بهما اللحم الأسود المحروق .. شعره أشيب قصير .. يرتدي جلباباً أبيض متسخاً .. كانت زوجته قد دلفت إلى غرفة أخرى وتركتهما في الصالة المضاءة بلون أصفر يثير الحنق .. سحقاً لهذه المرأة .. قد أكلت الرجل لحماً وخلفته عظماً .. وقف كالمذهول يراقب هذه المأساة .

خرجت من غرفتها بعد أن بدلت ثيابها .. قالت بصوت محشرج والعلكة لازالت في فيها :

- أنا خارجة يا " مهدي " .. عاوز حاجة ؟

ثم التفتت نحو " **سعيد** " وقالت :

- معلش يا أستاذ .. كان نفسي أعملك واجب .. ولا أقولك:

- خلي الأستاذ يصب لك كاس !!

ثم ضحكت بصوت أبله وعالٍ وخرجت .

رمق أمامه على المنضدة زجاجة بها سائل أصفر يجترعه الرجل المسكين الذي يعاني الأمرين .. الضوء يصبغ الحيطان المتآكلة بلونه القاتم .

انتبه الرجل بعد فترة وقال بلسان ملعثم :

- حضرتك مين ؟

استشعر " **سعيد** " أن الرجل على قدر من الثقافة ومن شكله خمن بأنه قد تجاوز الخامسة والخمسين من عمره .

- انا " **سعيد عبد البر** " .

هز الرجل رأسه وبدا حائراً وهو يشك بأنه من الجائز يعرفه ولكن السائل الأصفر قد لعب برأسه .

أخذ يعبث بأشياء أمامه وبجانبه في حركات لا معنى لها وقال وهو يشير إليه بالجلوس :

- اتفضل ارتاح .

جلس " **سعيد** " متردداً وقال :

- ولادك بيسلموا عليك .

اتسعت حدقتا الرجل وأفاق من سكره وتملكه الذهول وبدا عليه الاهتياج :

- ولادي ؟

- بدونك هيضيعوا .. خصوصاً بنتك " شيماء " .. دي بقت عروسة يا راجل !!

- وانت عرفتهم إزاى ؟

- بعدين أحكي لك .

بدأ " **سعيد** " يحثه على أن يحكي له عن سبب المشكلة .. تأكد أنها الديون .. وعده بسدادها بعد أن شرح له التفاصيل ، وأن " **سعيد** " سيكون هو المالك بعد السداد و" مهدي " سيعمل معه مستغلاً علاقاته مع عملائه.

اتفق " **سعيد** " معه على موعد عند المحامي لإتمام الإجراءات .. ثم صمت لحظات وبدأ يحثه على العودة لأولاده ثانية .. كان الرجل يبكي وهو يتكلم بلهجة ملؤها الندم والحسرة على ما وصل إليه .

انصرف " **سعيد** " وتركه متألماً .

كان الظلام قد هبط وتكاثف بضراوة على البلد وذلك عندما وصل " **سعيد** " ودلف إلى غرفته .. ضغط قابس الإضاءة وأضاء الغرفة .. رمق صقره القابع داخل القفص .. جلس على طرف السرير وهو يفكر في المستقبل الذي يؤرقه .

أحياناً نفعل ما لا نَهْوىَ إرضاءً لغيرنا ..

كانت أمه لها رغبة شديدة في زواجه من " صفية " .. جعلته الظروف يمتثل لرغبتها وليفعل شيئاً أحبته امه .. أطفأ الضوء الأبيض في الغرفة الساكنة .. استسلم للنوم وهو لا يمتلك أي معايير تساعده على اتخاذ أي قرار .

بدت "صفية" في ثوبها الأبيض المطرز بحبات الخرز " كالحوريات" .. ابتسم " **سعيد** " وتملكه الانبهار وهو يبحر في عينيها السوداوين الواسعتين المرسومتين بالكحل الأسود بعناية .. " فاطمة " أخته وابنتها " أميرة " وأم العروسة بجوارها يرتبن لها طرحتها " التولي " الشفافة وطرف الفستان الطويل الأبيض المسدول حولها على الأرض .

أبو العروسة يجلس في صدر الصوان منتشياً بهذا النسب والطاقية الصوف البني مكبوسة في رأسه .. جلس " **سعيد** " بجوارها في الكوشة وعلى وجهه الهادئ ابتسامة مريحة ممسكاً بأطراف أصابعها المستسلمة لقبضة يده وهو ينظر إلى وجنتيها الموردتين ووجهها النابض بالحياة .. السرادق منصوب في الجرن الواسع أمام الدوار .. ظلت الموسيقى تدوي في البلد حتى الصباح .. تملكته رغبة هزت كيانه وشعور بديع بالنشوى عندما احتواها بنظرة احمر لها وجهها ..

كانت الأضواء مبهرة وخلابة تكاد تخطف الأبصار من حركتها السريعة المنسقة ، الراقصة تتهادى أمامهم وتتبختر على السجاد الأحمر .. الجموع الغفيرة يتراقصون ويتقافزون .. الأضواء تغمرهم وهم يتموجون في أزيائهم الواسعة وهم يلعبون بالعصي ، ويرقصون بالخيل على قرع الطبول مع المزمار ، في الصدارة جلس أبوه " الحاج " وهو يرفع يده بين الحين والآخر لتحية ضيوفه .. ظل " خروع " و " ميلص " يرقصان إلى أن وقعا من التعب.. وفي غمرة النشوة دلف إلى السرادق العميد " مختار سعد " .. سلم على الحاج "حسن " .. توجه نحو " **سعيد** " وعانقه عناقاً طويلا وحاراً .. عندئذ قفزت إلى ذهنه " منى " حبه الذي ضاع تجلس بجانبه في محاولة لتعكير صفو ليلته .. أخذ " العميد " ينظر إلى وجه **سعيد** ويتفرسه مذهولاً سائلاً نفسه :

- كيف يكون هذا هو " **سعيد** " الذي شنق .. إن في الأمر سراً كبيراً .

ظل " **سعيد** " متوجساً وهو يسأل نفسه :

- هل جاء قابضاً .. أم مهنئاً ، ومن الذي أعلمه ؟

ثم التفت بوجهه ناحية " حلاوتهم " التي تجلس في أبهى زينتها .. يجلس بجانبها أخوه الصغير "طارق" المغمور بفرحة زواج أخيه الكبير.

نهض العروسان وسط موجٍ غفير من الناس متوجهين نحو غرفتهم .. الملح والزهور والشيكولاتة تنهال على رأسيهما .. الصبية يتصارعون من أجل الفوز بقطع الحلوى الملقاة تحت الأقدام .. أخته " فاطمة " تمشي أمامهم في الزفة ممسكة بإبريق اصفر تصب منه الماء على شكل خط ملتوٍ لتبطل مفعول السحر إلى أن وصلا أمام الغرفة التي

يتهافتون للوصل إليها وكلما دنوا منها كان قلباهما يسرعان بالخفقان .

فتحت لهما " فاطمة " باب الغرفة وهي تطلق الزغاريد .. قبلتهما ومعها أمها "إجلال" ثم أوصدت عليهما الباب بعد أن دلفا .. والزغاريد لاتزال تدوي في أرجاء الدوار .

كانت حيطان الغرفة مغطاة بالستائر الوردية الشفافة ، السرير مفروش بملاءه بيضاء مطرزة من أطرافها ، بجانب السرير سجادة حمراء كبيرة والإضاءة الخافتة تتخلل أنسجة الفستان الأبيض والطرحة التولي وتشكل لوناً مبهراً ومثيراً .

احمر وجهها من الخجل وهو يرفع عن رأسها الطرحة الشفافة ثم بدل ملابسه وهو يشعر باشتهاء عنيف ونشوة ممزوجة بالفرحة .. إحساس مبهر لا يعادله إحساس آخر .. كانت مستسلمة لهذا الفيض اللذيذ الذي داعب أنوثتها .

انحنى وقبل شفتيها ورقبتها الحارة ورائحة صابون الشمس تراود أنفه.. شيء غامض يسري في بطء متخللاً جسديهما المرتجفين.

أحس بخفقان قلبها الذي قفز بين ضلوعها كالطائر المذبوح وهو يهمس لمفاتنها ، قسمات وجهها أبرزت جمالاً لم يعهده .. شعرها مسدول على جبهتها وصفحة وجهها ومنثور على رقبتها الناعمة التصق جسمه بالجسم الفائر مستسلمين للنداء الصارخ الذي أخذهما إلى عالم جديد الوقت فيه متوقف .

لم يخبرهم أحد بما حدث في أثناء الليل بعد الزفة .. عندما رمق " شحاتة " .. " حلاوتهم " وتأججت بداخله جمرات الغضب " الدفين "

.. استل سكيناً وغرسه في صدرها .. تحول نفس السرادق إلى مأتم لتلقي العزاء .. تملكه الذهول وهو يحدث نفسه متأملاً ترتيب القدر :

- عجباً لترتيب القدر لنا ..
- بقدر علمنا بالماضي يكون جهلنا بالمستقبل وما يحمله لنا من مفاجآت .. فقد تأتي بكل مسببات الشيء وتتوقع له النجاح ثم تفاجأ بالنقيض.
- لماذا نخاف إذا ضحكت لنا الدنيا ؟
- نعم .
- فهذا الخوف نابع مما يحمله المستقبل لنا ومن فقدنا لفرحتنا التي لا نملكها .. إذاً فلنفرح بحذر ولنحزن أيضاً بحذر .

قبل أن تحدث كل هذه الظروف كان قد أخذ من أبيه المبالغ المطلوبة لإنهاء صفقة شركة المقاولات مع " مهدي " وكلف " فرج " بتولي هذا الأمر مع الأطراف الأخرى بموجب توكيل منه .. وكلفه أيضاً مديراً عاماً للشركة ، و " مهدي " مسئولاً للعمليات بها ، وبذلك أضحى " **سعيد** " صاحب شركة كبيرة للمقاولات بالقاهرة .

كانت المفاجأة الكبرى عندما أخبره " فرج " بأن " مهدي " قد طلق زوجته الثانية وأحضر أولاده من " الفيوم " .. استقر بهم الحال كما كانوا عليه سابقاً .. حينئذ تذكر الأوقات الجميلة التي قضاها مع " شيماء " في " وادي الريان " و" بحيرة قارون " وهي الآن في الجامعة وأضحت إنسانة أخرى .

جاء " خروع " ومعه الجريدة التي أخذها من " ميشيل أفندي" مدير " الجمعية الزراعية " .. وفيها صفحة كاملة بها صورة " **سعيد** " وبهذه الصفحة شرح واف لأحداث المحاكمة .. وما جعله غارقاً في أوهامه هو علمه بذلك الشريط الذي أعطاه " شحاتة " للعميد " مختار سعد " الذى قام بدوره بتقديم هذا الشريط لزميله المسئول عن ملف قضية محاكمة " **سعيد** " .. بات دليلاً لصالحه وقلب القضية على رأس " حشاف " والعمدة " السباعي صالح " .

ركزت الجريدة على أن هناك سراً غامضاً حدث لهذا الرجل " **سعيد عبد البر** " كان بمثابة خرق لقوانين الطبيعة وما أثار حنقه هو تشبيههم له بأنه من الجائز أن يكون في هذا الرجل " شيء لله" .

دفع به هذا التفسير إلى الهاوية .

بدأت الإشاعات تزداد حوله .. إنه صاحب معجزات في زمن انتهت فيه المعجزات ، وصاحب كرامات في زمن ضاعت فيه كل الكرامات وما لَبث أن صار " **سعيد** " هو "سيدنا الولي " .

هل هذا هو رد الجميل الذي فعله " مختار سعد " ؟

أخذت الحياة " **سعيد** " إلى منحى آخر دون رغبة منه .

هتفت بداخله نداءات من حيوات أخرى لها ترنيمات يسمع طنينها يتعجب :

- إلى أي مدى نستطيع أن نتحكم في مصائرنا ؟

ولكن .. هل يتحكم " سيدنا الولي " في مصائر البشر ؟

نعم .. يتحكم ! فكلامه أمر واجب التنفيذ .

وإلا فهي اللعنات الأسطورية القادمة من قلب الجحيم .. وستظل هذه اللعنات تتوالى إلى أن يمسك كل منا بزهرة ويضعها على أحد القبور الجماعية ، أو يهديها إلى " سيدنا الولي " لتحل علينا البركة .

شعر أن كل شيء يفلت من بين يديه عنوة .. بعد هذه الزيارة التاريخية .. كل الأشياء اختفت فجأة .

أتى إليه وفد من " المجاذيب " الذين تجمعوا من كل صوب وحدب ، معظمهم من البلاد المجاورة لبلدته بعد ما ذاع صيته وأضحى بالنسبة لهم هو " الحي الميت أو الميت الحى " .

تملكه الذهول وهو يفكر في ماهية هذا العالم الذي يحوي كل هؤلاء المجاذيب .

- هل هو عالمنا المحسوس ؟ أم هو عالم روحاني من وحي خيالهم .
- يرون فيه ما لا يراه غيرهم .
- صنعوه بأنفسهم وفق مصالحهم هم .
- صدقوه وآمنوا به .. باتوا في واد وما عاداهم في واد أخر .

كان الدوار مغلقاً بالسكون والبلد غارقة في الصمت المروع حينما جاءوا وهبطوا عليه من العالم الآخر .

هل خططوا لهذا ؟ قد انتصف الليل والبلد تسبح في الظلام الحالك عندما نقر أحدهم بعصاه على النافذة وهمس .

خرج " سعيد " ليرى ما يحدث بالخارج .

وجد ما يقرب من عشرين كومة مهلهلة مهترئة يجلسون تحت التكعيبة أمام الدوار .. كان الجو مضبباً والإضاءة خافتة .. تملكه الرعب وهو يسمع همهماتهم الشبيهة بهمهمات الجن .. دنا منهم .

انتفضوا واقفين في غوغائية .. أحنوا له الهامات .. أجلسوه على الدكة الخشبية وجلسوا حوله مفترشين الأرض .

أحدهم ملفت بطريقة توحي بالتساؤل .. فهو يرتدي ثوبا عبارة عن طبقات مهلهلة فوق بعضها ألوانها فاقعة مختلفة ، بعضهم يرتدي جلبابا عليه سترة .. يلف رأسه بعمامة بيضاء مدلاة من الخلف .

سأل نفسه :

- من هؤلاء القوم ؟ وفي أي زمن يعيشون ؟
- هل هذا حلم ؟ .. أم هذيان محموم ؟ أم جاءوا من عالم اللاواقع ؟

أحدهم يجلس مربع الرجلين شعره طويل ومنكوش يغطي أذنيه .. على رأسه طاقية خضراء صغيرة ، على كتفيه شال بلون فاقع ، نظره لأعلى كالمتعالي أو كأنه يحدق في عصفور ناعس على غصن الشجرة أو ينظر للأفق أو هو هكذا دون تفسير !

وآخر مربوع الجسم ذو شارب كث ، لحيته طويلة بيضاء من الوسط يرتدي سترة مشقوقة من الخلف وعلى رقبته مسبحة صفراء غليظة وبيده " مبخرة " خامدة .

مال على " **سعيد** " وهمس في أذنه :

- أملنا فيك كبير قوي يا مولانا .. لابد أن نغير هذا العالم القميء ! فقد بات الإنسان فيه عدو لنفسه .

خرجت صرخة من أحدهم :

- وحدووه .

غمغموا جميعا بأصوات غير منظمة :

- " لا إله إلا الله "

هز الرجل رأسه بطريقة آلية وقال :

- إحنا بعدنا كتير قوي يا مولانا ..

تملكته رعده وهو يتفرسهم .. فاغراً فاه .. حدقتاه متسعتان .. اعترته حالة متقدمة من الذهول .

بالرغم من أن الضوء كان خافتاً .. إلا أن من بينهم وجوهاً يشعر بأنه يعرفها ، لكنه لا يتذكر أين .. ومتى .. رآها .

سألهم :

- من أنتم ؟

أجاب المريوع :

- من بلاد كثيرة .. كل منا له بلده وأنت يا مولانا قد أظهرت كرامة .. ما من أحد منا أظهر مثلها .

كان حديثهم عاقلاً .. طبيعيا .. لم يذهب عقلهم .. لا يؤذون أحداً:

- هل هذا مجرد زهد ؟ فعندما نراهم في الطرقات أو المقابر أو أمام الجوامع نهابهم ، وحينما يغمرون الناس بدخان مباخرهم نلوي وجوهنا عنهم .. ولا يغضبون .. لم نفكر لحظة .. من هؤلاء ؟

قال المربوع :

- يا مولانا .. معظمنا شغل مناصب كبيرة .

أشار بعصاه نحوهم قائلاً :

- هذا كان باحثاً ومخترعاً وسرقت أبحاثه ولم يبال أحد به ، وهذا كان قاضياً ، وهذا طبيباً وهذا محامياً وهذا مهندساً .

لم يتم كلامه حتى انتفض " **سعيد** " واقفاً مذهولاً من كلام هذا الرجل .. تبسم الرجل وكشف عن فمه الخالي من الأسنان وقال :

- أجلس يا مولانا .. دمرتنا أحقاد البشر ، تلاشت أحلامنا وتحطمت طموحاتنا ، انتحر أملنا على الطرقات ، نحيا في الدنيا أغرابا ، وقد اخترنا طريقنا بإرادتنا .

سكت لحظات ثم أردف :

- نجتمع كل ليلة في المقابر .. لنتزود بالعظات التي يغفلها باقي البشر .

شرد " **سعيد** " بذهنه وتملكه الهلع محدثاً نفسه :

- هؤلاء مجرد شرذمة من المتخاذلين الضعفاء المتنطعين الذين تخلوا عن مسئولياتهم .

انتفضوا واقفين كما لو أنهم أدركوا ما يدور بخلده .

بدا عليهم الغضب وهم يتهامسون .

ثم قال المربوع :

- يا مولانا نحن نتقابل في منتصف كل ليلة هنا بالمقابر .. إن أردتنا ستجدنا هنا ، نحن جميعاً ننتظرك لأنك أملنا .

انصرفوا من أمامه مهرولين .. أخذ يتابعهم وهم يختفون كالأشباح .. يسمع منهم همهمات لكنه لا يفهم معناها ثم شرد :

- هل هؤلاء ضحايا أنفسهم أم ضحايا غيرهم ؟

- أم هم مجرد كائنات زاهدة تحيا دون أن يشعر بها أحد ؟

كان الضباب قد تكاثف بضراوة وحجب الرؤية .. بعد هذه الزيارة التاريخية دلف إلى غرفته وهو يضمر في داخله الفرار إلى القاهرة لينجو بنفسه .. عندما وقع بصره على زوجته تلاشى كل شيء وتبخر كما لو كان قد استيقظ للتو من حلم مزعج .. كانت ممدودة على ظهرها وسط السرير .. تأملها لحظات .. شعرها الطويل الحالك السواد على الوسادة البيضاء ، حبات العرق المتلألئة تضيء صدرها الشفاف .

شرد في قول أحدهم :

- إن الإنسان هو عدو نفسه ! كيف ؟

كيف يتمرد الإنسان على نفسه ويكون عدوها وهو بطبعه لا يحب شيئاً آخر أكثر من نفسه ؟

أعادته مفاتن جسمها إلي نفسه .. جعلته ينبض بالحياة الفوارة وهو يبصر نهديها النافرين من هذا الصدر الرحب .

ما هذا الشيء الخرافي الذي يجعل الأجسام المتبلدة تتلمس طريقها دونما سيطرة ؟

وماذا تكون هذه الأوتار الحساسة التي تحرك فينا هذه الكيانات الجامدة ؟

خيالات ممتعة تحوم في الذهن ثم تحرك هذه الأوتار الحساسة وتجعل القلوب تنتفض بين الضلوع .. عندئذ يتمرد الجسم ويتحول كله إلى عيون مسعورة .. ترى كل ما هو خافٍ ومستور ولا تنتهي هذه الحالة من التمرد الأبدي إلا بعد تلبية تلك النداءات المحمومة الغارقة في رائحة صابون الشمس ، وما تلبث أن تنتهي هذه الحالة من التمرد .. حتى تتجدد دعوات لنداءات محمومة أخرى لتبدأ حالة التمرد من جديد .

كان ضوء الغرفة خافتاً ، والسكون يغلف كل شيء حوله .

اضطجع بجانبه على طرف السرير شارداً :

- كيف يكون الإنسان عدو نفسه ؟

- إذا احتجت إلينا ستجدنا في المقابر .. نحن جميعاً في انتظارك !!

شعرت زوجته بوجوده عندما تقلبت على جنبيها .. تحسست الحرارة المنبعثة من خلال ملابسه ولحسن حظه أنها قد ادركت بأنه يجب عليها أن تخمد هذه الحرارة فوراً .

أحدث " خروع " جلبة في إيقاظ " الحاج حسن " كدأبه .. والشمس لم تزل تطل برأسها في الأفق والندى لم يتطاير بعد من صبح البلد المنعش .. عندما سمعت " صفية " الجلبة التي أحدثها " خروع " .. على الفور نهضت كي تدرك حماتها في إعداد الفطور قبل أن يعلو صياح " الحاج " الذي رفض بشدة ذهاب " **سعيد** " إلى القاهرة ورأيه في هذا هو أن يمكث معه ليساعده في أعماله خصوصا بعد أن أضحى نائباً في البرلمان ولكن لم يمر وقت

قصير إلا وقد وافق الأب نزولا على رغبة ابنه الملحة في أن يبدأ حياته بالشكل الذي يراه .

حزمت " صفية " حقائبها ، أمه تبكى بحرقة وابنها " **سعيد** " يهدئ من روعها ويطمئنها بأنه سيكون معها باستمرار .

قد علم من " فرج " أن " شيماء " أتت مع أبيها ودخلت الجامعة .. تسللت إلي داخله أطياف لأفكار سوداء تلاحقه .. لا يبوح بها حتى إلى نفسه ، إنما تموج بداخله .. فقد وضع القدر في طريقه أشياء لم يسع إليها .. إنما سعت هي إليه .

كانت شقته فارهة .. بدأت زوجته تتحول إلى طبقة أخرى لم تكن تتوقعها .. فقد واجهتها صعوبة بالغة في الانخراط داخل هذا المجتمع الأكثر تحضرا من " **البجامون** " .. مجتمع النادي والكافي شوب و الاسترتش .. يستغرق في الضحك عندما يشم فيها رائحة صابون الشمس التي كانت تستخدمها في " **البجامون** " .

طلب من " مهدي " أن ينشر في الجرائد إعلاناً يطلب فيه " سكرتيرة " تكون حسنة المظهر .. وفي الصباح كان أمام باب مكتبه طابور من الفتيات الحسناوات .. فقد استخدم الألوان التي تقع بين الأبيض والأسود وباتت ظلالاً رمادية تتحرك بداخله وتهتف بالتغيير .. ظناً ينمو بداخله تحول إلى يقين بأنه ليس نبياً مرسلاً وليس ملزماً بإصلاح الكون .. إنما هو مجرد إنسان ، وحان الوقت أن يعيش لنفسه فقط وكفاه ما لاقاه فلم تعد عليه نخوته ذلك الكائن الخرافي إلا بالمشاكل التي كادت أن تودي به إلى قاع الجحيم.

كان الجو صحواً في هذا الصباح عندما وصل إلى المبنى الذي يضم شركته .. دلف إلى غرفة مكتبه المفروشة بالسجاد الأحمر .. اعتلى الكرسي الجلد الدوار أخذ يدور به يمنة ويسرة متباهياً ويداه على المكتب الفخم تداعب الأشياء .. كانت غرفة ساكنة لا يسمع فيها سوى أزيز المكيفات .

دخل عليه "مهدي " .. طلب " **سعيد** " منه إدخالهن واحدة تلو الأخرى وهو جالس على مقعده كالطاووس يحدق في الأجسام المجسمة المفعمة بالحياة التي حركت كل الظلال الرمادية بداخله .

من السهل أن نلقي بالقيم في قاع البحر ومن الصعب إنقاذها ثانية.

وقع اختياره على احداهن .. هي التي أحيت بداخله الأوهام .. بدأ الخيال الأسود يتمرد عليه .. وسوس له بأن هناك كثيرات غير "صفية" زوجته .. تلك التي تحمل بداخلها رائحة " صابون الشمس " النفاذة .. و"فرج " هذا الرجل الوفي النادر الذي لا يعرف شيئاً في حياته سوى الإخلاص لصاحبه ، ومعه " مهدي " .. كانا سبباً في نقل الشركة إلى الصف الأول وأضحت من العلامات الناهضة .. تسلطت عليه الأضواء وأضحى " **سعيد عبد البر** " نجماً بارزاً .. لقاءات تليفزيونية وأحاديث صحفية وحفلات ليلية .. صار كالظمآن الملهوف على الماء .. بعد ما لاقاه من المبادئ التي لم تجد لها أرضاً خصبة لكي تنبت وتترعرع فيها.. ولكنه عثر على الماء .. عندئذ قرر أن يعيش لنفسه فقط .. صنع لنفسه عالم ضيق الأفق .. لا يوجد بداخله سواه .. عالم محدود يكون دائماً في متناول يديه .. يتحكم في أشلائه البالية

.. ينقب فيه عن " منى " التي لم يجدها في " صفية " أو في غيرها .

بينما هو منهمك في بعض الأعمال داخل غرفة مكتبه كان الجو عصراً .. وذلك عندما قررت " شيماء " أن تذهب إلى الشركة لتراه .. ذلك الفارس المغوار الذي أنقذها من براثن الضياع ، كما أنقذ " منى" قبلها وفي غرفة السكرتيرة رمقت " شيماء " فتاة أشعرتها بالغيرة كانت هذه هي السكرتيرة الحسناء ، ملفوفة القوام فارعة الجسم ملامحها أنثوية جميلة ، شعرها أسود ناعم ومفرود ، على ظهرها وعلى جبهتها " قُصّة " ، وقفت تدور حولها وتتفرسها بعيون ملتهبة ثم جلست أمامها على المقعد الجلد ووضعت رجلاً على رجل وحقيبتها علي رجلها .. التفتت ناحية لافتة مكتوب عليها " رئيس مجلس الإدارة" .. كان باب هذه الغرفة من داخل غرفة السكرتيرة .. الجو ساكن والأضواء خافتة وهذا الجناح بعيد عن جناح الموظفين المليء بضوضاء واضحة لا تخمد .

تنهدت وبدأ عقلها يدور .. باحثة عن أشياء داخل الفراغ الذهني المليء بالظلال الرمادية .

نهضت السكرتيرة ودلفت إليه ثم خرجت وهي تشير بيدها :

- " اتفضلي " .

وقفت مترددة تسمع خفقان قلبها .. ثم تقدمت نحو الباب بخطوات ثقيلة .. وما إن دلفت إلى الغرفة .. حتى رمقت " سعيد " واقفاً في انتظارها .. وقسمات وجهه عليها انفعالات تفضحه وتكشف مكنونه .. وقفا لحظات يقرأ بعضهم بعضاً في صمت ثم انطلقا في عناق حار كاد يعصف بهما .. والسكرتيرة تتابع من فتحة ضيقة بالباب مما

جعلها تفكر ملياً في إعادة ترتيب حساباتها .. لحظات ثم خرجا معاً والسكرتيرة تحدق فيهما والغل والغيرة يفترسانها .

توجه بها إلى كازينو " مرمر " على شاطئ النيل .. أجلسها في نفس المكان التي كانت تجلس فيه " منى " .. وهو يحاول عبثاً أن يبحث في عالمه الضيق عن " منى " .. أدرك أثر التغيير بداخله ، ولكنه لم يأبه لهذا التغيير .

صار فجأة كالمسعور يسعى إلى امتلاك كل المتع .. لا يريد أن تفوته أي منها .. وبعد أن قام بتوصيلها إلى منزلها توجه إلى شقته في العمارة الفخمة التي يمتلكها الجزار المدعو " يوسف درديري " .. هو رجل بخيل أشيب .. ظهره مقوس .. ثرثار بطريقة تبعث على السأم .. زوجته تدعى " أم فريد " امرأة تميل إلى السمنة قليلاً مغلوبة على أمرها مع هذا الرجل السليط اللسان .. فهو رجل ثري له محلات كثيرة عبارة عن فروع موزعة في معظم الأحياء .. يقطن وزوجته والخادمة في هذه الشقة المواجهة لشقة " **سعيد** " .. وقد بلغ الود مداه بين " صفية " و " أم فريد " زوجة المعلم " درديري "

رأى " أم فريد " تجلس وهي تبكي وبجوارها زوجته تربت على كتفها .

بدا متعجباً .. دنا منها مستفسراً فقالت له " صفية " :

- " فريد " ابنها غايب من أربع سنين ومايعرفوش شيء عنه .

بدا متأثراً وقال :

- ربنا يرجعه بالسلامة .

وأردف :

- هو تاه يعني ولا إيه ؟

قالت " أم فريد " وعيناها مترقرقتان بالدموع :

- أبداً أبوه السبب منه لله .. هو اللي طفشه !

- إزاي يعني ؟

ثم جلس على المقعد المواجه .

قالت :

- أيوه طول عمره يشتمه ويقلل من قيمته ويقوله يا " فاشل " .. بالرغم من أنه دكتور ، وبعد ما جوزناه .. أبوه ما سبهوش في حاله اتسبب في طلاق مراته اللي كان بيحبها .. لحد يا ضنايا ما جاله حالة نفسية وراح المستشفى .. رحنا نسأل عليه لقناه هرب منها .

لحظات ودق جرس الباب .

نهض " **سعيد** " وقام بفتحه فوجده المعلم " درديري " :

- اتفضل يا معلم .

- ازيك يا " **سعيد** " بيه .. " أم فريد " هنا ؟

- أيوه .

وجدها المعلم تبكي فقال غاضباً :

- هي كده على طول من يوم " فريد " ما طفش !

- ماهو أنت السبب يا معلم !

- السبب إزاي ؟ دأنا ما عنديش غيره .. وكنت عاوزه يطلع راجل خشن وجامد كده زى أبويا ما ربانى .

هدأ " **سعيد** " من روعهما وشرد بذهنه ناحية الطاحونة وهو يشك في أن " ميلص " هو الدكتور "فريد" .

كفكفت " أم فريد " دموعها بطرف الطرحة البيضاء ومسحت أنفها وخرجت مع زوجها المعلم "درديري " متوجهين إلى شقتهم.

جلس " **سعيد** " لحظات شارداً بينما زوجته في المطبخ تعد له العشاء كان ضوء الشقة الخافت :

- هل يكون " ميلص " هو الدكتور " فريد " حقاً ؟
- شيء لا يعقل .. بل هو درب من الجنون .
- لكي يهنأ الإنسان ويَسعد حاله .. يضطر إلى أن يضحي بأشياء كثيرة .. وقد كسر " ميلص " الطوق .. ورضي أن يكون مجرد عامل قرير العين مرتاح البال في طاحونة على أن يكون طبيباً ثرياً مثقلاً بالهم .

بدل ملابسه .. تناول عشاءه في صمت .. لاحظت زوجته شروده كما شعرت أن هناك شيئاً ما قد تغير في زوجها .. فالزوجة الذكية هي من تستطيع إدراك جميع الحالات التي يمر بها زوجها .

دلفا معاً إلى غرفة نومهما وهي ترتدي ثوباً فضفاضاً شفافاً كان يثيره عندما يراها فيه .. باتت أمامه الآن متوشحة " بالملس الأسود " .. زكمت أنفه رائحة صابون الشمس ، كان يذوب عندما يرى صدرها النافر وشعرها الكثيف المهدول على ظهرها .. بل كان يعشقها عندما يراها كالمهرة الجامحة .. انتابته حالة من الصمت الكئيب .

أدركت بحسها الأنثوي مدى التغيير الذي اعتراه .. هي تخشى أن يكون مثل أبيه لأن " العرق دساس " خافت أن يلهث زوجها وراء "

حلاوتهم " أخرى كما فعل أبوه من قبل .. ففي هذا المكان كلهن "حلاوتهم " .

اضطجع على السرير .. كان الضوء الأحمر الخافت يصبغ الحيطان والستائر البيضاء بلون داكن وهي تحور وتدور .. تحاول فك طلاسمه التي تعقدت وبينما هي ممددة بجانبه تسللت يدها إلى صدرها تداعبه وهو لا يكاد يشعر بها .. خياله يتخبط في كل شيء .. تذكر صقره وسألها عنه ، بدأت تعبث بأوتاره حتى نجحت في حل رموزه المعقدة وصار ليناً بين يديها .

توجه في الصباح إلى الشركة يغمره شعور جارف بالنشوة والانسجام .. السكرتيرة تدعى " سماح " وما إن دلف إلى غرفة مكتبه حتى كانت في إثره ومعها " البوستة " وهي تحاول جاهدة الإيقاع به في الشبكة التي نصبتها منذ اليوم الأول .. بالرغم من علمها بأنه متزوج ... قالت:

- صباح الخير يا أستاذ " **سعيد** " .

- أهلا يا " سماح " .. هاتي البوستة .

كانت ترتدي زياً قصيراً يكشف عن ساقين ملفوفتين وتمتلك حرفية عالية في استخدام أدوات التجميل على وجهها المرسوم بعناية فائقة.. وقفت بجانبه .. فكرت في استخدام بعض الحيل المعروفة .. مدت يدها لتضع الورق أمامه على المكتب وهي تنحني عليه وصدرها يلامس كتفه.. التفت فوقعت عيناه على نهدين أبيضين يرتعشان .

جف حلقه عندما داعبته بشعرها على وجهه وداعبت أنفه رائحة أخذت لبه غير تلك الرائحة التي يشمها من زوجته وهي رائحة " صابون الشمس ".

من ينقذ القلوب الرقيقة من بين أيادي الأشباح التي تجذبها إلى عالم سعد فيه من سعد وخاب فيه من خاب .

شعر أنه يهوي من داخله لولا أنها رحمته وانتصبت واقفة تتفرسه بعيون يسيل منهما الرقة والحنان اللذان يجعلان الشيطان يطمع في دخول الجنة .

التفتت متوجهة نحو الباب وهو يتابع مؤخرتها الملفوفة وخطي السروال البارزين وهي تتهادى في مشيتها .

أخذ يجفف العرق الذي تصبب من جبينه .. قفز إلى ذهنه تلك السكرتيرة التي أطاحت بالأستاذ " مهدي " .

فكر أنه لو وقع في شركها سيكون أحمق مأفوناً .

أضمر في نفسه أنها لو حاولت أن تعبث برأسه مرة أخرى .. سيلقنها درساً لن تنساه .

كانت تتنصت عليه من خلال الهاتف وتلفه بهواجس حمقاء .. لكي تستأثر به .

لاحظ " فرج " بذكائه الملهم ما تحيكه هذه السكرتيرة .. لكنه آثر السكوت مؤقتاً .

بينما هو يتحدث مع " **سعيد** " عن مناقصة كبيرة أعلنت عنها الحكومة في الجرائد .. أتت " شيماء " بحجة السؤال عن أبيها وهي في

الحقيقة تتذرع به دوماً من أجل أن ترى " **سعيد** " .. سمعا صوتها الناعم وهي تتحدث مع السكرتيرة التي ضاقت بها ذرعاً وصاحت :

- لو سمحتي .. " **سعيد** " بيه عنده شغل .
- طيب أنا هنتظر لما يخلص .

بدا " **سعيد** " متوتراً .

شعر " فرج " أن " **سعيد** " بات محط الأنظار ومطمعا لهن وبدا عليه الاستياء ثم انصرف .

وما إن دلفت " شيماء " وهي تحدق في " فرج " الذي لقيها عند خروجه أمام باب غرفة المكتب حتى تسللت السكرتيرة ووضعت أذنها على الباب ترهف السمع وتتنصت عليهم .

سَمِعَت انهما سيذهبان معاً إلى كازينو " مرمر " ، وما إن خرجا حتى اتصلت تليفونياً بزوجته .

كان الوقت ظهراً عندما وقفت " صفية " متوارية خلف شجرة كبيرة أمام مدخل الكازينو .

رأت زوجها ممسكاً بأنامل " شيماء " يداعبها و " شيماء " تبحر في عينيه هائمة به عشقاً. هي لا تعلم بأنه قد تزوج .. عندئذ تحولت " صفية " إلى نمرة واتجهت نحوهم والشرر يتطاير من عينيها وبطريقة بدائية قامت بقلب المنضدة فجأة وصرخت :

- تبقى مين دي بسلامتها ؟

شعر " **سعيد** " أن الجو أمامه صار ضباباً أسود وقال :

- دي .. دي ..
- دي حبيبة القلب طبعاً !!

قالت " شيماء " وهي مذهولة :

- مين دي يا " **سعيد** " ؟

نظرت إليها " صفية " وهي تكاد تنقض عليها لتفترسها :

- أنا مراته يا أختي.

هرعت " شيماء " غاضبة والألم يعصرها .. و" صفية " تتابعها بعيون يتطاير منهما الشرر ثم تفرست وجه " **سعيد** " وهي متحفزة تريد أن تنهشه وهي محملة بخيبة الأمل ثم خرجت من الكازينو مهرولة تقول:

- أنا سيبالك البيت ومروحة عند أهلي واستقلت تاكسي لتوصيلها إلى شقتها.. شعر " **سعيد** " أن كل شيء يهرب منه وأضحت الدنيا أمامه سوداء وعندما حاول اللحاق بها وجدها قد تركت الشقة .

بات ليلة سوداء .. لم يذق طعماً للنوم ورأى أمانيه التي ما لبثت أن تحققت حتى باتت تحتضر .

سعى لامتلاك كل شيء في عالمه المحدود الذي حاول أن يصنعه .

كان ضوء الغرفة خافتاً كئيباً وهو يجوب بعينيه الذابلتين أركانها التي يرى فيها صوراً باهتة لـ " منى " .

هوى على السرير وهو يتململ داخل هذا العالم الذي صار أسيره .. نهض من فراشه .. توجه نحو الصالة حيث " الصقر " القابع في قفصه ..أخرج قطعة لحم من " الثلاجة " وضعها أمامه .. جلس يراقبه وهو شارد الذهن مشتت الفكر .

وفي الصباح توجه إلى شركته وهو لايزال يرتدي نفس الثياب التي قضى بها ليلته كانت عيناه حمراوين منتفختين وعندما رآته السكرتيرة شعرت بالامتنان لنجاح خطتها .. طلب منها فنجاناً من القهوة .. دلف إلى غرفة مكتبه .. جلس على مقعده الدوار يلف به في حركة نصف دائرية حتى أتت له بالقهوة ووضعتها أمامه وهي تحاول أن تعيد معه الكرة .. حيث وقفت بجانبه تحاول أن تميل بجسمها المذهل عليه في محاولة يائسة منها لإثارته ، وما إن شعر بهذا حتى انفجر كل غضبه فيها .. فخرجت من أمامه مذعورة وجلست أمام مكتبها حزينة .. لحظات ورمقت أمامها فرد الأمن الخاص بالشركة ومعه شرطي سألها :

- لو سمحتي .. أين " **سعيد** " بيه ؟
- اتفضل ارتاح أما أديلو خبر .. أقول له مين ؟
- أنا من المباحث !
- شعرت بالارتباك !

هبت واقفة ودلفت إليه ثانية وخرجت قائلة :

- اتفضل !

وقف " **سعيد** " في انتظار الرجل ورجلاه لا تقويان على حمله وهو يقول للرجل :

- خير .. فيه إيه ؟
- عاوزينك النهارده الساعة الواحدة بعد الظهر .. في المباحث .
- لماذا ؟

- لا أعرف .. أما تشرف هاتعرف كل حاجة .

ومد يده له بورقة وقال :

- لو سمحت وقع هنا .. عن إذنك .. وخرج .

وقف " **سعيد** " كالمبهوت عندما أتى إليه " فرج " ووجده على هذه الحالة فسأله عن السبب .. لم يرد عليه .. ومد إليه يده بالورقة .

التقطها " فرج " وقد ثارت شكوكه وهواجسه عندما تذكر ما حدث في أثناء المحاكمة .

سأله " **سعيد** " :

- ماذا سنفعل ؟

- لا شيء .. انت تروح تشوف فيه إيه الأول .. وإذا سألوك عن السر تقول لا أعرف ، وأنا هاروح أجيب المحامي وآجي معاك .

تركه " فرج " وخرج .

شعر " **سعيد** " أنه يفقد اتزانه .

اجتر من قلب الماضي صورة جده " سليمان " والشيخ " معتمد " ثم أبيه وزوجته الحامل التي شعرت أنها قد امتلكته بمجرد أن تكونت في أحشائها قطعة من اللحم الأخرس .. عاد إليه " فرج" ومعه المحامي.

توجهوا جميعاً إلى المباحث .

كان الهواء ساخنا بالرغم من أن الشمس محجوبة والجو غائم .. دلفوا معاً إلى ردهة طويلة ومعتمة .

رمقوا لافتة مثبتة على باب غرفة مكتوب عليها " رئيس المباحث " وشرطي قابع على مقعده أمام باب الغرفة .. قام المحامي باعطائه الورقة .. أخذها الشرطي ودلف إلى " رئيس المباحث" ثم خرج وقال لهم:

- انتظروا شوية .. الباشا عنده شغل دلوقتي .

جلسوا ثلاثتهم على دكة طويلة في الردهة .. شعروا بالملل .. وقف " **سعيد** " حانقاً وقال :

- أنا ماشى .

الح عليه " فرج " فأذعن وجلس ثانية .. لحظات ثم صاح عليهم الشرطي وفتح لهم الباب .

وقف "فرج " منتظراً بالخارج عندما دلف المحامي إلى الغرفة وتبعه " **سعيد** " .. ورئيس المباحث " يجلس أمام مكتبه .. قدم المحامي نفسه ثم أشار بيده وقال :

- وهذا " **سعيد حسن عبد البر** " .

عندما سمع " رئيس المباحث " المحامي وهو يقول :

- " **سعيد حسن عبد البر** " قطب جبينه وهو يتفرس وجه " **سعيد** " .. حدق في الأوراق أمامه واضطجع للخلف وقال :

- جرى إيه يا أستاذ .. من أولها .

تغيرت ملامح المحامي وقال :

- ممكن أعرف من سيادتك إيه الموضوع ؟

- أيوه يا سيدي .. فيه شكوى مقدمه من المدعو " جابر حشاف " يتهم فيها صاحب شركة المقاولات بانتحال شخصية رجل آخر متوفي اسمه " **سعيد حسن عبد**

البر " ثم أشار وبيده ورقة ملوحاً بها قائلاً :

- ودي شهادة وفاته .

شعر " **سعيد** " بالذهول من هول ما سمع وقال :

- هو " جابر " خرج من السجن .

- أيوه يا سيدي خرج .

حبس " **سعيد** " انفعالاته بداخله وقال :

- بس أنا " **سعيد** " فعلاً .

- لو سمحت وريني بطاقتك .

- أخرج " **سعيد** " البطاقة وأعطاها له .

أمسك " رئيس المباحث " البطاقة وأخذ يمعن النظر فيها وبيده الأخرى شهادة الوفاة وظل ينتقل ببصره بينهما حائراً وقال :

- أنا مضطر أحولك للنيابة وهي تتصرف .. اتفضل وقع هنا .. ثم صاح على الشرطي قائلاً :

- خده حطه في الحبس !!

- قال المحامي مهدئاً من روع " **سعيد** " :

- ما تقلقش كلها ساعتين وها تتعرض على النيابة المسائية.

قام الشرطي بفتح غرفة .. بابها من الصاج البني السميك في الردهة العتمة وزج بـ " **سعيد** " داخلها .

عندئذ بدا لـ " **سعيد** " أنه سيضطر إلى ترك عالمه المحدود الذي صنعه لنفسه .. إلى عالم أضيق صنعه له غيره .

شعر بصداع في رأسه المليئة بالتساؤلات المحيرة .. احتبست في جوفه جمرة الغضب وهو يجوب ببصره ويتفرس وجوه الأشباح القابعين بجوار الحوائط الكئيبة كما لو كانوا مخلوقات أخرى ولكنها أخذت ملامح بشرية .. شعر بأنهم قد خرجوا للتو من البرك والخرابات والأماكن الظلماء .. في سقف الغرفة لمبة صغيرة مدلاة ينبعث منها ضوء أصفر يصبغ حيطان الغرفة بلونٍ داكن .

تذكر " **سعيد** " الزنزانة القديمة ورفقاءه فيها " فاروق " و " خلف " ثم شعر بالانقباض عندما قفزت صور " المجاذيب " فجأة والتصقت بذهنه وهو يستمع إلى نداءاتهم وهمهماتهم وهم يتسللون من أمامه قائلين :

- " الإنسان عدو نفسه .. إن أردتنا ستجدنا في المقابر " .

شعر نحوهم بحنين ما وفي غمرة ما يلاقيه كان بداخله بصيص يرى به صورة " منى " المختزنة في مخيلته التي وهنت .

مر الوقت ثقيلاً .. سمع دوي المزلاج الحديدي .. فُتح الباب وصاح الشرطي :

- "**سعيد حسن سيلمان** " .
- نعم .
- ياله عشان تترحل للنيابة .

نهض " **سعيد** " عن " البرش " مكتئباً يجرجر رجليه .. خرج مع الشرطي الذي يحمل معه بعض الأوراق ثم وضع " الكلبش " في يديه .

وركبوا عربة الشرطة متوجهين إلى سراي النيابة و في إثرهم المحامي و " فرج " بالعربة .

كان الحاج " حسن " مستاء جداً لما سمعه من " صفية " وهو يحدث نفسه :

- هل يكون ما في الآباء موجوداً في الأبناء ؟

- هل كل الرجال باتوا يبحثون عن " حلاوتهم " ؟

- هل من الصعب أن تكون كل النساء " حلاوتهم " ؟

كانت " إجلال " وابنتها " فاطمة " يطيبون خاطر " صفية " التي احمرت عيناها وذبلت من كثرة البكاء وهي تعيش الآن معهم في " الدوار "بعدما علم الحاج " حسن " بالأمر .

ذهب إلى أبيها وأخذها لتعيش معهم .. طار" الحاج " فرحاً بما تحمله " صفية " في أحشائها .. توجه إلى القاهرة ليلقى ابنه في محاولة منه لرأب الصدع الذي حاق بابنه وزوجته وعندما لم يجده في شقته توجه إلى الشركة حيث أخبرته السكرتيرة بكل ما حدث .. بدا كمن أصابه الهم .

جلس على المقعد أمام السكرتيرة واضعاً كلتا راحتيه على وجهه .. أجهش بالبكاء كمن يحاول تأنيب نفسه .. ألم به شعور بأنه قد قصر في شيء ما تجاه ابنه " **سعيد** " .

قامت السكرتيرة بواجبها .. أحضرت له كوباً من عصير الليمون .. وضعته أمامه على المنضدة الصغيرة وهي تطمئنه وقالت :

- الموضوع بسيط يا حاج إن شاء الله .

سألها وهو يبكي :

- الاقيه فين دلوقتي ؟

بدت متأثرة وهي تقول له :

- ياله يا " حاج " وأنا هاروح معاك .

- ياله يا بنتي .

كانت الشمس في طريقها للأفول وأعمدة الإنارة بدأت تلقي بضوئها الأصفر على وجوه المارة في الشارع عندما وصلت العربة واستقرت أمام مبنى " سراي النيابة " .

صاح الشرطي بصوت محشرج :

- يالا انزل أنت وهو من العربية .

وكان بها خمسة أفراد آخرون مع " **سعيد** " محولين للعرض على النيابة .. الإضاءة قد غمرت الردهات والغرف في مبنى " سراي النيابة " عندما دلفوا جميعاً في طابور ووقفوا في الردهة ينتظرون العرض على البيه " وكيل النيابة " ويجلس على باب الغرفة شرطي مدجج بالسلاح .. و" فرج " والمحامي قد وصلا ولحقا بهم عندما زعق الشرطي :

- " **سعيد حسن سليمان** " .

- نعم .

دلف المحامي وخلفه " **سعيد** " بعد أن فُكت قيوده .

أخذ " وكيل النيابة " يحملق فيه ويتفرسه ثم أمعن النظر ملياً في الأوراق التي أمامه وهز رأسه حائراً وقال :

- أنت " **سعيد** " .. ؟

- أيوه يا فندم .

- لأ .. أنت مش " **سعيد** " ولا حاجة .. " **سعيد** " منين ؟

- إزاي يا فندم !!

- طب اثبت لي إنك " **سعيد** " .
- معاك دليل واحد يقول إنك " **سعيد** " .
- ما أنا واقف قدام سعادتك بشحمي ولحمي .. دليل إيه تاني ؟
- مش كفاية تكون واقف قدامي عشان تبقى " **سعيد** " !
- أقسم لك إني " **سعيد** " !
- الحكاية مش كلام وبس .. لازم دليل فعلي يؤكد كلامك .

المحامي جالس على مقعده حائراً يحملق في " وكيل النيابة " تارة وفي " **سعيد** " أخرى وعندما همَّ بالكلام .. أشار له " وكيل النيابة " بيده... بمعنى اقعد ساكت أنت .. ثم أردف :

- " **سعيد** " خد إعدام واتنفذ فيه الحكم ، ولوح بورقة في يده قائلاً :
- ودي شهادة وفاته وعندي بلاغ من المستشفى بيقول :
- إن جثته اتسرقت .. يعني مالوش أثر ، ومرفق في ملف القضية شريط تسجيل .

كان " وكيل النيابة " شابا لم يتجاوز الثلاثين وغاية في الذكاء وكان يشعر بنبرة الصدق في كلام " **سعيد** " الذي أدرك أن " وكيل النيابة " يصدقه ولكن من داخله .

ظل ساكناً لحظات ثم سأله فجأة :

- قولي أنت مين ؟
- يا فندم أنا " **سعيد** " .

- تاني .. ؟ طيب .. لما أنت " **سعيد** " يبقى مين إللي اتشنق ؟
- أنا !!
- طب الزاي اتشنقت ولسه عايش ؟
- ماعرفش .. هو ده اللي حصل .
- قولي الحقيقة بدل ما حولك مستشفى الأمراض العقلية!
- يا فندم أنا مش مجنون .

بدأ وجه " **سعيد** " يتغير وظهرت عليه انفعالات مكبوتة سوداء خامره شك بأنه ليس " **سعيد** " فعلاً ، وظهرت على ملامحه ابتسامة ساخرة حزينة وهو يحدث نفسه :

- " **سعيد** " .. ؟ من اين تأتي السعادة ؟ وأنا لا أعرف الآن من أنا ! " **سعيد** " أم غير " **سعيد** " ؟

حقاً إن الألم له قدرة فائقة على سحق الأمل الذي أضحى يحتضر عندما باتت الآمال مجرد امتهانات وهوانات وسط كل هذا العبث في عقول تبحث عن أوهام تسعدها ، وعقول أخرى تفعل دون أن تفكر .

كانت أعماقه تموج بالأوهام التي تدفعه لكي يعبر عالمه المحدود الذى صنعه لنفسه إلى عالم آخر .. لا أحد يعلم شيئاً عنه ، وأيادي الأشباح الهلامية تتسارع في جذبه من لباس السكون المغلف به .. بعدما تبعثرت آماله وآلامه على الطرقات .. باحثاً في أعماقه عمن يُحيى بداخله هذه الآمال ثانية ، أو باحثا عن الإنسان الذي يشعر بالإنسان .. كانت عيونه زائغة .. تلفت حوله .. حملق في الستائر المعلقة أمامه على النافذة خلف " وكيل النيابة " ثم التفت نحو أمين السر

المنهمك في الكتابة وسمع " وكيل النيابة " يقول :

- يخلى سبيله بضمان محل إقامته ، ويكون تحت الطلب في أي وقت ، ويفتح ملف القضية المتهم فيها " **سعيد حسن سليمان عبد البر** " ثانية ويعاد التحقيق من جديد. ثم أشار بيده ناحية الباب وقال :

- اتفضلوا .

انفرجت أسارير المحامي عندما سمع هذا الكلام الذي لم يأبه له " **سعيد** " ولم يلق له بالاً مطلقاً .. خرجا معاً من غرفة " وكيل النيابة " بينما المحامي متهلل ويقول موجهاً كلامه لـ " فرج " والحاج "حسن " اللذين لقيهما بلهفة وحرارة :

- فرصتنا الآن كبيرة يا " حاج " لاستخراج شهادة ميلاد لـ "**سعيد**" .

و" **سعيد** " مازال شارد الذهن لا يفقه شيئاً مما يدور حوله بعدما خامره شعور بأن " المجاذيب " ينتظرونه وينادون عليه بإلحاح .. فأصر أن يلبي هذا النداء ، وقرر أن يذهب إلى المقابر .

((تمت))